حالات نفسية وقصص واقعية

تطبيقات في علم النفس

د. رمزي مفتاح

الكتاب: حالات نفسية وقصص واقعية.. تطبيقات في علم النفس

الكاتب: د. رمزي مفتاح

الطبعة: ٢٠٢١



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

مفتاح ، رمزي
حالات نفسية وقصص واقعية.. تطبيقات في علم النفس / د. رمزي مفتاح
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٠٧ ص، ١٨ *٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٤ – ٤٥ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٥٠٦ / ٢٠٢٠

حالات نفسية وقصص واقعية
تطبيقات في علم النفس



مقدمة

كتبت هذه القصص ليجد فيها القارئ إرشاداً أو توجيهاً أو شروحاً أو معلومات أو مكاشفات عن الأمراض النفسية والتنويم المغنطيسي والإيحاء الذاتي، وأسرار العالم الروحاني وعجائب القوة الفكرية، منساقة في تضاعيف القصة منسجمة في أثنائها، انسجاماً طبيعياً سهل المأخذ حلو السرد، وإذا كانت طريقة المؤلف في التشخيص والعلاج والشرح تبسط الموضوع إلى درجة مثيرة للدهشة فإنها لا تخرج أبداً عن دائرة الحقيقة العلمية بأدق قيودها، ويمكن القول بأن المؤلف له طريقته الخاصة في العلاج كما له مذهبه الفلسفي الخاص في دراسة النفس البشرية أو الروح. نقول يمكن القول ومعنى ذلك علمياً أنه ما دامت النتائج العملية التي يصل إليها في العلاج النفساني صحيحة أي أنه ما دام قد نجح في علاج الحالات النفسية المعقدة نجاحاً لا يمكن إنكار غرابته وذلك على أساس نظرياته وطرائقه الخاصة، فقد أصبح له الحق أن يكون صاحب مذهب فلسفي عظيم القيمة. وبالفعل قد احتلت دراساته ومذاهبه مكانتها العلمية بين العلماء الذين اطلعوا على مؤلفاته ومباحثه العلمية في فلسفة النفس البشرية وفلسفة الوجود وأسرار العالم الأثيري وفي تشريح المخ البشري والغدة الصنوبرية.. ومازالت نظرياته فيهما وسبقه إلى كشف أسرارهما قائمة، ومازال رائداً في أسرار العالم الروحاني والميتافيزيقا والتنويم المغنطيسي وعلاج الأمراض النفسية بطرقه الخاصة. وإنه ليعترف لجلة العلماء بتعمق النظريات والبحوث ولكنه في الناحية العملية العلاجية وفي غياهب المجهول وما وراء الطبيعة والتأثير على الغائب والوصول إلى عمق سر القوة الفكرية ما صادف نداً ولا قريعاً في العصر الحاضر وما له من نظراء سوى رجال الأسرار في القرون الغابرة. وأنه ما وصل إلى منزلته الحاضرة إلا بعد أن أصبح صاحب أسرارهم وحل ألغازهم وكشف عن كنوز أفكارهم الموضوعة في شكل معميات وأحاجي ينكص عنها الباحث ويضل السبيل إلى جوهرها. وقد عجز

عن اكتناهها جيل من الناس بعد جيل. وقد كشف المؤلف كثيراً من تلك الأسرار بصراحة ووضوح في كتابه "أسرار الإيحاء الذاتي" وفي كتاب "أسرار الظواهر الروحانية والمغنطيسية وتدريباتها العملية" ولم يخل كتاباه "رسائل النقد" و"إحياء التذكرة" من بعض تلك النفحات.

وإن القارئ ليلاحظ أن القصة في يد المؤلف كأدوات مختلفة يغاير بينها وينتقي منها ما يتطلبه البحث فهو ليس بالذي يلزم فناً أو أسلوباً خاصاً تتسم به كل أعماله القصصية فيصبح له طابع شخصي ولكنك تجد في كل قصة فناً وأسلوباً ونهجاً لا تشترك فيه مع قصة أخرى في هذه المجموعة المكونة من خمس عشرة قصة هي في الحقيقة خمسة عشر درساً في الفن القصصي الرفيع بله الناحية العلمية.

جبران سليم

السهّار

بطل هذه القصة لقيط ولكن لم يلتقطه أحد، كان في العمق العميق من نفسه يشتهي الموت، وأما عقله الواعي فكان يشتهي الحياة.. فكيف يكون مصير هذا الصراع؟

***

كم يشفق الناس على اللقيط! وبطل قصتنا هذه لقيط ولكن لم يلتقطه أحد إن جاز التعبير، فإن أمه لم تزل تحتفظ به! فهو أتعس إذن من لقيط!! ولد في الإثم وعاش في الإثم، له عينان وأذنان ولكنه لا يرى ولا يسمع، ولا يفكر في الواقع ولا يستطيع أن يفكر فيه!

بلغ "نسيم" الثامنة عشر من عمره وهو يعيش مع أمه في زقاق عجيب بالقرب من "حي الصاغة" في مدينة القاهرة، ولم يعرف له أباً ينفق عليه وإنما ألف أن يرى رجالاً يدخلون المنزل خفية وينصرفون خفية، وألف ألا يفكر في ذلك ولا يسأل عنه ولا يتكلم فيه، وإلا فالويل له!

وليس عجيباً أن يوجد مثيل هذا في كل ملة وفي كل أمة. ولعله غير كثير الشيوع في يهود مصر؛ فقد كان صاحبنا "نسيم" مصرياً يهودياً على مذهب (الربانين)، أما اسمه فليس مصرياً كما يتبادر إلى الذهن. فإن اسم "نسيم" مكون من كلمة عبرية هي نس ومعناها الأعجوبة أو المعجزة وتجمع كلمة نس هذه حسب قواعد اللغة العبرية على نسيم بالسين المشددة ولا نظن أن والدة نسيم هذا أطلقت عليه هذا الاسم فرحاً بمقدمه أو لغرابة شكله فهو أحمر الشعر أصفر العينين!! ولكن بعض العارفات ببواطن الأمور من عجائز الحي يقلن إن هذا المولود كان أعجوبة حقيقية لأنه قدم إلى هذا العالم في سهولة ويسر برغم ما فعلته أمه لترجعه إلى عالم الفناء قبل أن يرى النور.

وإذا كان معنى نسيم باللغة العبرية "الأعاجيب" فإن صاحب الاسم كان بالفعل مجموعة من الأعاجيب! فهو شاب يمرح كما يمرح أصدقاؤه من الشباب، ذكي سريع الخاطر كما يكون من يضطرب في الحياة كل مضطرب من أجل لقمة العيش. وهو أيضاً حزين قر في روعه الهم والعذاب! وهو أيضاً معتقل الفهم لأنه أمر منذ طفولته ألا يفهم ولا يرى ولا يسمع! وقد التحق بالمدارس بضع سنوات فكانت لذته الكبرى وراحة نفسه أن يقع أثناء الدرس مغشياً عليه تنتفض أطرافه ويشهق شهقات عجيبة فيحمل إلى الخارج أو يتحامل ليعود إلى منزله برفقة بعض زملائه فإذا به ينتفض سليماً معافى! ويقهقه ويغرب في الضحك! وإذا بكل هذا تمثيل قد أولع به صاحبنا وتفنن في طرائقه وألوانه، يعبر به عن رغبة دفينة في أعماق نفسه، رغبة في أن يغيب عن الوعي! أو رغبة في الموت!

ففي ذات يوم، وهو يعمل في محل صائغ بالصاغة بالقاهرة مر عليه بعض أصدقائه وأروه مسدساً معروضاً للبيع محلى بمقبض ذهبي مطعم بالعاج وأخذوا يفحصونه، وبينما هم في ذلك إذ انطلقت منه رصاصة كانت منسية فيه فأصابت صاحبنا بدليل أنه انكفأ صريعاً على الأرض واجتمع عليهم بعض الناس فإذا به يثب واقفاً يسخر منهم ويضحك ولم تكن الرصاصة قد أصابته مطلقاً. وفي بعض التمثيليات كان المشاهدون لا يصدقون أنه كان يمزح، فقد حدث في يوم عطلة أن خرج مع بعض رفقته إلى مكان خلوي وهم يركبون الدراجات وأخذوا يتمازحون بها ويتجولون ويعترض أحدهم الآخر حتى اصطدمت دراجة صاحبنا "نسيم" بدراجة زميل له فسقط واصطدم بالأرض صدمة عنيفة وشحب وجهه وتراخت أوصاله، وقام بعد حين وهو يدعي أنه كان يتماوت مزاحاً وهزلاً!! ويقسم أن هذا كان بمحض إرادته! ولما بدأ يربح من صناعة الصياغة اندفع مع رفقاء السوء اندفاعاً شديداً في معاقرة الخمور وتدخين الحشيش والتفنن في اصطياد الفتيات والنساء والتعرف إليهن بحيل شيطانية، ولعله كان يجد عزاءً وراحة كبرى في ذلك إذ يثبت لنفسه أن النساء كلهن يفرطن في أعراضهن وليست أمه وحدها التي تفعل! وأنه هو أيضاً يخون الناس في أعراضهم كما خانه الناس في عرضه!!

ومن الدوافع الباطنية التي كان يخضع لها نسيم ولا يعرف لها سبباً، ميله الغريب إلى

ما يسمونه (التنكر) أي إخفاء معالم وجهه حتى لا يعرفه الناس، فكان يلتمس لذلك الأسباب والمعاذير الكاذبة على عادة مرضى العقد النفسية متباعداً عن السبب الأصيل الكمين، فكان يدعي أنه مولع بصناعة "البوليس السري" في سرعة التنكر والاختفاء عن أعين الناس. وما هي إلا رغبة دفينة في الاستتار عن الأعين وتبديل هذه الملامح المدموغة بالإثم والعار!

فكان إذا رأى صديقاً له مقبلاً عليه عن بعد، أخرج منظاراً أسود بسرعة البرق فلبسه فغطى نصف وجهه ثم دفع في طاقتي أنفه بمقبض من السلك الدقيق يحمل شارباً مستعاراً فتتغير هيئته في نصف دقيقة! وإذا أسعفته الظروف خلع سترته ولبسها مقلوبة وهي معدة لذلك إعداداً خاصاً، فتبدو طبيعية ولكن بلون آخر يخالف لونها الظاهر، وكثيراً ما كان يخرج من منزله كامل التنكر فيجوب الطرقات ويجلس في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه فلا يعرفه أصدقاؤه، ولاسيما بعد أن بدأ يربح المال فاستطاع أن يتصل ببعض المحترفين في فن التنكر التمثيلي "الماكياج".

كان شالوم غائر العينين كثيف الحاجبين أصلع الرأس له لحية طويلة غلب عليها الشيب وهو يعرف في الحي بين أهل عشيرته باسم "يومطوب" ومعناه في لغتهم "يوم طيب" وذلك من قبيل التسمية بالأضداد فقد كان شالوم إسكافياً ولكنه يعمل أيضاً في خدمة الموتى. وخدمة الموتى تشمل أعمالاً واسعة النطاق عند مختلف مذاهب اليهود. فشالوم إلى جانب ترقيع النعال، حانوتي وسهَّار. أما الحانوتي فمعروف وأما السهَّار عندهم فهو الذي يسهر إلى جوار الميت إلى أن يطلع الصباح خوفاً من دخول الأرواح النجسة في جسده، ومع أنه لم يشاهد خلال الأعوام الطويلة التي قضاها في مهنته أي روح نجسة تحاول الدخول في جسد ميت فإنه كان يؤمن بذلك إيماناً أعمى ويعتقد أنه لولا سهره إلى جوار الميت لذهب المرحوم إلى الآخرة مسكون الجسد بالأرواح النجسة.

على أن قوته العقلية المشوهة لم تكن تخرج أبداً عن حدود الأكل والنوم وترقيع النعال وأعمال الحانوتي، فكيف يتاح له أن يتوسع في البحث في أسرار الأرواح؟؟ فقد ولد

شالوم خامد المدارك أقرب إلى العته منه إلى العقل. وكان يسكن مع ابنته غرفة أرضية لها ردهة مثلثة فتح لها باباً على الشارع – شارع الخليج المصري بالقاهرة – واتخذها محلاً لتصليح الأحذية ومكاناً مختاراً لتلقي طلبات الموتى...

وفي غروب إحدى ليالي الصيف كان جالساً إلى نعل يخصفها ويدق عليها من آن لآن بالمطرقة وهو يحدث ابنته بكلماته المقتضبة الملتوية التي لا يكاد يفهمها أحد سواها واللعاب يتناثر من بين أسنانه المهشمة السوداء وهو يفأفيء ويتأثيء، وكانت ابنته قذرة الثياب ولا تعرف القراءة وإنما تتولى بعض الأشغال في المنازل، فأحياناً تساعد في إعداد وليمة أو في تنظيف المنزل أو إصلاح بعض الثياب.على أنها كانت على جانب ملحوظ من الجمال... وإذا بشابين أقبلا عليهما في حزن شديد وأحدهما يضع على عينيه منديلاً يكفكف به دمعه المهرق والآخر مطرق مذهول كأنه يردد قول المرحوم حسين شفيق المصري:

لم تـــــدع لي الأيام دمعــــــاً يـــــراق فبكــــائي الــــذهول والإطـــراق!

وما شاهدهما شالوم حتى اهتز طرباً وسروراً، واستصحباه للسهر على ميت لهما، فأخذ معه – كعادته – مخلاته ليقطع الليل في العمل وسار معهما إلى زقاق بعيد حوله أتربة كثيرة وبيوت خربة فدخلوا غرفة أرضية تضيئها بعض الشموع، فرأى الميت موسداً ومغطى، وجلس قريباه يبكيان فترة قصيرة ثم تركاه وخرجا فأخرج شالوم سندانه ومطرقته وبعض الأحذية وأخذ في عمله وهو لا يشعر مطلقاً برهبة الموت ولا بانفراده مع كتلة ميتة كانت منذ قليل إنساناً يتكلم ويعيش!

وهكذا كان شالوم يعيش في هدوء وسلام في عالم العته والبلاهة، وأخذ يدق أحذيته ويخصفها وذراعه الضخمة المفتولة العضل لا تكل ولا تتعب، وبعد أكثر من ساعتين عاد الشابان إلى غرفة الميت فوجدا السهَّار مكباً على عمله برغم ضآلة الضوء. فقال أحدهما:

– انصرف أنت ونحن سنسهر بجانبه

– على كل حال أنا عملت الواجب وإذا... ولكن...

– نعم.. نعم.. خذ هذا أجرك كاملاً وزيادة

فلم ينبس السهَّار وأخذ النقود وجمع أدواته ومضى متثاقلاً وهو يحرك عينيه وحاجبيه حركات عصبية سريعة مضحكة، وما سار في الزقاق يتعثر في الأوحال والأتربة حتى أغلقا الباب وراءه وأخذا يضحكان ويتكلمان بصوت مرتفع فقد استمتعا بابنة السهَّار ورتبا معها المواعيد للمستقبل القريب!! وصاح أحدهما:

– قم يا نسيم فقد نجحت فكرتك نجاحاً تاماً! ورتبنا لك موعداً معها. يا لك من حشاش ومهرج عظيم، ما أفكه اختراعاتك!!

ولكنه لم يقم.. وكشفا عنه الغطاء فوجدا خيطاً من الدم ينساب من مؤخرة رأسه، وقد فارق الحياة وتجمع الدم في الفراش، فقد كان وهو منفرد بالسهَّار قد تململ في فراشه متعباً من هذا الدور الذي يمثله، فقام إليه الرجل وقرأ عليه بعض الصلوات. وهنا خطر له أن يداعب السهَّار فكان يرفع رأسه من آن لآن. وفي إحدى المرات رفع رأسه وأصدر بعض الأصوات الغريبة فبادره السهَّار بضربة جبارة بمطرقته على مؤخرة رأسه وعاد إلى حذائه يصلحه وهو يلعن الشياطين النجسة التي تعاكسه، وإذ كنا قد فسرنا للقارئ معنى اسم "نسيم" فمن حقه علينا أن نفسر له معنى اسم السهَّار (شالوم).

شالوم باللغة العبرية معناها السلام، وقد ارتاح "نسيم"، وحل السلام الأبدي محل العذاب على يدي شالوم. كان في العمق العميق من نفسه يشتهي الموت العاجل، وأما عقله الواعي فكان يشتهي الحياة. كل ما وصل إلى أعماق النفس لابد أن يتحقق.

قاتل الموتى

وأخذ القاتل يصرخ مستغيثاً في رعب وفزع وذعر بلغت مبلغ الجنون كأنه أخرس يستغيث من حريق يحاصره أو ضبع مجنون...

***

ليست هذه في الحقيقة قصة، بل هي وقائع حقيقية مأخوذة أصلاً عن الجرائد ومحاضر التحقيق، والغرض من كتابتها عرض حالة نفسية غريبة. حالة مجرم نبذه المجتمع وحرمه الكرامة والشخصية وضرورات المعيشة نفسها فأصبح مجنوناً بالانتقام يدفعه جنونه المنقوش في عقله الباطن إلى (نوبات) معينة ينفذها كاملة – ولا يرتاح إلا إذا نفذها كاملة – وإذ ذاك ينسرب منها وينساب انسياب الشعرة من العجين كما يقولون ويمضي وهو أثبت الناس عصباً وأهدأهم نفساً وأنعمهم بالاً، وهذا الوضع من الناحية السيكولوجية يشبه بالضبط وضع من يمشي في النوم، فقد يعبر من بيت إلى بيت على حافة طنف أو إفريز جدار لا يزيد عرضه عن شبر وبينه وبين الأرض عشرون أو ثلاثون متراً في الارتفاع، غير أن هذا الوضع انتهى بهذا المجرم إلى مصادفة عجيبة ليست من ابتكار الخيال، فإنه لولا غرابة هذه المصادفة لأصبحت المسألة جريمة عادية لا تستحق أن تكتب وتدرس. وكان أول ما يلفت النظر إليه تكرار اسمه في الجرائد مع غرابة حوادثه وتشابهها وتفاهة الدوافع إليها مما يؤيد ما ذكرناه عن نفسيته، فكنت تقرأ عنه (شخص يطعن زميله بمطواة لاختلافهما في لعب الدومينو) أو تقرأ عنه عنواناً بالبنط الكبير: (يطعن ثلاثة من عمال السينما لأنهم حاولوا منعه من الدخول) وتقرأ دائماً في مثل هذه الحوادث اسم عبد اللطيف الذي لا تهدأ ثائرته في المعركة حتى يرى خصمه جريحاً قد سال دمه، والأفضل أن نبدأ القصة من أولها.

كان المعلم حسن وقد ناهز الستين من عمره يمشي متمهلاً في طريقه إلى منزله

الصغير الجديد الطلاء في زقاق المغاربة بالإسكندرية، وقد أخذت أفكاره تدور حول ماضيه لسبب لم يكن يعلمه، وكثيراً ما قيل إن الإنسان إذا قاربت حياته نهايتها أخذ يستعرض ماضيه ومرت أمامه صور حياته كأنها شريط السينما، فكان المعلم حسن يخطو متمهلاً في الزقاق وهو يذكر أيام كان يعمل في قطع الأحجار في الجبل ورفعها إلى عربة النقل سحابة نهاره حتى إذا جن الليل قبض أجره وسار وهو قرير العين إلى القهوة البلدي ليشرب تعميرة الدخان المعسل مع الشاي ثم يتناول عشاءه وينام نوم من يقطع الأحجار ليعاود عمله في الصباح.

هذه هي الصور القديمة التي كان يفكر فيها ويستعيدها حتى وصل منزله ووضع المفتاح في الباب وكان التفكير قد أفضى به إلى الحادث الذي أثر في حياته أكبر تأثير وهو انتقاله مع عمال (الخواجة) المقاول الذي حشدهم كالأغنام في السيارات إلى العمارة الضخمة التي يبنيها في الإسكندرية، وكيف أن المعلم حسن الذي كان وقتئذ يسمى حسن الحجار ترك زوجته وولده الرضيع وسافر إلى الإسكندرية غير عابئ بهما ولم يترك لهما مليماً واحداً ونسي ولده تماماً إلى أن وصله خطاب منه منذ أيام بعد كل هذه السنين! وكان وهو يفكر في ماضي حياته قد دخل (المندرة) وأضاء النور وهو يقول لنفسه "لم أكن أستطيع غير ذلك. إنني لم أرتكب جرماً. فكيف كنت آخذ معي زوجتي وطفلها وليس في جيبي غير بضعة قروش؟.. هكذا حكم القدر علي وكل ما كتب في لوح القدر مكتوب على الجبين، وقد سمعت أنها نالت طلاقها وتزوجت وعاشت في الكفر حيث يعيش أهلها وأقاربها".

وجلس إلى مكتب كبير من الطراز القديم في (المندرة) التي اتخذها غرفة للمكتب وللجلوس، وكان تحت رجليه سجادة من الصوف من النوع الذي يسمى (كليم أسيوطي) وعلى يمينه على الجدار لوحة بالخط الفارسي (من صبر ظفر) وبجوارها نتيجة سنوية مكتوب عليها شركة المحمودية للوازم العمارات، ولم تقطع أوراق النتيجة حسب تاريخ اليوم بل تشير إلى تاريخ مضى عليه نحو ثلاثة شهور. وكان المعلم حسن وهو جالس إلى المكتب يواجه الباب وعن شماله (كنبة) كبيرة (أي أريكة) ملتصقة بالجدار وعليها وسائد

نظيفة وحشية (أي مرتبة) مغطاة بغطاء نظيف من الدمور، وبالغرفة كرسي واحد غير كرسي المكتب وضع بين المكتب وبين الكنبة، وأحس المعلم ضعفاً وخفقاناً قوياً في عروق رقبته وصدغيه وتراخياً في ساقيه فأخذ يكتب بعض الحسابات بأرقام كبيرة يرسمها رسماً، فإنه رغم ثروته الصغيرة لم يكن يعرف الكتابة.

نقول ثروته لأن المعلم حسن الحجار بعد اشتغاله في بناء العمارة مع (الخواجة) تعلم صناعة البناء وفوق ذلك ادخر ثلاثين جنيهاً وساعده الحظ وقوة بنيته الهائلة فأخذ يعمل ويعمل، تارة كرئيس عمال وتارة كبناء فني أو مقاول أشغال البياض حتى أرست عليه مقاولة بناء منزل عبد الله بك محمود إمبابي فكان لها تأثير كبير في حياته ولهذا نرى لزاماً علينا أن نوضح ذلك للقارئ.

لم يكن عبد الله بك محمود إمبابي في الحقيقة حائزاً لرتبة البكوية ولكن إحالته إلى المعاش شجعته على ادعاء ما ليس له، ولم يمد الله في عمره حتى ينتقل من المنزل (الإيجار) إلى (الملك)، وكانت وفاته بدء سعادة المعلم حسن الحجار لأن المرحوم لم يكن له أولاد ولم يتورع عن الزواج حينما كان في الرابعة والخمسين من عمره بزينات البيضاء السمينة ذات العشرين ربيعاً ابنة المعلم عبد الرحمن الذي كان يقول عن نفسه إنه تاجر وهو بائع خبز في محل صغير على ناصية الزقاق القريب.

نعم كان المعلم عبد الرحمن قاسياً في الرقابة على ابنته زينات قبل زواجها، ولكنه كان ممتلئ القلب بالحنان والشفقة عليها لأنها وحيدته في هذا العالم بعد وفاة والدتها، فكانت إذا مرت عليه في محله – بعد زواجها – وأخرجت له من حقيبتها الخضراء أو الحمراء الورقة ذات الخمسين قرشاً ترقرقت الدموع في عينيه ولم يحر كلاماً فتقول له بدلالها وأنوثتها الفائرة:

– "اعمل معروف يا بويا لما يفوت عليك علي بك تقول له إني حاكون في كازينو الشاطئ الساعة ١١ صباحاً يوم الخميس عشان خاطر الموضوع اللي كلفته بيه".

فيقول الوالد وصوته يفيض حناناً:

- "وهو يقدر يتأخر- هو في ديك الساعة لما زينة تكلفه بحاجة..."

فلما مات المرحوم عبد الله بك محمود إمبابي زوجها كان المعلم حسن وهو يرفل في الجوخ والحرير ويدير حركة البناء بصوته الأجش الجهوري وقبضته الحديدية ملء سمعها وبصرها، فما هي إلا بضع مقابلات للبحث في الذي دفعه المرحوم والذي اشترطه المرحوم حتى تفاهمت العيون وتم الزواج قبل أن يتم (تشطيب) المنزل.

ولم يرزق المعلم حسن أولاداً من زوجته زينات لسبب لا يعلمه إلا الله، وتم بناء المنزل شركة بينهما، وقبل أن يطلقها لخلاعتها وتهتكها كان قد اشترى نصيبها في المنزل ونصيب الورثة ودفع الثمن كاملاً، ثم عاد فباع المنزل كله بربح طيب واشترى غيره.

وهكذا جلس المعلم إلى مكتبه وهو يستعرض تاريخ حياته وقد تزايد تعبه وشعر بهبوط ضربات قلبه ففتح الدرج العتيق وأخرج زجاجة الدواء والكوب وشرب ملعقة منه فانتعش وقام إلى الباب وصفق وهو ينادي:

- يا ست أم عبده يا ست أم عبده.

وكان يسكن الدور الأرضي لضعف قلبه، فبادرت إليه عجوز تخدمه وهي تسكن المنزل المجاور.

- نعم يا معلم.

- نادي السيد أفندي.

وجاء السيد أفندي مهرولاً من نفس المنزل المجاور الذي تسكنه العجوز وكان يقوم بالأعمال الكتابية وغيرها للمعلم، غير عمله الأصلي في مصنع الطوب على ترعة المحمودية.

- اقعد يا سيد أفندي على المكتب.. أنا والله تعبان وقلبي هابط. الحمد لله على كل حال. إن الله غفور رحيم.

– سلامتك يا معلم ربنا يشفيك.

– الله يسلمك.. عاوزك تكتب ما أمليه عليك بمنتهى الدقة لأنه في غاية الأهمية.. هاتي القهوة يا ست أم عبده. كنكة سادة خالص. إن الله غفور رحيم.

– يا معلم الدكتور مش منعك عن القهوة اليومين دول.

– والله تعبان يا سيد ونفسي هفتني على كنكة سادة.

– إنما يا معلم الدكتور قال إيه النهاردة لما كشف عليك.

– والله يا سيد أنا عارف السبب أكثر منه لأني في شبابي شقيت كتير وتعبت كتير في منبهات وكيوف،.. وخلافه.. إن الله غفور رحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله، اقرأ علي يا سيد أفندي هذا الخطاب الذي وصلني من ابني. اقرأه مرة أخرى.

في نفس هذا المساء كانت حانة لوانيدة القذرة في شارع السبع بنات بالإسكندرية مزدحمة بروادها من الفتوات والصعاليك والعمال وكان "أبو خليل" المعروف باسم (الأسطى) جالساً إلى مائدة خشبية على باب الحانة يستروح نسمات المساء بعد حر النهار المنهك وأمامه (تمن) من الروم الرخيص. وقد أطلق عليه اسم الأسطى لبراعته المشهورة في فتح الأقفال والخزائن، وكان يرفع الكأس الأولى إلى فمه حينما لمح وراء صندوق الثلج والكازوزة الأخضر المجاور للحانة شبحاً يسترق النظر إليه، فعب كأسه في جرعة واحدة وصاح ينادي الشبح بصوت غلبت عليه نغمة الملل والاستسلام.

– تعال يا عبده.. مالك يا سيدنا.

فتقدم الشبح في غير إحجام فإذا هو شاب عريض الصدر تتوقد عيناه بالإجرام شاحب الوجه قذر الثياب، وإذا أردت الدقة نقول تتوقد عينه بالإجرام فقد كانت عينه اليسرى تالفة أي أنه أعور منذ مولده.

– اقعد يا عبده.. لسه ما اشتغلتش؟

فجلس أمامه ولم يجب على سؤاله إلا بكشف الجلباب عن ساقه ليريه مدية ثقيلة مشدودة إليها، ثم قال بصوت خشن:

– والله الريال اللي خدته منك دفعته كله فيها والمبرد من عندي، يمكن ربنا يرزقنا بشغلة ومن ساعتها لم دقت الأكل، أنا عاوز ضروري نص جنية سلف، عندي شغلة مهمة قوي.

– يا سلام هو أنا اتأخرت عليك في حاجة، لكن يا عبد اللطيف اللي عاوز الشغل يلقاه، وأنت صلاة النبي ضربتك والقبر وقلبك زي الحديد ما يعرفش الخوف ودم بني آدم عندك زي الميه... تشرب إيه؟؟

فطلب المتشرد زجاجة مثل زجاجة صاحبه، وما لبث الأسطى غير برهة يسيرة حتى قام فأحضر خبزاً وطعمية وقطعاً من الكبدة جفت وتقلصت، وهي في الأصل من أكباد الجمال تسلق سلقاً شديداً ثم تقطع قطعاً رقيقة وتقلى بالزيت والردة وأحياناً تضاف للردة الشطة، واحتسيا خمرهما وهما يتسامران. فقال الأسطى ليحول الكلام عن معاودة طلب النقود.

– فاكر يا عبده حادثة الخواجات، كان فيها الدم للركب.

– فين أيام زمان، تصدق بالله العشرين جنيه لم باتت معايا ليلتين وصبحت لابس جديد في جديد ورابع يوم كنت بدور على شغل.

– أمال مالك دلوقتي حالتك عدم؟

– دنيا والله كنت عيان ونمت عشرين صباح لم حد صبح علي ولا مسى لكن الفرج قريب

وكان الأسطى يستمع وفي قلبه ناراً آكلة من الحقد والغيظ فهو لم يدعه إلى مائدته كرماً منه وسماحة ولكن خوفاً ورهبة واتقاء لاعتدائه الجنوني الذي اشتهر به، فهو مولع بإسالة الدم مجنون بإراقته، ولو أنه تعامى عنه أو توانى قليلاً في عودته إلى مائدة الشراب والطعام لما نجا منه بل كان سيسقط عليه كالقضاء المبرم ويجلس إليه ويشرب ويأكل على

حسابه شاء أو لم يشأ. وهو قد علم واختبر من صلابة عضلاته ومبادرته العجيبة الجنونية إلى الطعن بالسكين وتمزيق اللحم البشري ما جعله يستسلم صاغراً ذليلاً وهو كاره لهذا الخضوع مشمئز من هذا المتشرد الذي يفرض سلطانه عليه كلما قابله، ويترصد له في الأمكنة التي يرتادها، بينما هو – أي الأسطى – يعتبر نفسه بطلاً جسوراً حديدي القلب ويعتقد اعتقاداً راسخاً أن مهنته كلص يفتح الأقفال والخزائن في سكون الليل هي الرجولة والبطولة النادرة، مصحوبة بالذكاء والتفوق الفني.

كان الأسطى مستغرقاً في هذه الأفكار بمرارة وحقد شديدين ثم رفع كأسه إلى فمه فجرعه وقال فجأة:

– من الآن فصاعد شوف واحد غيري تشحت منه، أنا لا يمكن أعطيك مليم واحد.

وساد صمت رهيب.

وندم الأسطى على تهوره واندفاعه في الكلام وكان يرقب صاحبه عبد اللطيف بحذر شديد، ولكن هذا الأخير مد يده وشرب كأسين متتاليتين ووضع الكأس بسكون. فقال الأسطى يحاول تلطيف طعنته وتهوره.

– تعرف يا عبد اللطيف ثلاثة بالله العظيم والدي تركني رضيع وعمره لم سأل عني وأنا بكسب عيشي بدراعي وأنا سن خمس سنين.

فقال عبد اللطيف بصوت منكسر وهو يضغط على مخارج الكلام لزيادة التأكيد وإظهاراً لاقتناعه التام.

– لك حق.. لك حق... اطلب لي (تمن) ثاني يا بو خليل والفرج الليلة. أنا نويت الليلة بإذن الله، وبإذن الله أعوض لك فلوسك، وأنا عامل ترتيبي من زمان ولكن كل شيء له أوان وأنا عزمت الليلة وكل شيء مدبر ومفهوم لكن الهجام لازم يكون له (مدخل) قبل ما يهجم ويمكن ربنا يفرجها من كرمه وإحسانه من غير أذية، ومحسوبك يبات فقير ويصبح عليه الصبح غني ومتريش

وأخذا يتكلمان همساً وقد اقترب رأساهما والأسطى شديد الدهشة ينساق معه في الحديث ليطلع على دخيلته فينسى تارة ما يشعر به من الكره والاشمئزاز وطوراً يغلبه شعوره فيطعنه بالكلمات المسمومة وبخار الخمر يتصاعد ويملأ رأسه شيئاً فشيئاً حتى تحول شعور البغضاء والمداراة إلى جسارة وتهور، وكانا قد تركا الحانة وسارا في شارع السبع بنات يتلكآن بين السير والوقوف فقال الأسطى:

– اسمع يا عبد اللطيف هذه آخر مرة تأخذ مني مليماً واحداً أو أصرف عليك مليماً واحداً.

ونظر إليه كما ينظر الكلب إلى خصمه ليدرسه فرآه صامتاً غائب الذهن فلم يستطع أن يكبح لسانه وغلبته رغبة جارفة ألا يمضي إلى منزله إلا قرير العين إذ يثبت لنفسه أنه ليس جباناً ولا خاضعاً لغيره، وأراد أن ينتقم لنفسه مقابل الغرم الإجباري الذي وقع عليه فقال يستكمل كلامه:

– وإذا عاودت إلحاحك علي فلن تنال مني شيئاً مطلقاً.

وسكت عبد اللطيف أيضاً ولم ينبس ولم يتحرك كأنه تمثال من الحجر فقال الأسطى مندفعاً وقد أعماه الانتصار وأطارت الخمر صوابه وجن جنونه.

– ولا تظن أنني أهتم بقوتك أو سلاحك فليس لك عندي غير ضرب الجزمة وأقسم بالله العلي العظيم لابد أن آخذ منك كل مليم أخذته مني وهي سبعة جنيهات وتسعين قرشاً ويمكنني أن أدل البوليس عليك في أي لحظة وأنت رجل متشرد أما أنا فرجل صنايعي ميكانيكي سيارات معروف ومع أني مقطوع من شجرة وأبويا تركي وأنا رضيع فالحمد لله عايش من دراعي عمري ما شحت من حد...

واندفع الأسطى كالمجنون وقد أفلت منه العنان تماماً وأراد أن ينتقم لنفسه بالشتائم المقذعة والعبارات المسمومة وقد أطعمه سكوت خصمه فأراد أن ينتهز فرصة ضعفه واستسلامه ليدمغه بالهزيمة دمغاً ويثبت انتصاره عليه ويسحله. غير أنه كان في واد وخصمه في واد...

فما هو إلا أسرع من لمح البصر حتى شاهد المارة منظراً عجيباً شاهدوا الأسطى مكباً على وجهه في عرض الطريق والدم ينزف منه بغزارة وهم لا يعلمون من أين أتى هذا الجريح ولا كيف حدث هذا حتى أن أحداً لم يلحظ عبد اللطيف وهو يمرق في الظلام هادئاً ثابت الخطوة بعد أن صرع خصمه بلكمة هائلة سقطت على صدغه كالمطرقة بغير أن يصرخ صرخة واحدة وثنى عليه بسرعة البرق بطعنة خنجر.

لم تكن الساعة قد جاوزت الحادية عشر حينما ظهر شبح ينسرب في زقاق المغاربة كأنه طيف خيال حتى وصل إلى منزل المعلم حسن وهو عارف بمنعرجات المكان خبير بكل خطوة فيه كأنما سبق له دراستها وفحصها، ورأى الباب مفتوحاً عن فرجة صغيرة ونور "المندرة" يضيء الفناء فلم يحجم أو بتعبير أدق لم يستطع أن يحجم لأنه رسم الخطة ونقشها في وعيه، وهو ينفذها الآن كما ينفذ أي مريض بمرض نفساني خطة شذوذه أو جنونه وهو في غير وعيه، وبعد الانتهاء منها يعود إلى وعيه كما كان، وكان يشعر بقوة قاهرة تجذبه إلى هذا المكان فلما أشرف على الباب همس بصوت مختنق لا يكاد يسمع:

– أنا عاوز أكلم المعلم كلمة

وأطل برأسه من فرجة الباب فرأى المعلم حسن جالساً بجوار المكتب فسار خطوة أخرى بعد أن دفع الباب ثم وقف وتكلم بصوت عميق أجش متقطع كأنه صادر عن بعد بعيد أو من عمق مقبرة مغلقة وكأنه نائم نوماً مغنطيسياً.

– أنا عارف يا معلم حسن... أنا سمعت عنك لما آن الأوان... أنا عرفت عنوانك... أنا عرفت سكنك والفلوس اللي عمال تكنزها..

ولم يجب المعلم وكان ينظر إليه نظرات قاسية باردة وقد افتر فمه عن ابتسامة وحشية غريبة. فصمت عبد اللطيف لحظة وقد عرته قشعريرة باردة ثم عاد فاندفع الدم إلى رأسه فجأة إذ وقعت عيناه على المحفظة موضوعة على المكتب وهي مفتوحة ويطل منها رزمة من الأوراق المالية، وفي مثل ومضة البرق الخاطف استل خنجره ووثب وثبة واحدة فأغمده في خاصرته. ولكن المعلم لم يتحرك!! وما زال ينظر نظرته القاسية الباردة

ولم ينبجس منه الدم الحار ولم ينبس.

ووثب القاتل كالنمر مبتعداً عنه وقد اقشعر جسده، لا لأنه يرهب الموقف أو يرهب الطعن وسفك الدماء، ولكنه ارتا ع وجن جنونه لأنه لم يدرك مطلقاً أنه طعن جثة هامدة ولأنه لم يشاهد الدم يسيل والفريسة ترتمي أرضاً طبقاً (للدور) والمناظر التي نقشها في عقله الباطن شذوذه ورغبته في الانتقام من المجتمع الذي نبذه وأجاعه وعذبه عذاباً أليماً.

فلما شاهد غير ما ارتسم في وعيه صعق وارتد إلى الجدار مذهولاً يرتجف ويهتز كأنه (غربال) ثم خرج عن صمته وتشنجه بزعيق حيواني عجيب كأنه أخرس يستغيث من حريق يحاصره أو ضبع مجنون. واستمر يصيح صيحات مفزعة. ومن العجيب أن صراخه كان صراخ استغاثة وفزع وخوف بلغت مبلغ الجنون، ثم جمد كالتمثال ولم ينقل قدماً.

وتجمع الناس وقبض عليه وهو غائب العقل فاقد الكلام مذهول، وقد جن جنوناً تاماً وانسدل الستار على عقله الواعي. وظهر عند التحقيق أن المعلم حسن أملى سيد الكاتب ورقة، وبعد انصراف الكاتب أخرج المعلم محفظته ليضع فيها هذه الورقة فشعر بوهن شديد فوضع المحفظة على المكتب وأخذ زجاجة الدواء وشرب منها ولكنه مات بالسكتة القلبية وهذا نص الورقة بعد التعديلات الفنية التي أدخلها عليها السيد أفندي الكاتب:

"أنا المعلم حسن أحمد عبد الله الشهير بالحجار استغفر الله من كل ذنب وصلى الله وسلم على سيدنا مُحَمَّد، وبعد فإن كل من عليها فان وإني أعطي جميع أملاكي من بعد حياة عيني لأبني عبد اللطيف من زوجتي آمنة بنت حسين صالح من كفر بهيدة مركز ميت غمر عزبة عبد الغني، وابني هذا فاقد العين الشمال ووالدته طبعاً تدل عليه وهو يعرف عنواني ولا أعرف عنوانه وأنتظر زيارته إذا كان في العمر بقية والعقارات والنقدية والمنقولات والملبوسات كالآتي بيانه..."

قديس

وهي قصة رجل "وصل" إلى منبع القوة الباطنية أو الروحانية، وفي هذه القصة تحليل نفسيته ودراسة شخصيته وأسرار "وصوله".

***

ظلت واحة سيوة قروناً وهي مسرح ثورات عارمة، ومعارك دامية ومآس خفية غامضة. تقع الواقعة، ثم يكون صباح ويكون مساء!! فإذا بالواحة هادئة حالمة على صدر الصحراء كأن لم يذبح الرجال فيها بالأمس كما يذبح الدجاج للولائم! وكأن لم تسب النساء من مخادعهن، وتهتك أعراض العذارى في وعكة المعركة وتنهب خدورهن وحليهن.

وحينما تخطف الجمال والنوق من مباركها، فكأنما الخارب[1] وهو يذهب بها يستل إبرة من ثوبه في ظلام الليل فلا يشعر به أحد!! ثم تعرق الكواسر الترائب والشوى[2]، وتصقل الرمال الجماجم والجناجن[3]، والصحراء وادعة ساكنة، والقمر جميل مؤنس، وقسيب[4] عين "قريشت" يهدهد النفس كأنه خيالات المنى!، والرجال يمشون سهللاً مكروهين من الله[5]، ويتسكعون ويتمطون في الضخ عند مواضع الشياطين[6]، وتعود الصحراء فتنعس وأشجار الزيتون تتهامس وتخشخش أوراقها بوداعة حالمة تكاد تهدهد الجفون بالوسن، وما أقرب النعاس من اليقظة في تلك الواحة! وما أشبه الحياة بالموت!..

---

(1) الخارب هو لص الإبل

(2) أي الصدور والأطراف

(3) عظام الصدر

(4) القسيب خرير الماء

(5) في الحديث أنه كره أن يمشي أحدكم سبهللاً

(6) في الحديث إياكم والضخ فإنه موضع الشياطين

وكانت قبائل أولاد موسى والظناين والعدادسة والشحايم وغيرهم من سلالات الليبيين والمغاربة والأعراب كالعوينات والحدادين والمخاليف لا ينقطعون عن القتال والسلب والسبي والمشاجرات، فتارة يضعون لأنفسهم قوانين بدائية وطوراً يكونون مجالس من الأعيان يحتكمون إليها وتسيطر على الأمن العام، تسمى "مجالس الأجاويد".

وفي الوقت الذي تبدأ فيه قصتنا، كانت نار الحرب قد اندلعت بين الزعيم عتمان حبون وأتباعه، ومُحَّد سعيد أبو دراع، وهو والد الشيخ مشري مُحَّد سعيد شيخ مشايخ سيوة الآن.

وقد اشتد الضغط على رجال عتمان حبون، وضاق عليهم الخناق وأخذهم بعض المغامرين من الخلف، وكان خصومه يطلبون رأسه بالذات فنقبوا عليه كل شبر وتعقبوا المهزومين والفارين من رجاله وحطموا أبواب المساكن وأخذوا عليهم المسالك وأشعلوا الحرائق.

ولكن عتمان حبون اختفى، وكانت رسله قد سارت إلى الغرب ليستنجد بالشيخ السنوسي ليوقف المذبحة ويعقد الصلح. وفي نفس الوقت خرجت جماعة من النساء مستخفيات في زيهن الوطني فلذن بضريح سيدي سليمان آمنات به من أي اعتداء... وكان بينهن عتمان حبون وأحمد حمزة وعبد القادر سليمان المشالي في زي النساء..

وكان الرصاص ينهال كالمطر من أعلى المرتفعات ومن وراء الجدران المتهدمة ويسمع بين دويه نواح النساء وعويلهن وزعقات الرجال وأصوات الاستغاثة من الدور التي تنهب ومن وراء الأبواب التي تقتحم، وكانت الجمال والمواشي – وهم يحفظونها في البيوت – قد شردت وحطمت في فزعها الأبواب والمنافذ والدكك الخشبية الموجودة في الأسواق، وداست من يقابلها من المحاربين الذين تصطدم بهم في تلك الأزقة الضيقة، أو من الأهالي والأطفال الذين هاموا على وجوههم فزعاً من الحرائق ووابل الرصاص، فكانت البهائم تعصر أجسادهم عصراً في الجدران، والدجاج قد ملأ المسارب والأزقة وهو يقوقيء بفزع كأنه يستغيث، والبط الغليظ المسمى البط السوداني، قد علا صوته

النفاذ حتى ليسمع عن بعد وهو يشق الفضاء بين فرقعة الرصاص – وكأن هذا البط بين الدواجن لسماجته وقبح صوته في منزلة الحمير بين البهائم.

أما الحمير، وهي الأغلبية، فقد انطلقت من حظائرها وهي تمشي بين الأزقة ببلادتها وهدوئها حتى تخرج من بين المساكن إلى الفضاء الفسيح فتنشرح صدورها وتنهق بأنكر الأصوات، والغريب أنه يندر أن يكون بينها أتان واحدة، فأغلب حمير هذه الواحة ذكور!

في تلك الليلة بالذات: ليلة الأربعاء الحادي والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٩٠، خرج ثلاثة رجال من شياطين الليل من ثلاثة أماكن متباعدة ليلتقوا على موعد ويهربوا بما غنموا من الغنائم والناس عنهم في شغل؛ فعلى بعد نحو ميل في الشمال الشرقي من سيوة يقع جبل الأموات الذي يسميه الأهلون "جبل المصبرين" وبه مغارات ومدافن كثيرة لقدماء المصريين عندما اتخذوا سيوة مقراً لعبادة الإله آمون، وهو جبل صخري به كهوف ومغاور مازالت تحتفظ بكثير من التصاوير والنقوش الفرعونية، وكان أهل سيوة يخرجون المومياوات ويرمونها في العراء بحثاً عن الكنوز، فمن أحد هذه الكهوف خرج "محمود الزقال" وقد أناخ جمله في مربطه وأخذ يأتي من داخل المغارة بأسلابه ويوازن حمل بعيره في نحيين متعادلين بسهولة وبراعة. وكان في نحو الأربعين من عمره قوي الجسم معوج الساقين رحب الحيزوم، وهو على عادة الزقالين يترك شعر رأسه على طبيعته طويلاً وحفاً مشعثاً لا يغطيه ولا يحلقه على الإطلاق.

والزقال في واحة سيوة هو المقاتل، وهو الذي يتولى الأعمال البدنية الشاقة فهو فلاح أجير وعبد أسير عند (المالك) الغني، ومن رجاله الذين ينفق عليهم ليتولوا حراسة بساتينه ليلاً، والقتال إلى جانبه في الحروب والدفاع عنه، والغني مكلف بطعامه وكسائه.

ودخل محمود الزقال أعماق الكهف وخرج يحمل زنبيلين من خوص النخل بهما عجوة سيوي مكبوسة، والزنبيل من مصنوعاتهم أصغر مما نعرفه في مصر. ثم دخل وغاب في الظلام فخرج بسلة من الخوص لها غطاء محكم يسمونها هناك (مرجونة) وبها بلح الفريحي وهو بلح جاف من المحصول الجديد من الأنواع الممتازة، وأحضر مرجونة أخرى بها خبز

مجفف وأطعمة كثيرة وشاي أخضر، ولفائف بها بعض الأعشاب والنباتات الطبية وبينها الثوم وجمار النخل لأنه من عاداتهم الموروثة أن يأكلوا الثوم في شهر أكتوبر بكميات كبيرة أما جمار النخل فيستعملونه مسهلاً، وحمل معه أيضاً السلامكة أي السنا المكي ويستعملونه مسهلاً، ومع أنه ينبت برياً في أراضيهم نفسها فإنهم يسمونه السلامكة الإسكندراني.

وكان ضمن أدويته أيضاً بعض العرقسوس والحرمل وهما ينموان عندهم برياً ويستعملونهما للتقوية وإدرار البول، وأخيراً أخرج جرة الخمر وهو يروح ويغدو على الأرض الصخرية الخشنة بمرونة وقوية بادية، ولما كان من أهل سيوة الأصليين، فهو لا يستطيب غير الخمر القومية (اللقبي) ويستخرجونها من جمار النخل بأن يحفروا في قمة النخل الذكر حفرة في الجمار يدقون فيها مسماراً فيسيل العصير على المسمار ويتساقط في الجرة المعلقة به وهي "البوقال" ثم يتركونه أياماً ليتخمر ولما أقر صاحبنا (بوقال اللقبي) في موضع أمين على ظهر جمله شد على خصره تحت ثيابه حزاماً عريضاً أخفى فيه كنزه الثمين – وهو غنائمه من المال والحلي – ثم انتهت مهمته بأخذ سلاحه وهو مكون من قطع ثلاث أولها مدية طويلة، ثم (الأمجير) أي المنجل وهو سلاح طويل مقوس مشرشر النصل يستعملونه في الزراعة (كالشرشرة) عند فلاحي مصر ولكنه أقل منها تقوساً – وهو السلاح المفضل عند الزقال وأخيراً الفأس التي يستعملها في الحقل ولها يد قصيرة جداً وثقيلة وسلاح عريض، ويسمون هذه الفأس "الطورية".

وأخذ يعيد النظر إلى الجمل وهو أبدع ما في حظائر سيده ويدور حوله ويستوثق من أن كل ناحية من الحمل مستقرة على الأرض، ثم حشر بعض الثياب والأقمشة التي يتخذ منها خيمة في الصحراء، يتمم بذلك التوثيق والموازنة بين النحيين لأنه يعلم أن عدم التوازن يؤذي البعير ويعقره. ورمى فوق كل ذلك عدداً من قرب الماء الفارغة، وأخذ بمقود بعيره في الطريق إلى عين راطي.

على مقربة من سيوة تقع أطلال مدينة قديمة على قمة صخرة مرتفعة. وتسمى هذه المدينة (شالي) وهي بيوت طينية وممرات ضيقة وجدران متداعية بها نوافذ صغيرة جداً.

وكان يكمن في هذه الأطلال بطلنا الثاني (بخيت) وهو من أهل صعيد مصر وليس من أهل سيوة، ولكنه يأتي إليها بحكم مهنته فهو جمال، وهو رجل فات الخمسين من عمره بسنوات، غير أنه مفتول العضل عريض الألواح، غليظ الجسم غائر العينين، أفطس الأنف، وكان يكمن في ساحة بها مصاطب ويظللها سعف النخل البالي، وهذه الساحة التي كانت في السنين الغوابر مجتمع "مجلس الأجواد" أصبحت مكمن رجل مغامر ركاب أهوال ومخبأ غنائمه وأسلابه وكان إلى جواره جملان قد شد عليهما أحماله فوضع على أحدهما قدراً مختومة بها لحم محفوظ على طريقة أهل الصعيد وهي أن ينضج اللحم بغير أن يمسه ماء ويوضع في القدر وتختم، وعادلها أي وازنها بزنبيل العجوة وحمل معه مرجونتين بهما (منين) وهو نوع من الفطير يبيعه بعض الأرامل في الواحة وخبز وشاي ثم (بوقال العزاوي) أي الجرة التي بها العرقي المقطر من البلح العزاوي بالأنبيق، وهو نوع فاخر من العرقي غير أنه عنيف التأثير حتى يقول عنه شاربوه أن من يشربه لا يسكر ولكنه يجن جنوناً مؤقتاً، وشاربه يميل إذا انتشى إلى العراك والقتال.

وتزود بشيء من البلح الغزالي وهو مجفف بالفرن وشديد الحلاوة مركز الغذاء، ثم قرب الماء الفارغة وبعض الثياب وخيمة بالية، وسحب البعيرين بهدوء، وهو الجمال العتيق المتمرس، وانحدر بهما متمهلاً في زقاق ضيق كأنه السرداب وخرج إلى العراء في ظلام الليل من باب قديم مصنوع من خشب النخل وهو (باب آترار) أي الباب القبلي في لغتهم ودار في الممرات الصخرية منحدراً من (شالي) فمر بمسطاح البلح حيث يخزنون البلح في العراء، وسار في منخفض سيوة حتى وصل "عين راطي" وكان يمر به عن بعد خيالات بعض الأشباح من الهاربين وغيرهم فلا يحاول أحد التعرض للآخر. وقد أفرخ روعه وبدأ يشعر بالأمان، وبدا له شبح لا تكاد تتبينه العين بين جذوع الشجر ولكنه ناداه في الحال:

– "هم يا جديس إدليت من وين دلوخيت"

وأنزلا القرب وأخذا يملآنهما بالماء من العين. فقال زميله:

- "إدليت من جبل الدكرور مشرج"

أي متبعاً طريق الشرق الذي يمر بعيداً عن المدينة.

- "والله وعر عليك يابوي الطريج".

فأشار له صاحبه إلى حمار قوي ربطه في الظلام وقال إنه وجده شارداً فاحتفظ به ليركبه من جبل الدكرور إلى عين راطي، وقد اطمأن للمبيت في جبل الدكرور لأن السيويين يخافونه ويعتقدون أن في كهوفه الأثرية طلاسم وأرواحاً تحرسه فلا يقربونه.

وكان (قديسا) أيضاً من صعيد مصر غير أنه فات الستين ونحل جسمه وضعفت همته، وكان يمني النفس أن تكون هذه آخر رحلاته فيعيش بما غنمه ما تبقى له من العمر في مسقط رأسه بعد أن عمل جمالاً أكثر من أربعين عاماً قطع فيها الصحراء مرات لا عدد لها، وكان هادئاً مؤثراً للصمت لا يتكلم إلا إذا سئل. ورفع لهم شبح محمود الزقال بين ظلال النخل المعتمة فأقبل يملأ قربة بالماء معهما ولاحظا أنه ثمل يتمايل طرباً وتفوح من فمه حموضة "اللقبي" وهو يتجشأ وقد بدا بطنه منتفخاً لكثرة ما أكل وشرب، ولم يكن بين هؤلاء الفريقين: الصعيديين والسيوي أية صداقة أو ترابط غير أنهم تفاهموا على التعاون معاً على عبور الصحراء والهرب بغنائمهم جنوباً حتى يدخلوا صعيد مصر فيتفرقوا– وقد ساروا في ممر (النقب) وهو يتجه شمالاً، على سبيل التضليل لو فرض أن أحداً تتبع آثارهم، على أنهم كانوا مطمئنين إلى انشغال القوم بجرحهم وجثث موتاهم ودورهم المهدمة ونسائهم المسبيات وغلمانهم المخطوفين.

ولا نقصد بالغلمان هنا أولادهم بل "معشوقيهم" لأن السيويين يتسرون الغلمان بصفة رسمية ويحتفظون بهم في بيوتهم بين زوجاتهم وأولادهم، ويسمون الغلام (الحكيك) أي المخنث أو شيئاً من هذا القبيل وكان صاحبنا الزقال يغني بصوت منكر ليستمتع بما حرم منه فإن الغناء محرم على الزقالين في سيوة بمقتضى قانون مجلس الأجواد، ولما عبروا ممر النقب انحدروا إلى الجنوب حتى وصلوا قرية تسمى (حطية أبو شرف) في شرق سيوة، وحطية معناها (عزبة) واقترح قديس أن يدخلوا الحطية ويمضوا بها شيئاً من الوقت ويبتاعوا

طعاماً، فوافق زميلاه ودخلوا القرية وقد أشرقت الشمس فباع حماره بستين ريالاً فأهل حطية أبو شرف تكثر عندهم الإتن أي الإناث من الحمير ويشترون الذكور من حمير سيوة المشهورة بقوتها وفراهتها بأغلى الأثمان، وكان قديس الجمال حصيفاً علمته الأيام والليالي فاشترى لنفسه ولصاحبيه كثيراً من الأطايب والألطاف، ومن بينها قربتين جديدتين ممتازتين للماء وماعزة لبوناو "الشاهين" المغربي الأحمر والأخضر أي الشاي، وسار الركب وهم يشعرون كأنهم ملوك الصحراء فقد استراحوا تحت ظل خيامهم عند الظهيرة وطعموا وشربوا، وقبل أن تغيب الشمس كانوا قد دخلوا (حطية الزيتون) فعلفوا معزاتهم البائسة وجمالهم وحملوا معهم ما شاءوا من العلف والماء وساروا طيلة الليل شرقاً بجنوب يقصدون مديرية أسيوط، واستراحوا أثناء النهار لشدة الحر وعادوا السير ليلاً كما فعلوا في أمسهم.

وقال الزقال باللغة العربية التي أصبح يتكلمها معظم أهل سيوة مع الغرباء.

– إيش بلدكم يا رجال؟

– أشنين النصارى مركز مغاغة.

وساد الصمت حتى اشتد الحر وعلت الشمس وقت الضحى فوقفوا وأناخوا جمالهم، وتخفف بخيت الجمال من بعض ثيابه فبدت ذراعاه عاريتين وعلى يمناه كتب اسمه بالوشم وعليه رسم صليب وعلى صدره أيضاً وشم صليب وبعض الأسماء المقدسة فوق اسمه واسم بلدته أشنين النصارى. فلما رفعوا مضاربهم يستظلون بقماشها جلسوا يأكلون فأصاب كل منهم لقيمات قليلة ثم استلقوا يقيلون حتى انحدرت الشمس، فقام أبناء الصحراء وقد اطمأنت نفوسهم وتملكهم الفرح إذ استيقنوا أنهم نجوا بغنائمهم، وأخرجوا خمورهم وطعام عشائهم، وما نالوا شيئاً من الخمر حتى لاحظ العجوز أن معزاته قد وهنت وأرنفت، فاستل من ثيابه مدية عتيقة ذات نصل رفيع طويل ومقبض من قرن الثور، وأمر زميليه أن يشعلا النار وحلب المعزاة ثم ذبحها وكانت النار قد أشعلت بالزند والحجر والصوفان وقطعوا اللحم وأخذوا ينضجونه على الأثافي وعلى الأحجار المحماة وثارت

شهيتهم الجبارة. فأكثروا من الخمر، إلا الجمال العجوز فإنه رشف رشفة من العرق وأصاب قطعة صغيرة من الكبد وانصرف إلى عمل الشاي الذي كان يشرب منه مقادير كبيرة. وفي هذه اللحظة وقعت الواقعة. فإن السيوي كان قد بيّت أمراً، وكان الرجل نذلاً...

إن أحد الناس قد يعتبر الثلاثة لصوصاً ولكنهم لا يعتبرون أنفسهم كذلك، وما أخذوه يعتبر في تلك الجهات نفسها غنائم حرب، ولا عار عليهم إذا تركوا الواحة بغنائمهم، إلا أنهم لا يستطيعون الإقامة بأسلابهم ولا يباح لهم ذلك. وإذا اعتبرناهم لصوصاً فإن ذلك ليس من العجائب أما (لص اللص) فهو قليل الوجود.

وكان صاحبنا الزقال قد لمح بين متاع بخيت الجمال ما يحرص على إخفائه، وعقد العزم. على الظفر به، فلما قدح زناد فكره رأى الأصوب أن يغتال الرجل ويستمر في الرحيل مع الجمّال العجوز الذي لا يخشى منه على نفسه، ولا غنى له عنه لأنه لا يستطيع السير منفرداً، حتى إذا اقتربوا من المدن فتك به وأزال آثاره من الوجود ودخل المدينة آمناً فباع الجمال والمتاع واستقر في أي مكان يعجبه، ولو فرض أنه سئل عن صاحبيه فما أقرب أن يقول أنهما ماتا بالحمى أو أنه لم يرهما ولم يعرفهما مطلقاً.

وحاول أن يجد فرصة ينقض فيها على الجمال، ولكن ذاك كان ينام بعين واحدة، ولما أكثرا من الخمر جن جنون الزقال وثار فيه الغدر وحب القتال الذي يسري في دمه منذ طفولته، فأخذ يسخر من الجمال قائلاً "والنبي سكرت يا حرمة وركبك لخلخت".

وكان الجمال يغني بنغمة أهل الصعيد عبارة سمعها مرة من إحدى العرافات وكان يطرب لها طرباً شديداً ويعتقد في هذه اللحظة أنها قد تحققت وأنه هو المقصود بها بالذات مع أن العرافة كانت تقولها لكثيرين غيره تحرضهم على السعي في طلب الرزق بعيداً عن (شنين) أي أشنين وهي مسألة مفروغ منها عندهم، أما الأغنية التي كان يرددها بخيت الجمال فمطلعها:

"بختك يا بخيت، ابعيد ابعيد!!"

"من حد "شنين" ابعيد ابعيد!!"

واستمر في غنائه حتى انتهى من هذه المقطوعة فقال يرد على محمود الزقال بلهجة خالية من أي غضب وبغير أن يلتفت إلى ناحيته.

"مجالك شين يا محمود ومشروبك مشروب الحرمة يا ولدي"

"كلامي شين؟ والله حرام فيك مال المسلمين يا نصراني ما هو حلال عليك"

"حصدك حلال عليك أنت يا ولد الفرطوس، حجاش تاخدهم أنت؟؟ بتجول علي حرمة وأنت حكيك ولد حكيك".

ورأى الزقال أن نيته قد انكشفت بوضوح وأنه قد آن أوان العمل، وكانت لذة القتال عنده لا تعدلها لذة ولعلها هي الدافع الأول المحرك له، فانتفض واقفاً وبصق على الجمال وهو في نفس الوقت يطوح برأسه يميناً وشمالاً ويتواثب في خطوات قصيرة كما يفعل المتوحشون بالضبط في رقصاتهم الحربية فوثب الجمال عليه ولطمه على فمه لطمة ثقيلة بكف كأنها قطعة من الخشب العتيق، وهو يقول: "خشمك شين يا ولد الفرطوس"

وقبل أن يستطيع قديس الجمال أن يتدخل، اشتبك الفحلان، وقد انتوى الزقال أن يفتك به ولا يضيع الفرصة، فرصة اعتقاد غريمه بأنها مشاجرة عادية تحدث بين السكارى، غير أن بخيت أدرك منه هذه النية بالغريزة فاختطف عصا ثقيلة في طرفها سن ضخم مدبب من الحديد تستعمل في تثبيت الخيام أو حفر الأرض لدق الأوتاد وغير ذلك.

والصعيدي يجيد الدفاع عن نفسه بالعصا حتى أنه قد يصد عنه السيف في يد مبارز بارع ولكنه قبل أن يتهيأ لمواجهة خصمه كان هذا بأسرع من رد الطرف قد استل "الأمجير" وطعنه في خاصرته، فأصابته الطعنة غير أنها لم تكن نافذة لأن الجمال لم يكن قد نصب قامته تماماً حينما انحنى ليلتقط العصا، وجذب محمود الزقال منجله بسرعة وفي نفسه أنه سيعاود الطعن الدراك ولكن المنجل اشتبك بالثياب لأن حده ليس مستقيماً بل مسنناً كالمنشار وكانت هذه اللحظة القصيرة – وهو ما لم يحسب الزقال حسابه –كافية للجمال فوثب مبتعداً مفسحاً لنفسه مجال المصاولة والتراوح والدفاع حسب طول العصا التي في يده، أي أنه يجعل خصمه دائماً عند طرف عصاه ولا يسمح له بالاقتراب أكثر

من ذلك طبقاً للأصول المرعية في قتال "التحطيب".

ولا ريب أن المصريين من أهل الصعيد أجدر الناس بإجادة التحطيب لأنهم توارثوه عن أجدادهم.

وأدار بخيت عصاه المغلظة في الهواء بثقة ونشوة عميقة وقد عادت إليه نفسه وملك الموقف برغم الدم الذي كان يتحلب منه ويصبغ ثيابه، فضرب السيوي على خاصرته ضربة عن يمينه وضربة عن شماله وهو ما يعتبر في فن التحطيب (أي فن القتال بالعصا) تسجيلاً للانتصار والإذلال وليس بقصد القتل، وفي نفس اللحظة انقض عليه زميله قديس وتدخل في المعركة ليضع لها حداً ووقف في وجه بخيت، ولكن السيوي التقط عن الأرض "الطورية" وهي الحديدة التي كان يستعملها منذ لحظات لتمهيد الأرض ودق الأوتاد وتسوية الأثافي، ودار حولهما كأنه العقاب الكاسر ورفعها إلى أعلى ليهوى بها على رأس غريمه الجبار فيفتتها، ولم يحسب حساباً (للمرة الثانية) لحيل المبارزة بالعصا وحركاتها المحفوظة المدروسة وسرعتها الفائقة، فإن بخيت بغير أن يضيع ثانية في الاستدارة إليه خدعه الخدعة القاضية بأن ثبت في مكانه وظهره إلى ناحية خصمه، فلما رفع هذا يده إلى أعلى أصبح جسمه كله (مكشوفاً) فمرقت العصا ذات الزج الحديدي المدبب، والجمال يدفعها بكلتا يديه إلى الخلف فغاصت في بطن الزقال فسحبها بخيت وأصابه شبه جنون عارض وذهول غامر، فأخذ يلوح بها في الهواء وهو يدور قفزاً في دائرة كبيرة حول مسرح القتال، وأخيراً هدأ وجلس بعد أن دار وهو يرقص أكثر من عشرين دورة، وأخذ قديس الصامت في إسعاف المصاب وقد ساد صمت طويل، وأخيراً نطق العجوز معاتباً وهو ينظر إلى الأفق في سدفة المساء، فقال ببطء وهدوء بغير أن يلتفت إلى صاحبه.

"عم تجتله بالخشت يا ولد بخيت؟"

فصمت بخيت فترة طويلة ثم قال متنصلاً وفي صوته لهجة الاستفهام ورنة الأسف والحيرة.

"والله من وين الزجل يا ولد عم؟"

وتجتله أي تقتله ومعناها عندهم الضرب والمشاجرة وليس القتل، والخشت هو العصا المنتهية بقطعة مدببة من الحديد، وهي لفظة هيروغليفية ولكنها مستعملة ومعروفة في الصعيد فمعنى عبارة قديس الجمال هو (لم يكن من الصواب أن تضربه بعصا فيها حديد) وفي نفس الوقت تتضمن عبارته الثقة التامة بقوة زميله الجبار، وأنه كان يمكنه أن يدافع عن نفسه بسهولة تامة بغير استعمال آلة خطيرة مثل (الخشت)، ومعنى رد بخيت عليه: (من أين لي الحصول على عصا؟) والزجل جمع زجلة أي (زقلة) وهي العصا الغليظة.

وسكنت كل حركة وهدأت الصحراء هدوءها العجيب الساحر غير همس النسيم وعبثه الرقيق بقماش المضارب، وحشرجة أنفاس الجريح وهو يهذي من آن لآن ببعض ألفاظ من لغته الأصيلة لم يفهما معناها. ومن أين لهما أن يعلما أنه يتكلم خليطاً من لغة أجدادهما – الهيروغليفية! – ولغة قبائل بربر المغرب وتونس.

وعلا القمر وأضاء نوره الظلام الرهيب حولهما فتطلع كل منهما بعينين ذاهلتين ينظر إلى الجريح وهو موسد عصبت جراحه وألهبت الحمى دماغه فغمغم يقول:

– أما أمبو أو تبينا– أمان تسوي أمان تسوي أي أمي إني مريض أعطيني ماء...

وكان فمه ملوثاً بالدم وقد فهم العجوز بالبديهة فقال:

– بيجول (أمبو) عاوز ميه.

– وعم يجول (أما) بينادم أمه والله آخرته جريبه (بينادم أي ينادي)

وأعطاه قديس ماء فشرب وراح في غيبوبة ثانية وهما جالسان في صمت، ثم تنبه الجريح ولمعت عيناه في الظلام وتحرك ثم صاح بهما: "أمان أمان مية مية" (أمان أي ماء)

وكان الشعور الغالب على الرجلين الجمالين متشابهاً لأنهما هما متشابهان وعاشا يمارسان نفس المهنة، كان كل منهما لا يفكر في الماضي، وتفكيره في الحاضر والمستقبل يكاد يكون قاصراً على الانعكاسات العصبية الغريزية أي أنه ينشغل بالعمل الذي بين يديه ليأكل ويشرب وكل معلوماته وتذكاراته وجهوده هي نتيجة الانفعالات الطبيعية

الأولى كالجوع والعطش والتعب والخوف والألم واللذة. وقد كانا بغير شك في تلك اللحظة عاجزين عن التفكير والتصرف والتحكم في الموقف فتركا الأمور تجري على طبيعتها وتسوقهما أمامها. فلما طلب الجريح ماء أقبلا عليه معاً وأكبا ينظران إليه لا عن إشفاق أو أي شعور عميق بالرحمة والعطف، بل استسلاماً للظروف والحوادث التي تسيرهما حتى يتبين أمامهما الطريق الذي ينبغي أن يتبعاه، وعجزاً منهما عن التفكير المنطقي أو تكوين رأي سريع وحل لهذا المأزق, وانحنيا فوق الجريح مستطلعين يفحصانه وقد أخذته نوبة من الصحو فارتكز بيسراه على الأرض وعيناه تبرقان بنار الحمى وبأسرع من رد الطرف رفع يمناه بالفأس الثقيلة (الطورية) وأهوى بها بكل ما في عضله الجبار المتشنج من قوة، فسمعت في هدوء الليل قرقعة جمجمة تتحطم وتطاير المخ المنثور معجوناً بالدم... وقد يظن الناس أن هذا نوع من الغدر، والحقيقة أن الزقال الجريح لم يقدر ولم يفكر أو يدبر وما كان عمله إلا استمرار الانعكاسات العصبية التي كانت تدير خطط المعركة.

ثم ارتمى محمود الزقال على وسادته ثانية وهو يشهق شهقات متتابعة من الفواق التشنجي وغمغم بصوت ضعيف: (أما– أما)

أنا الراهب إلياس الأبوتيجي المتعبد في برية شيهات بدأت اليوم بمشيئة الله بكتابة مؤلفي الرابع، وهو يوم الخميس المبارك أول عام ١٦٢٦ للشهداء الموافق سنة ١٩١٠ ميلادية أما مؤلفي الأول فهو مخطوط أكملت به التاريخ الذي كتبه سلفي الراهب (جرجه) الذي ترهب في نفس هذا الدير– دير أبي مقار– عام ٧٣٥ ميلادية أيام هشام بن عبد الملك وجمع سير البطاركة من ديسقوروس البطريرك الحادي والثلاثين إلى إسكندر الثالث والأربعين المسمى الإسكندروس الذي كان معاصراً للوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، وقد بدأت تاريخ البطاركة من مرقس الرسولي إلى يوحنا البطريرك الثلاثين الذي كان معاصراً للإمبراطور أنسطاسيوس الروماني عام ٤٩٧ ميلادية، أما مؤلفي الثاني فهو في تاريخ هذا الدير وتاريخ القديس الذي أنشأه في القرن الرابع وهو القديس أبي مقار العظيم، أما الكتاب الثالث فهو رسالة صححت فيها كتاب (تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، وهو مخطوط بقلم ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين الذي كان معاصراً لأنبا

أبرام الثاني والستين عام ٩٧٠ أيام المعز والعزيز والحاكم بأمر الله (وهذا الكتاب أي كتابي يقع في جزءين كبيرين). كل كتبي هذه نسختها بنفسي وجلّدتها بيدي في محافظ من جلد الغزال ووضعت في المكتبة في دار الضيافة بالدور الأرضي، وبذلك تم عدد الكتب الخطية بها ٢٩٢ مجلداً.

أما الكتاب الذي أكتبه الآن (والذي بدأت به اليوم) فهو خاص بمشاهداتي في العشرين سنة الأخيرة وما رأيته من غرائب حلول النعمة الكبرى والقداسة على بعض الرهبان الورعين المستمسكين بكلمة الله الممتلئة قلوبهم بالمحبة كما قيل في الكتاب "إذا جيء إليك بإنسان ثم صنع الآيات والمعجزات وتنبأ بالمستقبل، ولم توجد فيه محبة، فاعلم بأنه عامل إبليس وسفير الشيطان".

ودير أبي مقار يقع على بعد عشر ساعات من قرية بني سلامة القريبة من وردان حيث يبدأ منها طريق القوافل، (والدير في الجنوب الغربي من دير الأنبا بشوي) في الوادي الذي يسميه العرب منذ القدم وادي هبيب، وطريق القوافل فيه يسمى (سكة همام) وقد ذكره المقريزي وابن دقماق، واسمه في اللغة القبطية الصعيدية (برية أسقيط) أي برية التنسك، وفي اللغة القبطية البحرية يسمى (برية شيهات) وشيهات معناها اتزان القلوب، ويعرف المصريون هذه الصحراء عادة باسم وادي النطرون، وكان فيها سبعة وثلاثون ديراً نهب منها ما نهب وتهدم ما تهدم وأكلت الأرضة أخشاب بعضها، ومنها دير الحبش والقلمون والأرمن وألياس والبرموس والسريان وأنبا بشوي وغيرها (وإذا أراد الله سنفرد لها مؤلفاً خاصاً).

أما دير أبي مقار (الذي نحن فيه الآن) فقد تخرج منه ودفن فيه أكبر عدد من البطاركة والعلماء والمؤلفين، وفي جوار الهيكل البحري لكنيسة الدير دهليز به ستة عشر بطريركا في توابيت من الزجاج يتبرك بها الزائرون، ولقد روي في التاريخ أن خمارويه بن أحمد بن طولون سار إلى برية وادي هبيب عام ٨٨٥ ميلادية وزار دهليز المقبرة سأل عن رفات القديس أبي مقار وطلب النظر إليه. وفي مكتبة الدير كثير من الكتب الدينية

والتاريخية وكتب السحر والعلوم الغامضة باللغات اليونانية والسريانية والحبشية والقبطية.

ويحيط بالدير كغيره من الأديرة سور ضخم محصن يجعله على شكل قلعة به باب واحد من الجهة الشرقية. وليس في هذا الدير عين ماء بل نستقي من بئر تبعد عنه نحو نصف ميل، وإذا لم تخني الذاكرة فإن الراهب موضوع ذكرياتي الآن بدأ مدة الاختبار بالعمل في نقل الماء منذ عشرين سنة (إلى جانب الأعمال الأخرى الشاقة العديدة) وقد أظهر من المثابرة والجلد ما جعله يدخل في سلك الرهبنة بعد اختبار سنتين وصلينا عليه صلاة الموتى ولبس ملابس الرهبان، ولما سألناه عن اسم الترهب الجديد الذي يختاره ويرغب تدشينه به قال جملة واحدة مازلت أذكرها وأرددها للآباء الرهبان (أختار السلامة في دير أبو مقار) فدشناه باسم سلامة المقاري وقد قسمت في كتابي هذا تاريخ الراهب سلامة المقاري إلى ثلاث فترات الفترة الأولى أول عهده بالرهبنة وقد أمضاها صامتاً لا يميل إلى عشرة أحد فكنا نراه وقت الطعام في الغرفة الكبيرة المستطيلة ونحن نجلس فيها على الأرض وأمامنا مصاطب صغيرة من الحجر نأكل عليها ونحن نسمع قراءة الكتاب المقدس، وبرغم صمته الطويل الذي يشبه الذهول (فهو لا يتكلم إلا إذا سئل) فإنه كان صبوراً على أعمال الدير وكان لا يقوم بالصلوات الفردية أو الاختيارية وإنما يصغي إلى تلاوة الكتاب المقدس وتفسيره من أحد الآباء (وذلك إجباري وليس اختيارياً)، وكان يميل إلى الاعتكاف في قلايته في كل وقت (والقلاية كلمة يونانية الأصل معناها المقصورة أو الغرفة المنعزلة) ومعروف أن اللغة القبطية دخلها كثير من الألفاظ اليونانية (وإذا أفسح الرب لنا في الأجل فسنضع كتاباً في اللغة القبطية).

والفترة الثانية من حياة هذا الراهب بدأت بعد نحو عشر سنوات كان قد حفظ فيها معظم الكتاب المقدس والتعاليم والمواعظ وسير القديسين عن ظهر قلب لأنه لا يعرف القراءة ولذلك لم يكن متعمقاً في معانيها بالمرة وكان يكلف بعض الآباء الرهبان بقراءة الكتب القديمة من المكتبة الخاصة بالتريض الروحاني والعلوم الغامضة وكان يصوم ستة شهور تقريباً في السنة عن الدسم واللحم والبيض وكل إنتاج حيواني (وهو الصيام الإجباري لنا جميعاً).

ولكنه في الفترة الثالثة من حياته كان قد نحف وقلت شهيته للطعام فكان لا يأكل سوى مرة واحدة عند الغروب ويشترك في جميع الصلوات ويتهجد وحده في قلايته مصلياً أو مترنماً معظم الليل وقد كنا نحسب له أحياناً ٤٠٠ مطانية[١] في اليوم الواحد حتى ضعف جسده ونحل وكان قلما يتكلم، وأذكر له عبارة قالها مرة عندما اجتمعنا حوله وألححنا عليه أن يخرج إلى الشمس وأن يزيد قليلاً من طعامه وأن يشاركنا في كلامنا وسمرنا في بعض أوقات النهار، فأخذ يردد عبارة من محفوظة (أنا أعاين ملكوت الله).

وكنا نلاحظ عليه شبه خوف من مقابلة الناس، ففي المواسم والأعياد كان يغلق باب قلايته ولا يخرج منها مطلقاً، وإذا دخل إليه أحد الآباء ليطمئن عليه كان يردد جملته المعروفة (نحمد الله على السلامة نحمد الله على السلامة) ومن الواضح أن عقله كان ذاهلاً عن الدنيا.

ومن هنا بدأت تتجلى قداسته أول ما تجلت فقد كنا نطرق بابه فينادي في الحال وهو في الداخل باسم الذي قرع الباب ثم إذا ألححنا عليه قال إني أعلم أنكم حضرتم للمسألة الفلانية ويذكر لنا ما حضرنا من أجله ويأمرنا بعمل ما فيه الخير، ثم تسامع الناس باسمه فكان يقصده الزوار ويقفون على بابه ويتقدمون بالدور. فيقرع الأول الباب فيجيبه ويناديه باسمه في الحال، وأذكر مرة في عيد السيدة العذراء لها المجد وقد امتلأ الدير بالزوار الذين هجموا على قلايته، أنه تقدمهم شاب فقرع الباب بشدة وهو يصيح:

– يا رجل الله البار التقي افتح لي لأني محتاج إلى قاستك.

فرد عليه قائلاً:

أنت كامل ساويرس من كفر داود وفيك روح نجس يعذبك سأصلي من أجلك وسيعطيك الله الشفاء، وقد شفي فعلاً من مرض التشنج وترك الدير سليماً معافى، وتقدمت سيدة حبشية فقرعت الباب فرد عليها (وهو في الداخل) قائلاً أيتها السيدة

[١] المطانية لفظة قديمة معناها انحناءة وركعة مع ذكر اسم الله.

المؤمنة سأصلي لك بالكنيسة بعد القداس والله يشفيك لأنك حضرت من سفر بعيد وقد مكثت الحبشية بالدير ثلاثة أيام ورشم جبينها بالزيت المقدس وشفيت واستطاعت أن تسير على قدميها بدون عكاز، وتركت للرهبان هدايا وأموالاً طائلة ومأكولات كثيرة، ولكن رجل الله رفض أن يأخذ شيئاً ولم يزد طعامه أبداً عن كسرة من الخبز يغمسها (عند المساء) في قليل من العدس أو الفول، وهكذا كان يعرف كل شخص يقرع بابه مع أن الزوار يأتون من مختلف البلاد وكلهم أغراب عنا وفيهم المسيحيون والمسلمون والأحباش واليونان والأرمن، وقد أحصينا عدة معجزاته وأعماله فبلغت مائة وستة وعشرين، سأذكرها إذا أراد الله بالتفصيل في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

ولقلة كلامه نذكر قريباً كل كلمة قالها..

ونذكر له في يوم من أيام الصيام موعظة على شكل قصة قالها بلهجته الخاصة والله أعلم إن كان يشير بها من طرف خفي إلى ماضي حياته، وملخص هذه القصة كما سجلتها عندي هو "أن الله جلت حكمته يدبر ما يتعظ به الإنسان ويلقي عليه درساً في عاقبة الطمع، وأخبركم بقصة واقعية عن ثلاثة رجال خرجوا إلى الصحراء بغنائم كثيرة ومعهم ثلاثة جمال فارهة، فحدثت بينهم معركة مات فيها اثنان منهم وهم ينحدرون جنوباً بشرق يقصدون صعيد مصر، وفوجيء الرجل الثالث الذي بقي حياً بقافلة من المغاربة تقصد الشمال ولعلها تقصد المغرب أو بعض الواحات العليا، وكان الرجل محموماً واهن القوى فلم يستطع الهرب منهم فسلبوه كل ما يملك وحملوه معهم عنوة لينتفعوا بخدمته وليتولى أمر الجمال الثلاثة، فبقى عبداً عندهم يسومونه الذل والعذاب والعمل الشاق ليلاً ونهاراً ويهددونه بتسليمه للحكام بتهمة قتل زميليه، حتى نذر نفسه لله إن خلصه من هذا الرعب والعذاب، وقد عرف أن نعمة الحياة ليست بالمال بل في الهدوء والسلامة وراحة الضمير وعمل الخير، وكان يخشى أن يتهم بالقتل ويشنق، بل كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أنهم لا بد أن يتخلصوا منه بقتله أو بتسليمه للمشنقة.

واستجاب الله له فتمكن في ليلة هبت بها عاصفة رملية ثقيلة من الهرب بأحد الجمال

في سكة همام، فاخترق وادي هبيب في يومين، ثم نفق جمله وهو على مسيرة يوم واحد من أديرة برية شيهات.. وهكذا كتب الله له السلامة، وكتب له أن يعاين ملكوت الله."

وقبل أن يتنيح (أي يتوفى) رجل الله بيوم واحد فتح لنا باب قلايته ولازمناه لنخدمه ومسحناه بالزيت المقدس وصلينا عليه طالبين له الشفاء وهو كعادته لا يتكلم، ثم مال علي وقال بصوته الأجش الضعيف. (إن أردت أن تعاين ملكوت الله...) ثم راح في غيبوبة ولما تنبه أخذت أذكره بعبارته التي لم يكملها ففتح عينيه وقال ما معناه:

"يا ابني إن أردت أن تعاين ملكوت الله وترى نعمه فعليك بالصمت والصيام والمحبة وهي أن تصلي لله طالباً منه الخير والشفاء والسعادة للناس وليس لنفسك".

ولما فارقت روحه هذا العالم وانتقل إلى الأمجاد السماوية خلع الآباء الرهبان عنه ملابسه ومسحوه بالزيت المقدس ونقلوا جثمانه الطاهر إلى الكنيسة لنصلي عليه وهم يترنمون بفرح وابتهاج.

- قديس قديس... قديس قديس

وعند نزع ملابس هذا القديس البار وجدنا اسمه الأصلي مكتوباً بالوشم على صدره (وطبعا اسم سلامة المقاري اسم مستعار كما هو المتبع)، أما اسمه العلماني فهو زخاري بخيت من أشنين النصاري، وإذا أراد الله سأخصص هذا الكتاب لذكر تفاصيل حياة هذا القديس البار مقسمة على ثلاث فترات كما ذكرت وأوضح معجزاته واحدة واحدة بالأسماء والشهود وتواريخ حدوثها ثم أعقبه إذا أرادت المشيئة الألهية بمؤلفي في أصول اللغة القبطية بلهجاتها الأربع وأسرار اللغة السريانية". (انتهت مقدمة كتاب الراهب إلياس الأبوتيجي المتعبد في برية شيهات).

سر العانس

إن العقل الباطن هو "الأب" والإنسان هو "الابن"، وكم يعطف الأب على ابنه فينقذه من عذاب الجحيم...

***

كنا نزور العانس، أنا وزوجتي، وكانت تزورنا هي وأمها وشقيقها. وأمها سيدة مسنة ولكنها نشيطة حاضرة الذهن لا تنقطع عن العمل بالمنزل وزيارة معارفها وجيرانها، أما ابنتها فكانت في الخامسة والأربعين على ما يبدو لي، وكان ابنها الوحيد يأتي لزيارتها من السويس كل أسبوع فيصل المنزل حول الساعة الثامنة من مساء السبت ويسافر صباح الاثنين. فكانت الأم وابنتها لا تعيشان إلا من أجل زيارته ولا تفكران إلا فيه، وماذا سيتعشى ليلة الأحد وما سيأخذ معه من الأطعمة والمأكولات الممتازة عند سفره، وهي طبعاً من صنع أيديهما وكانت الأم سعيدة قانعة مشرقة الوجه كثيرة الحركة لا تكاد تفرغ من أعمالها المنزلية وزياراتها، وكان قطب الرحى في كل شيء تعمله هو ولدها جورج بغير شك، فهي تزور الجيران لتتحدث عنه وأهم ما يشغلها من الأعمال المنزلية هو تغذية الطيور التي تعدها لطعامه أو ليأخذها معه عند سفره، وكان جورج يحب الأوز السمين وينسى نفسه ومن حوله عندما يفتك بالأوزة المسمنة ويسيل دهنها على يديه وفمه، وكان يسافر مودعاً بالدعوات والقبلات محملاً بالحمام المحشو أو الأوزة الثقيلة أو الدجاج المحمر مع ما تبتكره قريحة فياضة وأنامل امرأة صناع من أنواع الفطائر والقراقيش وبرطمانات البصل المخلل أو الزيتون الأخضر المحشو بخلطة العصفر، أو الفلفل الأخضر اللاذع محشوا بفصوص الثوم والزبيب ومخللاً في العسل الأبيض.

وكان جورج – حرسه الله – يحب المخللات.. ولم يكن لوالدته من حديث إذا زرناها غير عزوفه عن الزواج فكانت تتصايح وعيناها تضحكان سروراً وطرباً كلما رددت حديثاً عنه يبدو لها منه أنه بدأ يفكر في الزواج. وفي نفس الوقت كانت العانس تطرق

وتجمد ويضيق بها المجلس فتسأم وتصمت حتى ينصرف الحديث عن الزواج ونأخذ في موضوع آخر فتعود إلى حالتها الطبيعية تدريجاً، وكانت ككل العوانس ثرثارة تذكر في حديثها أدق التفصيلات والتوافه وتندفع في الكلام بحماسة شديدة تثقل على النفس ومع ذلك كانت زوجتي مولعة بزيارتهم لتعرف من العانس أخبار الجيران وأسرارهم وتعرف من والدتها بدائع الفنون والابتكارات في ألوان الطعام.

وكنا دائماً ونحن في الطريق إلى منزلهم لزيارتهم تقول لي زوجتي: "ياترى حنلاقي مارسيل النهاردة رايقة ولا راكبها العفريت"

فإذا وجدناها بدون عفاريت فإنها تجلس معنا وتتكلم في أي موضوع كلاماً تافهاً. أما إذا ركبها العفريت وتركنا لها العنان في الكلام فإنها تستمر حتى يتناثر اللعاب من فمها ويصفر وجهها وتجحظ عيناها ثم تتداخل ألفاظها بعضها في بعض وتبدأ جملها في التفكك وتأتي بعبارات لا يفهم منها أي معنى له علاقة بالموضوع الأصلي. ولكننا في هذه النوبات لم نكن نتركها حتى تصل إلى هذه الدرجة – درجة الهذيان والتلعثم – بل كنا نقاطعها ونحول الكلام إلى موضوعات مختلفة، أما إذا تركناها، أو تصادف أنها انفردت بزائرة تجهل ما عندها من اضطراب الأعصاب والهستيريا فإنها تخرج من الهذيان والثرثرة إلى الشتم المقذع والطعن في سفالة مبادئ الناس وضعة الأخلاق وانحطاط المبادئ وضياع الشرف والدين، ثم تثور وترغي وتزبد وقد ترمي ببعض ما أمامها من أكواب أو غيرها فتحطمها، وقد يصيبها شبه تشنج وبكاء شديد أو إغماء وإلا فإنها تهرول إلى غرفتها وتغلق بابها عليها، ولا تخرج إلا بعد ساعات طويلة، صفراء واجمة محمرة الحماليق مشعثة الشعر ثم تعود إلى نفسها بعد يوم أو يومين.

وذهبنا لزيارتهما في مساء يوم الجمعة لكي ندعوهما لحفلة عيد ميلادي الثالث والستين وسيكون بعد غد أي يوم الأحد وسيحضرها كالمعتاد ولداي وزوجتاهما وأولادهم وابنتي وزوجها وأولادها وقد تعودت أن أعطي كل واحد من أولادي في هذا العيد مبلغاً بسيطاً يساوي آخر مصروف شهري كان يأخذه مني فيقبل يدي ويقدم لي هدية عيد

ميلادي. وهذا اليوم هو أسعد يوم في حياتي، والمبالغ البسيطة التي أعطيها لأولادي هي طبعاً على سبيل التفاؤل والرمز إلى مركزي الأبوي منهم، وهم بدورهم يوزعونها على أولادهم على سبيل التبرك بها.

ولما دخلنا استقبلتنا العجوز وأجلستنا في الشرفة الخشبية الفسيحة وهي لا تكاد تطيق نفسها من الفرح فأخذت تدور حولنا وتضحك وتصيح:

– عقبال أولاد أولادكم.. جورج خطب

– صحيح؟ ألف مبروك

وقالت زوجتي بسرعة

– عقبال مارسيل

فلم ترد العجوز واستمرت تقول:

– سوزي عجبته جداً.. البنت كبرت وصارت جمالات قمر، جورج خطبها لكن مش رسمي.

وأسرعت إلى الداخل فأتت بخطاب من ابنها باللغة الفرنسية وقالت لي:

– أرجو أن تقرأه لي ثانية لأن مارسيل قرأته باستعجال، ولما سألتها بعض أسئلة...

فقاطعتها زوجتي:

– وأين هي؟ أين مارسيل؟

– والله مارسيل مش مبسوطة شوية، نايمة عندها الدور.

وكان الخطاب سقيم العبارة والخط وبه كثير من الأخطاء سواء في الهجاء أو في قواعد اللغة نفسها وفيه يلح على والدته أن تزور أهل سوزي العروس، وتخطبها له رسمياً ولا تنتظر حضوره كما كان المتفق عليه وتأخذ منهم وعداً بانتظاره مساء السبت لأنه سيزورهم فوراً عند وصوله من السفر وستكون معه الشبكة (فإن أحد أقربائهم صائغ

بالسويس) لعمل حفلة الخطوبة يوم الأحد بدل الانتظار للأسبوع التالي كما كانت نيته.

وأخذت العجوز تضحك وهي تكاد تجن فرحاً

– شوفوا عمايل الجدعان! كام سنة يقول أنه لا يفكر في الزواج والآن عاوز يطير الدنيا مش قادر ينتظر أسبوع ولا حتى يوم واحد لما يستريح من السفر ويغير هدومه.

فقالت زوجتي:

– والله عرف ينتخب صحيح لأن سوزي بنت طيبة جداً وجميلة ومتواضعة تحب شغل البيت.

– سوزي بنتنا، يا سلام أنا أحبها زي أولادي والبنت من زمان تريده وحاطة عينها عليه. معذورة لها حق جورج جدع زي البدر وما شاء الله جدع كسيب وأديب (أي مؤدب).

– ننصرف نحن الآن ولكننا سنحضر مرة ثانية لندعوكم جميعاً والعروسة معكم للغداء في حفلتنا السنوية.

– أنت ناسي؟ حفلتكم والخطوبة في يوم واحد

– يا ستي أنتم عندنا في الظهر وخطوبتكم في المساء

– على كل حال الآن مراتك تيجي معايا وهم أصحابكم وأحبابكم كما هم أحبابنا وهم طبعاً عارفين وموافقين لكن دي رسميات وأريد أن أعطيهم خبرا بأن ابني سيزورهم مساء السبت بدل الأحد والخطوبة نفسها ستكون مختصرة لأن الفرح طبعاً قريب جداً إنما أرجوك أن تنتظرنا هنا سنعود بعد قليل ولن نتأخر فانتظرنا في الفرندة لأني كما تعلم لا أحب أن أترك البنت وحدها في البيت نائمة وأخرج وطبعاً تنتظر مراتك

وخرجت العجوز مع زوجتي، وجلست في الفراندة أدخن وأتأمل بيوت الفجالة العتيقة المتلاصقة وقد أمضيت فيها ما يقرب من ثلاثين عاماً! وأتأمل منزل المرحوم عبد

الملك وشرفته الضيقة وما فيها من الأقفاص والكراسي القديمة، والجنينة التي كان يفخر بها وهي لا تزيد عن أربعة أمتار طولاً ومثلها عرضاً، فكان في الشتاء ونحن نلعب الدومينو في قهوة أوروبا يقوم بعد العشرة الأولى إذا كان قد غلبني وهو يقول:

– والله أنا أحب أقعد في الجنينة عندي شمس لطيفة ساعة الظهر عن أذنك.

أما إذا غلبته فإنه ينسى الجنينة والشمس اللطيفة ويستمر في اللعب لكي ينتقم لنفسه ولا يقوم مهزوماً.

وهذا منزل سركيس قنواتي ووراءه مباشرة منزل العروسة سوزي، وبينما أنا مستغرق في ذكرياتي وتأملاتي وأفكاري سمعت وقع خطوات مارسيل وفعلاً رأيتها تعبر حجرة الطعام ثم جاءت فجلست أمامي وحيت بلهجة طبيعية ولاحظت أنها منكسرة الخاطر لزواج شقيقها وعيناها متورمتان من البكاء والواقع أنه قد أفلتت منها بزواج أخيها جورج آخر فرصة لها في الزواج وآخر أمل وهو عمل البدل أي أنها تتزوج رجلاً على أن يتزوج أخوها شقيقة هذا الرجل، ودهشت جداً حين أخذت تحدثني بهدوء واتزان.

– أظن الجماعة راحوا عند سوزي

– نعم

– والله الزواج ده قسمة ونصيب

– طبعاً طبعاً دا شيء من الله له حكمته وأحكامه

وتكلمنا بضعة دقائق على هذا النحو السخيف ثم قالت:

– أظن أنت تحب تشرب كاس عرقي من اللي بتشربوه ده.

– لا متشكر ماليش نفس الآن

فسكتت لحظة وبان في عينها التفكر والتردد وكانت ترفع نظرها إلي ثم تعود فتطرق، وأخيراً قالت:

– أظن أنت ما تعرفش حكايتي

– والله سمعت عن حكاية خطبة أو شيء من هذا القبيل حدث منذ عدة سنوات ولم يتم.

– اسمع.. أريد أن أحكي لك كل شيء

وقبل أن أنطق بأي كلمة لأصرف هذا الموضوع اندفعت تتكلم وكان أغلب كلامها باللغة الفرنسية كالمعتاد.

– أصل الحكاية إني لما كنت في شركة الشحن البلجيكية كان معي طبعاً عدة شبان وبنات وكان أحدهم يميل إلي ودائماً يخصني بعنايته وهو "ميشيل" وكان ضحوكاً مرحاً لطيفاً لا يمل من المزاح مع كل شخص ولما كنت قد نجحت في الحصول على وظيفة في شركة (شل) بمرتب مضاعف فقد اتفق معي على عمل الخطوبة في الأجازة، وصرحوا له بأجازة عشرة أيام من أول يوم السبت الذي هو آخر يوم لي في الشركة البلجيكية لأنني قدمت استقالتي قبلها في الميعاد القانوني. فبينما كنت أرتب أوراقي وقد بقيت خمس دقائق على تسليمها أي الساعة الواحدة إلا خمسة دخلت جانيت عندي وهي تضحك وتقول باستهزاء– وجانيت زميلتنا طبعاً. "ميشيل خطبك؟ يا سلام يا سلام دي نكتة لكن لطيفة أوعي تصدقي دا ميشيل دايماً يضحك عليك ويسخر منك". ثم دخل الولد الساعي الصغير وأعطاني أوراقاً خاصة بالعمل وورقة صغيرة مطوية وقال: "دي من الخواجة ميشيل". وسلمت أوراقي ومكتبي وفتحت الورقة وقرأت: "ولكن لماذا أقول لك اقرأها بنفسك"

وأسرعت إلى غرفتها وأنا ألاحظ غرابة هيئتها وحركاتها الميكانيكية كأنها إنسان آلي يتحرك. وبعد لحظات جاءت بورقة صغيرة وهي شريط مستطيل من الورق لعله يستعمل في الآلة الكاتبة أو المحاسبة أو غير ذلك فقرأت فيه باللغة الفرنسية.

"مارسيل... أريد أن أقول لك الحقيقة بشكل لا زيادة فيه ولا نقصان، صدقيني إذا قلت لك بكل صراحة أنه قد ظهر لي بشكل قاطع أنني لا أحبك".

ثم أخذت الورقة من يدي بشكل هستيري كأنها كنز ثمين وأعادتها إلى غرفتها وعادت إلى كرسيها. فقلت لها وماذا فعلت عند قراءتها؟

– لا شيء.. مكتبي متصل بالسلم بدون أن أمر عليه فنزلت خوفاً من أن يسخر بي الجميع ويجعلوني موضع نكاتهم أو يسخر بي هو نفسه كما اعتقدت وقتها. واعتراني بعد ذلك أرق وآلام نفسية شديدة فسافرت إلى الإسكندرية عند عمتي وكتبت لميشيل خطاباً فظيعاً أذكر له فيه ما لاحظته من ميله لجانيت ومن سفالة أخلاقه ومحاولته الاستهزاء بي وإنني لطيبة قلبي وسلامة نيتي صدقته، وكتبت له أيضاً – لسوء حظي – أشتمه كثيراً وأبالغ طبعاً في ذلك حتى أني ذكرت له بعض الإشاعات التي كانت تسمع بين الموظفين عن أن ترقيته كانت نتيجة معرفة عائلية مع المدير وإني حمدت الله على خلاصي من عائلة ساقطة الشرف مثل عائلته.

– ما هو قصدك من ذلك؟

– أنا طبعاً مخطئة في ذكر كلام يمس شرف عائلته وهو مجرد إشاعة – إشاعة أن أخته وهي جميلة جداً جداً، لها علاقة بالمدير أي مدير شركتنا وهو الذي وظفها في إحدى الشركات بمرتب كبير وكان الموظفون يرونهما معاً في الحفلات وفي النوادي والأعياد كرأس السنة وغيرها...

وكانت تكلمني بهدوء غريب لم ألاحظ فيها أبداً فشعرت كأنما حدث لها تغيير غريب في عقلها لم أدرك في تلك اللحظة طبيعته ولكني كما يقولون خفت أن يكون هو الهدوء الذي يسبق العاصفة وفعلاً ساءت حالتها فيما بعد حتى أصبحت تهذي ولا تعقل مطلقاً ولا تعود إلى صوابها. قلت لها:

– يا بنتي زي ما قلنا الزواج ده قسمة ونصيب وضروري ربنا يوفقك لابن الحلال.

– أنت لسه ما سمعتش ختام الحكاية. أنت فاكر أنه تركني صحيح؟

– حكاية إيه؟ ما فهمت كل حاجة كفاية الموضوع ده بقى احنا عاوزين نفرح

بأخوكي وانت عقبالك.. أصل الأسبوع ده كله أفراح.. يوم الأحد الظهر عندنا إن شاء الله.

ثم خطرت لي فكرة مزعجة فقلت لها بكل صراحة:

– اسمعي أنت تقصدي مثلاً أنه حصل بينكما علاقة؟!

فلم تهتم مطلقاً بكلامي وكنت أظنها ستثور ولكنها قالت بهدوء مصطنع كأنها تتذكر الكلمات وتجد الألفاظ بصعوبة.

– ختام الحكاية بسيط جداً. أولاً من جهة ميشيل فقد تزوج جانيت فعلاً، وبينما أنا في ذات يوم بعد مرور سنوات على هذه الحادثة أقلب الورقة التي كتبها لي ميشيل واعتقدت يومها كما قلت لك أنه يستهزيء بي، فإذا أكتشف، وهي مكونة من ورقتين ملتصقتين، أن في الصفحة الثانية بقية الكلام كتبه بهذا الشكل على سبيل المزاح لأن كل حياته أساسها التهريج والضحك والنوادر والنكت العملية كما يقولون – وكان أحياناً في الرحلات التي يعملها موظفو الشركة من وقت لآخر، يصبح هو مضحك الرحلة ويمثل أدواراً غريبة ويقلد الأصوات، أصوات الحيوانات والمغنين حتى أنه كان يغني الأغاني المصرية والفرنسية والأمريكية ويفاجيء البنات مفاجآت مضحكة حتى تحمر وجوههن. انتظر لحظة سأريك الورقة بنفسك

وأسرعت ثانية إلى غرفتها مهرولة حتى أنها اصطدمت بزاوية البوفيه العتيق في غرفة الطعام وعادت بعد لحظة ومعها الورقة "المقدسة". فقلبت بنفسي الصفحة الثانية بصعوبة لرقتها والتصاقهما، وقرأت الكلام كله. فكان في الصفحة الأولى: "مارسيل.. أريد أن أقول لك الحقيقة بشكل لا زيادة فيه ولا نقصان، صدقيني إذا قلت لك بكل صراحة أنه قد ظهر لي بشكل قاطع أنني لا أحبك". وفي الصفحة الثانية وبخط أرفع من الأولى: "ولكنني أعبدك"

وأغلب ظني أن ميشيل اللعين كان يسخر منها لأنه رآها تكاد تكون بلهاء لشدة بساطتها فمثل معها هذه الرواية ليضحك زملاءه.

وفي تلك الليلة بالذات جلست أمام نافذة البيت البحرية في غرفة نومي والساعة قد قاربت نصف الليل وأنا أدخن سيجارتي الأخيرة قبل أن أنام وأتأمل حوادث النهار وغرائب هذه الدنيا وإذا بخاطر قد تملكني فجأة وهو أن ميشيل هذا كان صادقاً في رغبته في الزواج منها ولكنه يمزح معها على طريقته المعروفة، وهي بسبب النحس المكتوب عليها تعجلت بشتمه وإهانته ولم تحاول التفاهم معه. نعم. نعم لا بد أن نجمها نحس.

ثم خطرت لي فكرة أخرى: لماذا لا يكون الجزء الثاني من القصة من أوهامها واختراعها؟؟ أي أن الجزء الأخير من خطها هي كتبته بنفسها لتقلب الواقع من سخرية إلى حقيقة؟ أو لعلها كتبته وهي ذاهلة في دور من الأدوار التي تعتريها، ثم صدقت نفسها واعتقدت بمرور الأيام أن هذا ما كان يريد ميشيل أن يكتبه أو اعتقدت أنه هو الذي كتبه فعلاً ونسيت الحقيقة لأنها كانت في شبه غيبوبة أو لشدة لهفتها إلى هذا التعديل وألمها من هذه الحقيقة ورغبة عقلها الباطن في إنقاذها من هذا العذاب. وقمت أغلق النافذة لأنام وأنا أسائل نفسي يا ترى ما هو سر العانس.

علي التركي

كيف شفيت وحدها حالة من حالات مركب النقص الطبيعي بعد أن عجز الأطباء عن علاجها؟!

***

في الساعة السادسة صباحاً، يوم السبت الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩١٧ في منزل صغير بحارة عطا الله بكفر الصيادين بمدينة الزقازيق عاصمة مديرية الشرقية، بالجمهورية المصرية ولد بطل هذه القصة: علي مُحَمَّد خلف. ولم نكتب تاريخ ميلاده بهذه الدقة لأهمية شخصيته أو لعظمة الدور الذي لعبه في تاريخ البشرية، بل بالعكس فإنه لشدة تفاهته ليس له ميزة ولا صفة نصفه بها غير أنه ولد وعاش! وكذلك لم يكن لوالده صفة ولا أهمية أكثر من أنه كان يجد أحياناً قوت يومه وأحياناً لا يجده.

ونشأ ولده علي محروماً جائعاً غير أنه نعم بتدليل أمه وأبيه وذهب إلى الكتاب القريب فتعلم أن يرسم بعض الألفاظ ثم منعه الرمد الصديدي من استكمال التعليم وانتهى بعد محاولات كثيرة إلى العمل في محل الأسطى محمود "العجلاتي" المعروف عند "قناطر التسعة" المقامة على بحر مويس. وكان الأسطى محمود كغيره من "العجلاتية" قذر الثياب منفوش الشعر غليظ الكفين، ولم يكن يرى إلا ملوثاً بالشحم والزيت. وكعادة "العجلاتية" أيضاً لم يكن يكلم صبيه إلا بالشتائم واللعنات يرصعها دائماً بكلمة (أقرع) فقد كان علي مُحَمَّد خلف قد أصيب بمرض في فروة الرأس حاول أهله علاجه بالقطران وغيره من المركبات العطارية فلم ينجح العلاج وتداركه الطبيب بعد أن تجردت قمة رأسه من الشعر وصار الجلد محمراً مجعداً قبيح الشكل وكل ما بقي له من الشعر دائرة ضيقة تصل ما بين أذنيه وتغطي قفاه.

ولم يكن الأسطى محمود يعطي (الصبي) أي أجر على عمله في المحل لأنه حسب

العرف المتبع كان يعلمه (الصنعة) فكان علي ينزل العجلة عن المسمار المعلقة به على الحائط و"يكشف عليها" أي يفحصها ليسلمها للمستأجر، وكان من مزاياه أنه يعرف كيف يكتب الساعة والدقيقة بالأرقام وأمامها اسم المستأجر، وهي الميزة التي حرم منها الأسطى محمود لأنه أمي، ولما كبر علي واشتد ساعده أخذ يتلقى درساً في القراءة من جارتهم الجديدة الست زكية.

والست زكية فتاة سمراء شديدة السمرة تعمل في مدرسة أو شبه مدرسة أهلية للأطفال، سمينة القوام تصقل شعرها بمادة مجهولة فيلمع ببريق عجيب.

وأصبح الأسطى علي خبيراً بإدارة محل (العجل) أي الدراجات أو (البسكليت)، وهذه الخبرة تتضمن تصليحها وترقيع عجلاتها وتزييت (الجنزير) و(السستيم) وتأجيرها للطلبة وغيرهم، وقد اتسع المحل وأصبح به ست دراجات جديدة غير القديمة والأسطى علي يكتب كل حساباته ويقوم بكل ما يلزمه بشغف وإخلاص، حتى أن الأسطى محمود أصبح يعطيه مفتاح المحل ليفتحه في الصباح وحده بينما هو يغط في نومه بعد السهر الطويل، وقلل من انتهاره ومغاضبته والصراخ في وجهه، ورفع مرتبه تدريجياً حين صار له مرتب، إلى ثلاثة جنيهات وأصبح الأسطى علي لا يعود في المساء إلى منزله إلا بعد أن يشتري ما لذ وطاب من المأكولات لوالديه، وكان أحب طعام عندهم السمك الساخن الذي كان يقلى في المحلات الصغيرة عند قناطر التسعة حيث يأتي به الصيادون وهو حي يلبط، يصيدونه من بحر مويس وأحياناً من أطراف ترعة الوادي وبحر مشتول.

وكان علي – اعترافاً منه بفضل الست زكية عليه – يناديها هي ووالدها العجوز ليتعشيا معهما في الليالي التي يعود فيها بالسمك المقلي أو الكبدة الساخنة والجوافة أو البلح أو البرتقال أو البطيخ. وكذلك كان مغرماً بالبسبوسة وهي التي تسمى في الزقازيق (الهريسة) فكان يحملها إلى منزله وهي ساخنة تنضح بالسمن إذ لم يكن يشتريها إلا من الشيخ صادق المشهور الذي يقف بالصينية الرائعة في شارع البوسطة على ناصية شارع (مولد النبي) الذي يسمى الآن شارع الحريري.

وكان الأسطى علي يطرب لقدوم الشتاء فقد كان يلبس غطاء رأس كبير من الصوف (طاقية) تغطي رأسه ويبدو من تحتها الشعر الأسود الغزير في هيئة طبيعية فتهدأ نفسه نوعاً ولو أنه تعود أن يكون مكسور الخاطر ذليل النفس. أما الصيف فهو عدوه الكريه فقد كان يتعذب فيه عذاباً أليماً ويتجنب الخروج مع أصدقائه، وأحياناً كان يلبس في الصيف (طاقية) بيضاء وهو يعمل في محل الدراجات وأحياناً لا يطيقها فيرمي بها جانباً غير عابئ بأحد.

وفي ذات صباح قائظ علت الشمس وسلطت ناراً حامية على قناطر التسعة حتى كاد يجف ما عليها من مستنقعات الوحل وأكوام القمامة وتقلصت قشور البطيخ المنثورة هنا وهناك وتراجع باعة الطعمية والباذنجان المقلي والسمك الذين يجلسون على الأرض حتى احتموا في ظلال البيوت في مدخل كفر الصيادين. وجذب بيومي العجوز (عربة اليد) التي يبيع عليها العجوة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً وسار إلى مدخل الحارة المؤدية إلى كفر الإشارة، ومنها إلى ظل شجرته المعهودة على حافة ترعة (القنايات)، وارتمى ثلاثة من الكلاب (البلدي) على الأرض وهي تلهث بجوار حائط السجن.

في هذا الصباح الجهنمي المشتعل كان الأسطى علي يصلح عجلة أحد العملاء عند باب المحل وقد تحلبت منه أفاويق العرق فترك العجلة ودخل المحل فخلع الطاقية والقميص الملوث بالزيت والشحم، وبينما هو يمسح به وجهه ورأسه دخل الأسطى محمود...

ويعتبر هذا اليوم الخطوة الأولى في سعادة الأسطى علي وتخفيف عبء العاهة التي يعانيها عن كاهله. فقد كان الأسطى محمود يلبس جلباباً نظيفاً مكوياً من (السكروته) وطربوشاً جديداً، فضحك في وجه علي وقال بفرحة لم يحاول أن يخفيها:

– يا (سي) علي أحنا أكلنا عيش وملح مع بعض وأنا اليوم سأكتب كتابي وعاوزك تأتي لتساعد في (العشا).

وكان الأسطى علي يعلم علاقة محمود بالست جمالات الراقصة التي ظهرت حديثاً

في محلات المومسات، وأثارت سخرية العوام والخلعاء بسمنتها المفرطة وقبح طلعتها وشعرها المصبوغ بلون الذهب البراق، ولكن الأسطى محمود كان ينعم في منزلها بالطعام الدسم، ثم أنها أغدقت عليه (الجلاليب)، الحريري منها والسكروته والزفير، واشترت له طربوشه الجديد (النسر الأصلي) المبطن بالحرير الأحمر.

كان الأسطى علي يعلم ذلك ولكن الذي أسعده أن "محمود العجلاتي" أعطاه طربوشه القديم ليلبسه في الفرح ولم تكن فكرة الطربوش قد خطرت على باله مطلقاً مع أن لبس الطاقية كان يثقل عليه، ولم يكن ينغص عليه حياته في الليل والنهار غير هذا المرض اللعين والعاهة المخجلة. نعم إنه ليس قراعاً حقيقياً لأن جلدة رأسه جافة ونظيفة، ولو أن لونها أحمر قرمزي مقزز وبها تجعدات، غير أن العوام لا يميلون إلى البحث في الفرق بين الصلع أو سقوط الشعر وبين القراع، ويختصرون الموضوع دائماً بتسميته (علي الأقرع). ولم يكن في استطاعته بطبيعة الحال أن يناقشهم، وهم يطلقون عليه هذا الاسم في حضوره وفي غيابه وتعود أن يسلم بأنه صاحب عاهة وأنه أقل من سائر الناس، وأن يلازمه شعور المذلة والحرج.

وذهب إلى الفرح، وخدم الضيوف بإخلاص ونشاط، وكانت الست جمالات قد أنفقت بغير حساب وتطوعت ثلاث نساء لإحياء الليلة بالرقص البلدي والغناء وكل منهن تسمى العروس (أختي جمالات). ولم يكن عدد الضيوف كبيراً، وكان العشاء فاخراً مكوناً من اللحم والدجاج والمكرونة والخبز (الفينو) والبيرة والكونياك والحشيش، والأسطى علي يروح ويجيء بالأطباق والأكواب ويخرج مسرعاً لشراء الخبز والسجاير والثلج وغيرها وقد أمال طربوشه الجديد إلى الوراء وكبسه في رأسه كبساً شديداً كي يستر عاهته. ولما كان الحاج يونس، عم الأسطى محمود العجلاتي، بقالاً معروفاً في شارع الحمام، وله دخل حسن وقد اشتهر بالإسراف وإحياء الليالي الساهرة ومصاحبة الأعيان، فقد وصلت بعض (الحناطير) أي عربات الخيل ونزل منها بعض الأعيان المعروفين. بميولهم الديمقراطية مثل أبو الدهب بك وعلي الشربيني وبشاي عبد الملك الصائغ المعروف. فشرب كل منهم فنجاناً من القهوة على سبيل جبر الخاطر، وهم لا يعلمون شيئاً عن

العروس أو العريس وانصرفوا وقد ارتفعت منزلة الأسطى محمود في نظر الجيران بحضور هؤلاء الأعيان حفلة عرسه، وقد ثبت لهم ذلك بطريقة قاطعة بغير حاجة إلى شهود الرؤية وذلك بسماعهم قهقهة علي الشربيني التقليدية المعروفة في مدينة الزقازيق كلها تجلجل في سكون الليل ويكاد يهتز منها زجاج النوافذ.

وفي منتصف الليل أخذ باقي الضيوف ينصرفون حتى خرج آخرهم الأسطى سيد رجب العجلاتي صاحب المحل المعروف بجوار قهوة السيد الشربتلي وأخوه فريد رجب وكيل مكتب الأستاذ محمود حلمي المحامي، وبعد انصرافهم جلست الست جمالات مع الراقصات والعريس وثلاثة من أصدقائهم أو بتعبير أوضح الرجال الثلاثة أصدقاء الراقصات الثلاث، جلسوا يدخنون الحشيش ويتبادلون الجوزة، والأسطى علي لا يزال يروح ويجيء يجمع الأطباق والملاعق والأكواب ويحصيها ويجري هنا وهناك بإخلاص واستغراق تام ولم يأكل بعد لقمة واحدة وقد بلل العرق وجهه الفتى وعنقه الغليظ وصدره الرحب، فلفت ذلك نظر الست جمالات وأخذت ترقبه وتلقي عليه نظرات فاحصة تنفذ إلى أعماق القلوب فترى كل شخص على حقيقته في لمح البصر، ثم نادته بصوت رقيق متزن:

– تعالى يا سي علي عندي هنا.. تعالى يا حبيبي أنا عاوزاك في كلمة.

فامتدت يده بسرعة البرق ليصلح الطربوش على رأسه، وجذبت الست جمالات كرسياً إلى جوارها وأجلسته وأخذت تكلمه بصوت خافت والجماعة ينظرون إليهما ثم انصرفوا إلى نكاتهم وتهريجهم بأصوات تصم الآذان.

– شوف يا سي علي ما تزعلش مني أنا زي أختك، بقى لبس الطربوش كده مش لايق عليك لأنك كابس الطربوش لحد ودانك وإذا رفعته شعرك خفيف من فوق بعدين يبان. أنا حقولك على لبس يريحك ووجيه ولايق.

وسر الأسطى علي – في شيء من الانكسار والخجل – من هذا العطف فقال بفرح ممزوج بالأمل والاستسلام.

– والنبي؟ ربنا يخليكي يا ست جمالات.

فرفعت صوتها وأخذت تصرخ وقد فقدت اتزانها المصطنع وغلبتها نشوة الخمر.

– وكمان اللبس ده عندي أنا حاجيبهولك من عندي أصل يا حبيبي أحنا ناس أتراك، وأنت عارف طبعاً العود والمغنى والفن دي كلها تركي وأبوها تركي، وأنا والدتي شركسية وأبويا كان من الحكام الكبار.. بقى أنت يريحك ويليق لك (الشلش) التركي. وأنا عندي اثنين واحدة سودة وواحدة بني هدية من عندي.

– شلش يعني إيه؟

– يعني طاقية قلبق تركي شكل الطربوش لكن أقصر منه معمولة من فرو زي القطيفة له وبرة تقيلة ودي لبس الأتراك والوجاهة

ولا نظن القارئ يجهل أن الراقصات والمومسات كثيراً ما يعطفن بحنان على الضعاف والمظلومين والمعذبين، ولعل عواطف الأمومة ثارت عندها لسبب لا نعلمه عند رؤيتها هذا الفتى، أو لعل سرورها في ليلة عرسها وملاحظتها إخلاصه في الخدمة وهو منكسر الخاطر قد مست رقة دفينة في قلبها الغليظ مع ما تجده من اللذة في أن تخبره على مسمع من الجميع بأنها تركية وعندها ثياب تركية وأنها من أسرة حكام، وهي تعلم كذلك أنه ساذج سريع التصديق، أو ربما كان السبب كثرة ما شربته من الكونياك وما دخنته من الحشيش.

وقبل ظهر اليوم الثاني دخل الأسطى علي مسكن الست زكية وهي تسكن (شقة) بابها ملاصق لشقته، وحكى لها قصة الشلش أو القلبق التركي وأراها إياه وهو مبتهج، فأعجبها منظره ولمست فروته الناعمة وهي تقول له:

– مبروك أنت الآن لست (الأسطى علي)

– أمال إيه؟

– أنت دلوقت (علي التركي) ومن هنا ورايح أنا حناديك "علي التركي"

وطرب الأسطى علي لذلك طرباً شديداً وكأنما فتح أمامه باب لسعادة جديدة، وشعر أنه لا يريد أن يفارقها وكانت من ناحيتها تريد أن تسمع منه أدق التفصيلات عن الفرح وكل كلمة قالتها الراقصات، فدعته إلى الغداء معاً هي ووالدها العليل بإلحاح شديد، فقبل رجاءها وهو يقول سأدخل البيت دقيقة واحدة لأخبر الجماعة. وغاب لحظة وعاد يحمل ربطة ملفوفة بورق الجرائد الملوث بالدسم وأخذ يفك محتوياتها بشيء من الخجل الممزوج بالفخر.

– ليه التعب ده يا سي علي يا تركي. يا سيدي بصلة المحب خروف

فأجاب وهو يخرج دجاجة سمينة وبضعة أرغفة من الخبز (الفينو) وقطعاً من المكرونة بالفرن.

– دي حاجة بسيطة فضلة خيرك.

– لأ، أرجوك ترجعها البيت أو تدعو والدك ووالدتك للغداء معنا.

– أبداً أبداً والدي ووالدتي أكلوا الآن الحمد لله، عندنا غيرها عندنا غيرها والله العظيم وحياة النبي.

وجلسوا إلى غدائهم الفاخر وهو يقص عليها ما قالته الراقصات وما فعلنه وهي في سعادة غامرة. وكنا نود أن نوضح للقارئ مصدر هاتين الدجاجتين اللتين أعطى واحدة منهما لوالديه والأخرى لجارته ولكننا لم نجد المستندات الكافية للخوض في هذا الموضوع ولاسيما أننا نعلم أن علي التركي شاب أمين خجول ولكننا لم نتحقق بصفة قاطعة من مقدار مقاومة أمانته للدجاج المحمر والمكرونة بالفرن، وقامت الست زكية فعملت الشاي ولاحظت أن علي التركي يلاحظها وهي تحضر الأكواب ويطيل النظر إلى جسدها الممتلئ، فارتبكت قليلاً ونظرت في عينيه نظرة خاطفة فعلمت فوراً بغريزتها النسائية أنها تملكته.

وقد تملكته أولاً وقبل كل شيء ببراعتها وتوفيقها في ابتكار كلمة واحدة أصبحت

مصدر سعادة كبيرة له ولقباً جديداً محبوباً مقبولاً سهلاً على الألسنة وهي كلمة (علي التركي).

وقد أدرك هو أيضاً بغريزته أن الشعب المصري الكريم سيقبل هذا اللقب بديلاً عن (علي الأقرع) وسيقبله بسهولة، لأن كلمة (التركي) لن تحرم الناس مما يحبونه من السخرية والطرافة وذلك لما تحويه من المعاني الكثيرة. وكان يخامره وسواس خفي مقلق بأن بعض الناس ربما أبقى الاسم القديم على حاله واكتفى بإضافة لقب التركي إليه فيسمونه (علي التركي الأقرع؟!) على أن أمله كان قوياً في أن يكتفي أولاد الحلال باللقب الجديد وحده.

وساعده على فورة الإعجاب بالست زكية غداؤه الدسم وما أثارته الراقصات بالأمس برقصهن وأحاديثهن... فأخذ يطيل النظر إلى الست زكية ويفحصها من جديد كأنه يراها للمرة الأولى، ومرت الأيام وتعددت مقابلاتهما ولكنه لم يجسر أن يطلب يدها وهو يعلم يقيناً أنها سترفضه لأنها لم تكن تشجعه إطلاقاً وكانت تمتعض إذا أشار إلى ذلك، وكيف يعقل أنها تقبله زوجاً وهي تعلم بعاهته وتراه يغطي رأسه ويحرص على ذلك أشد الحرص بارتباك ومذلة. وكثيراً ما لاحظ أنها تطيل النظر إلى رأسه وتفحصه مقبلاً ومدبراً، وأخذت هذه الأفكار تعذبه عذاباً شديداً فكان يتجنب الاختلاط بالناس وانطوى على نفسه، وزاد الطين بلة أن الأسطى محمود أخذ يسهر كل ليلة في المواخير وينفق من المال ما لا طاقة له به حتى بدأ ينفق رأس المال.

ومضت شهور، وصار محل الدراجات خاوياً إلا من أكوام الحديد والدراجات المحطمة، ولم يكن علي الأقرع بحاجة إلى من يقليه من عمله لأنه أدرى الناس بحالة المحل؛ ففي ذات مساء أقفل المحل وحمل المفاتيح إلى منزل الأسطى محمود ولم يعد لأخذها ثانية، وكان هذا آخر العهد بينهما، لأن الأسطى محمود سافر إلى المنصورة مع الست جمالات حيث أكدت له بلهجة العارف أنها ستكسب هناك ذهباً وأنه سيجد بمعاونة معارفها الكثيرين عملاً له.

ومرت الشهور وعلي التركي يطرق الأبواب بحثاً عن عمل وقد صغرت نفسه

وارتبكت أعصابه وتجمعت عليه كل المصائب فقد توفي والده وتنكرت له جارته الست زكية، إذ لاحظ أكثر من مرة أنها تغلق بابها دونه وأصبح لا يراها مطلقاً. وفي ظهر ذات يوم أخرج من جيبه آخر ما تبقى له من حطام الدنيا وهو قرشان، فاشترى بهما طعاماً له ولوالدته. وعندما انسدل ستار الظلام خرج فجال جولة في المدينة وكان يفضل الخروج في الليل لعل الظلام يتستر قليلاً على ثيابه الرثة البالية. وبينما هو عائد إلى منزله في حارة عطا الله فاشلاً كسير القلب إذا بشبح يمرق أمامه على السلم المظلم، ولمح الست زكية تدخل مسكنها مسرعة وتحاول أن تغلق بابها ولكنه كان أسرع منها فصد الباب عن وجهه، ووقفت هي تطل من ورائه لاهثة وقد أطرقت.

– يا ست زكية بتهربي مني

فتنهدت وقالت بانكسار:

– أبداً والله يا علي. لست أهرب منك إن ملابسي ممزقة بالية وحذائي تقطع فرميته ولا أحب أن يراني أحد بالشبشب فلا أخرج بالنهار.

وشرقت في دموعها، وخرجت إليه من وراء الباب فأخذها بعينيه وصعد فيها نظره وصوب فإذا هي صفراء بادية الهزال وعليها أسمال رثة.

– قد أفلست المدرسة التي كنت أعمل بها ولم يدفعوا لي حتى المتأخر من مرتبي وقد بعت كل ما أمتلك ووالدي مريض كما تعلم لا يكاد يتكلم ولا يستطيع الوقوف.

وغلبها الكرب والضيق فدخلت غرفتها المظلمة وبكت بكاء كثيراً. وتحير الفتى وتألم قلبه فأطرق برأسه وجر قدميه جراً إلى منزله.

وفي اليوم الثاني لم يخرج حتى المساء، غير أنه سمع وقع خطاها على السلم حول الساعة التاسعة ليلاً فوقف وراء بابه ينصت ففتحت بابها، وكأنها شعرت به أو لمحته فتركت بابها غير مغلق وبادرت إلى (وابور الجاز) أي موقد البترول فأشعلته وهو يسمع صوت منفاخه، وسمعها تضع إناء على النار ثم انتشر دخان لطيف وطقطقة تحمير أو

قلي، فدلف إلى بابها ودفعه ودخل فإذا بها واقفة كما تخيلها أمام إناء على النار فقالت بغير أن تنظر إليه وكأنها كانت تتوقع دخوله.

– هذا هو أكلي وأكل أبي.. هذا هو سري الذي أخفيه قد انكشف أمامك. إنني أخرج في المساء كي لا يراني أحد فأدخل المحطة القديمة (المحطة القديمة اسم كان يطلقه أهل الزقازيق في ذلك الوقت على محطة البضاعة) فأجد الأكياس على الأرض أو محملة على العربات فأملأ جيوبي من الحبوب المتناثرة، حبوب بذرة القطن، واخترعت هذه الطريقة لجعلها مقبولة الطعم وهي أن أحمصها على النار مثل تحميص البن فتصبح مدهشة!!

وضحكت والدموع تبلل وجهها، ووقف علي الأقرع ذاهلاً كالصنم وأخيراً تكلم بذهول

– يا زكية أنا وأمي لم نأكل من أمس

– خذ خذ... وأعطته حفنة من البذور المحمصة.

وأخيراً جاء الفرج في لحظة واحدة، فبينما كان يمشي في شارع الحريري مطرقاً ذليلاً شاهد الحاج يونس عم الأسطى محمود جالساً في قهوة قناوي مع مُحَمَّد بك شاهين الذي افتتح السينما الجديدة في شارع فرنس وهما يتكلمان باهتمام شديد، فإذا كان شاهين بك صديق الحاج يونس فلماذا لا يطلب من الحاج التوسط له عند شاهين بك ليعمل عنده في السينما الجديدة، ولا سيما أن الحاج يونس رفض رفضاً قاطعاً أن يعطي الأسطى علي متأخر مرتبه عند محمود العجلاني، وإن كان في بعض الأحيان والحق يقال، يجود عليه ببعض فضلات البقالة من الزيتون التالف الجاف وفتات الجبن.

فما دقت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي حتى دخل محل تجارة الحاج يونس بشارع الحمام وحياه بانكسار فقال الحاج:

– وعليكم السلام يا سي علي أنا كنت عاوزك وأبحث عنك.

– والله يا حاج إذا كان بخصوص المتأخر من ماهيتي عند الأسطى محمود فأنا استعوضت ربنا فيه ولكن...

– اسمع يا سي علي مبروك عليك الشغل وجدنا لك شغلة معتبرة جداً في (السيما) وأنت ابننا على كل حال.

مرت سنتان على (علي التركي) وهو يعمل في صالة "سينما الشرق الوحيدة" بشارع فرنس وقد أصبح لبقاً سريع الحركة جسوراً من تقليد الأبطال وحركات (التشجيع) وفتح الله عليه بفكرة رائعة وهي أن يلبس (الطاقية التركي) في الشتاء و(الكاسكت) في الصيف وقد عرفه جميع رواد السينما باسم علي التركي وصار مطمح أنظار الكثيرات من فتيات (الترسو) أي الدرجة الثالثة، غير أن الداء الدفين لم يزل يحز في قلبه ولم يجد له دواءً في الطب، وكذلك حاول أحد الأطباء النفسيين أن يجرب مقدرته فيه على سبيل التمرين والشهرة فلم يفلح في أن يزيل الغم العميق الراسب في نفسه والمذلة الغالبة عليه، إلى أن حدثت حادثة بسيطة كانت درساً للطبيب، فإن علي التركي قد شفي في يوم واحد!

وتفصيل ذلك أن السينما – سينما الشرق الوحيدة – كانت مزدحمة ازدحاماً خانقاً لمناسبة فيلم التشجيع توم ميكس المشهور الذي وافق عرضه أيام عيد الأضحى المبارك، وما ركب الشجيع جواده الهائل حتى هجمت عليه قبيلة النمر الذهبي من الهنود الحمر وعددها نحو ألف بطل واحتدمت بينهما المعركة بدرجة ثارت لها حماسة المتفرجين في (الترسو) وعلت بينهم طلقات مسدسات الأطفال، وكان بعض الشبان قد ابتكر جهازاً جديداً للفرقعة ولم يفكر أن يسجله أو يحتفظ بحقوق صنعه ولذلك انتشر بين الصبيان انتشاراً ذريعاً، ولم يكن يستعمله طبعاً غير الممتازين بالشجاعة وخفة الحركة، وهذا الجهاز مكون من مفتاح من النوع الذي يكون به فراغ في طرفه ومن مسمار غليظ، فيأخذ البطل الكبريت الأحمر (كبريت الخيال) فيكسر رءوس العيدان ويحشوها داخل تجويف المفتاح ثم يدخل المسمار فوقها، ويمسك المفتاح والمسمار بخيط متين ويطوحهما كالمقلاع ثم يضرب الأرض أو الجدار برأس المسمار ضربة شديدة فينفجر الكبريت

انفجاراً مطرباً ويندلع له لهيب أزرق. وبسط الصبيان بعض الأوراق القديمة على الأرض وأخذوا في تكسير الكبريت وحشو مدافعهم. وإذا بالنار تندلع في المقاعد الخشبية العتيقة (وكانت في الأصل مشتراة من سينما المنتزه حيث مكثت بها ثلاثة أعوام وجف خشبها جفافاً تاماً) وكذلك كانت الأرض مغطاة بأوراق كان بها طعمية وهريسة وحلاوة طحينية وزيتون وغير ذلك مما يجعلها سريعة الاشتعال لما بها من الزيت، وعلت الضجة وازدحم الناس حول بابي الخروج، باب الدرجة الأولى في آخر الصالة، وباب الدرجة الثالثة في أول الصالة، فخرج متفرجو الدرجة الأولى، يدوس بعضهم بعضاً، وكذلك رواد الدرجة الثالثة (الترسو) تزاحموا وتقاتلوا للوصول إلى الباب المخصص لهم.

أما متفرجو الدرجة الثانية فكانوا محاصرين في الوسط وأمامهم حاجز من الخشب يفصلهم عن الثالثة، ووراءهم حاجز يفصلهم عن الأولى كما كان النظام في الأرياف، فتزاحموا على الحاجزين يحاولون القفز من فوقهما وهم يعرقل بعضهم بعضاً ثم تمكنت النار وتعالت ألسنتها كأنها الجحيم فأصبح الخروج من الحاجز الأمامي مستحيلاً فانكفأوا إلى الحاجز الخلفي يدوسون من سقط من الصغار ويتعثرون بعضهم فوق بعض ويتدافعون بالمناكب حتى أصبح منهم من يقاتل زملاءه فيتجاذبون ويتطاحنون كالمجانين. وفي هذا الوقت الحرج وثب شاب كأنه النمر الوثاب وقد فهم الموقف تماماً فأخذ ينتزع الصغار المغمى عليهم والصبية الذين وقفوا مذهولين وقد أعماهم الدخان. أو وقعوا أرضاً وداستهم الأقدام أو صرعهم ضرب المناكب فينقلهم إلى ما وراء "حاجز البريمو" أو يبعدهم عن النار في وثبات قوية سريعة وقوة عضلية فائقة، وبين هذه الوثبات والروحات والغدوات أخذ يركل باب الحاجز ركلاً عنيفاً حتى خلعه من مكانه وعاد إلى الحاجز نفسه فامتلخه امتلاخاً ورمى به أرضاً فانفسح الطريق وبادر الجميع بالخروج واجتمع في الخارج زحام كثيف.

وفي هذه اللحظة وصل رجال الحريق وأطفئوه ووقف بعضهم في الخارج بخراطيمهم، ثم خرجت فرقة المطافئ التي في الداخل ومعهم بطل الليلة "علي التركي" وهو عاري الرأس وقد لحست ألسنة النار ثيابه وتصاعد منه الدخان ورائحة الشياط.

وفي عصر اليوم الثاني كانت الزقازيق كلها تتسامع بقصته ولم يكن لأهلها حديث في قهوة المثلث وقهوة باروخة وقهوة النيل وقهوة السيد الشربتلي "وهي مجتمعاتهم الرئيسية" غير علي التركي الذي أنقذ المتفرجين واحترقت ثيابه وكاد يضحي بنفسه ببطولة نادرة.

وفي نفس الوقت كان شاب ضخم الجثة عاري الرأس يطرق باب مسكن الست زكية عثمان الخياطة في شارع الفراخة، وفتحت له الباب صبية صغيرة فأدخلته غرفة بها شابة سمراء سمينة قبيحة الوجه يلمع شعرها ببريق شديد وهي جالسة إلى آلة الخياطة "المكنة" تخيط بعض الثياب. فبادرها بلهجة جديدة فيها صرامة.

– أنا عاوزك في كلمة يا ست زكية.

– أهلاً وسهلاً اتفضل في غرفة الجلوس.

ودخلا غرفة متواضعة بها بضعة كراسي من الخيزران ونجفة من الخشب قبيحة الشكل ولم يجلس بل وقف رافع الرأس وقال بلهجة الآمر.

– يا ست زكية احنا عاوزين نكتب الكتاب حالاً مفيش كلام تاني ولا تأخير تاني.

فأطرقت لحظة ثم رفعت رأسها وقالت بارتباك كأنها تهرب من الموضوع.

– مالك يا سي علي أول مرة أشوفك راسك عريانة وبتتكلم كده

فانفجر يتكلم بحماسة شديدة وثقة بالنفس.

– راسي عريانة؟ وماله؟ شعري اتحرق في الحريقة امبارح. أنا نجيت خلق كتير والبلد كلها عارفة– انت ماسمعتيش؟.. فيها إيه؟؟ جدع نزل وسط الحريقة ونجا ألف نفس ونفس وشعره اتحرق، ماله؟؟ أيه عيبه؟؟ كل البلد بتقول علي التركي شعره اتحرق في الحريقة، علي التركي شعره اتحرق في الحريقة..

فقاطعته بصوت مرقق ناعم فيه أنوثة وخضوع.

– يا سي علي ده اليوم اللي بتمناه ودي الساعة اللي بتمناها.

ثم أسرعت إلى مكنة الخياطة ففتحت درجاً بها وأخرجت منه دفتراً مكتوباً عليه دفتر أقساط مكنات سنجر وعادت إلى غرفة الجلوس تلوح به وتقول:

– أنت فضلك علي، عمري ما أنسى فضلك.. آدي سبب نعمتي

ثم أرخت أهدابها وأطرقت وقالت بحنان عميق.

– أنا خدامتك يا سي علي.

وشرقت بدموعها.

انتحار الدجاجة

وبها معلومات ومناقشات كثيرة تكشف من أسرار الفن الأسود (أي السحر)، وفيها تفصيلات بعض طرق العصور القديمة العجيبة في التأثير المغنطيسي وكيف ينفذ الإيحاء إلى العقل الباطن للإنسان بغير أن يدري فيخضع له ويقوم بتنفيذه، حتى لو كانت مسألة حياة أو موت. وفي هذه القصة بيان أن (العمل المعمول) لا ينتقل إلى العقل الباطن للضحية إلا عن طريق العقل الباطن لصاحب الشأن في الأمر أي الذي سعى لعمل العمل.

***

كنت حينما نلت دبلوم الطب في السابعة والعشرين من عمري وهي سن متأخرة بالنسبة لزملائي وقد كنت بالفعل أكبرهم لأنني تأخرت في الدراسة. والواقع أنني لست مغرماً بهذه المهنة – مهنة الطب – ولا بالدراسة الجامعية نفسها، وقد قطعت أيام شبابي في دراسة كتب التنويم المغنطيسي واستحضار الأرواح والتحليل النفساني والقصص والروايات. وكنت أقرأ الشعر الجيد سواء باللغة العربية أو الإنكليزية أو الفرنسية غير أن أحب الكتب إلى نفسي كانت كتب الفن الأسود والتنويم المغنطيسي والتأثير على الغير عن بعد وكل ما يتصل بالعلوم الغامضة، غير أنني لم أكن أجاهر بانصرافي إليها تجنباً لما نعرفه جميعاً عن مواطنينا المصريين من الميل إلى السخرية والمزاح واتخاذ أمثال هذه الدراسات مثاراً للمناقشات والمداعبات والنكات التي لا تنتهي.

وبوفاة والدي أصبحت وحيداً في الحياة وآثرت أن ألتحق بوظيفة ثابتة في القاهرة، وقد ترك لي والدي ثروة طيبة أغنتني عن التفكير والبحث في زيادة دخلي فوق أنني بطبيعة اتجاهي إلى الدراسات العلمية والفلسفية قليل الاهتمام بالناحية المادية، وكنت إذا حننت إلى الصخب والتهريج أذهب إلى قهوة السنترال حيث يجلس أصدقائي هواة الشطرنج والطاولة، وإذا أردت الهدوء والتأمل أو دراسة كتاب جديد ذهبت إلى الشرفة

العليا لفندق سميراميس حيث لا يسمع سوى همس خفيف مهما ازدحمت الشرفة بالجالسين، وكان يلذ لي النظر إلى الفضاء الفسيح أمامي والقراءة والتفكير على ضوء المصباح الذي يوضع على كل مائدة بحيث ينيرها إنارة جيدة بينما المكان كله لا ينتشر عليه سوى ضوء خافت يريح الفكر والنظر، ومما زادني تعلقاً بمائدتي المنعزلة على سطح المكان إعجابي بالإيطالي الذي يتولى هذا القسم وارتياحي إلى ذكائه العجيب واسمه رناتو فنتورا، فقد كان ينتقل في المكان كأنه شبح من الأشباح لا يسمع لخطواته وقع وهو مديد القامة أصفر الوجه منهار الكتفين ضيق الصدر، أراه أبداً ذاهل العينين. يصوبهما إلي ولكنه لا ينظر في وجهي بل ينظر بعيداً كأنه يحلم في اليقظة، ومن العجيب أنه قلما ينبس بلفظة فكنت في أول معرفتي به أطلب منه الشاي مصنوعاً ومجهزاً بالطريقة التي أريدها مع شيء من طعام خاص ثم إذا استغرقت في دراستي ورق نسيم الصيف بعد المساء أمرت بقدح من الجعة ومعه كأس من خمر الألزاس يحسن عندي أن أمزجها بالجعة بنفسي وأرتشفها متمهلاً، وأصبحت إذا جئت فجلست إلى مائدتي المختارة لا أرى أثراً لصديقي رناتو إلا حينما يفاجئني بالشاي والطعام وينصرف من أمامي كالشبح، ولا أشعر بنفسي وأنا مكب على القراءة والكتابة إلا حينما يأتي إلي بقدح الجعة، وأذكر مثالاً على براعته الفائقة في مهنته أنني ذات مساء وأنا أكتب بعض ملاحظات عن بحث في تشريح السلسلة الفقرية، مددت يدي إلى علبة السجائر أمامي على المائدة فوجدتها قد فرغت فالتفت يمنة ويسرة أبحث عن رناتو أو أحد مساعديه فخف إلي رشيقاً صامت الخطو وهو ينظر بعيداً في الفضاء المترامي، وقبل أن أخاطبه بكلمة واحدة وضع أمامي علبة من السجائر التي أدخنها وانصرف فاختفى بين ظلال النخل الإفرنجي الموزع على السطح في براميل كبيرة.

وكنت أضحك من نفسي وأنا أنسب إليه صفات خيالية منها أنه يقرأ الأفكار أو أن في ماضيه فاجعة أليمة أو أنه فنان كبير ذاهل في غمرة الأحلام وآفاق الخيال، وكثيراً ما كنت أكلمه لأثبت لنفسي أنه رجل عادي وقد يكون سخيفاً أو وضيعاً فكان يرد علي ببساطة وسهولة غير أن نبرات صوته كانت حزينة وحديثه ينتهي دائماً بهمس لا يسمع

وهو يتكلم الإنكليزية بصعوبة غير أنه يجيد الفرنسية إلى جانب لغته الأصلية ويتكلم العربية بلكنة ظاهرة، ولاحظت في ذات مساء وأنا جالس إلى مائدتي كالمعتاد تغييراً ظاهراً في حركات رناتو فقد كان يحوم ويتظاهر بترتيب المائدة وهو يحدق في كتاب أمامي باللغة الإنجليزية عن التنويم المغنطيسي وأخيراً لم يستطع إخفاء ما به فقال باضطراب بصوت متقطع:

– هذا عن التنويم المغنطيسي؟ عن علم المغنطيس؟

– نعم.. إنه بحث حديث

– أنا... أنا أعرف كثيراً عن هذه المسائل –كثيراً جداً – هل أنت تبحث فيها؟

– أنا مولع بها ولعاً شديداً أما مهنتي الأصلية كما تعلم فهي الطب.

– وهل أنت تجيد هذه الموضوعات؟

– نعم أعرفها معرفة عميقة من الناحية العلمية وليس من ناحية التهريج والاستعراض وعمل ألاعيب لتسلية الجمهور ثم أنني أشتغل أيضاً بالحالات النفسية المعقدة.

– يا سيدي الدكتور إن والدتي كانت عرافة ووسيطة روحانية ذات قوة جبارة وكنت أعيش معها وحدنا لأن أبي مات بالسل الرئوي وأنا طفل في مدينة روما بإيطاليا.

فأقبلت عليه أشجعه وأبتسم له وقلت بشغف ظاهر:

– في أي باب من أبواب الروحانيات كانت تعمل؟

– كانت... كانت في الحقيقة لا أدري بالضبط أظن...

– من العجيب أن تتردد وأنت تخاطب رجلاً مغرماً بهذه العلوم ويحب أن يسمع كل خبر من أخبارها وكل ما يختص بها بل أنني أبحث دائماً عن كل من يمارس هذه العلوم وأتقصى أخباره وطرائقه.

– أريد أن أقول أنها كانت تشتغل بمعرفة الطوالع في الظاهر ولكنها في الحقيقة كانت تجني أرباحاً طائلة من عمليات الفن الأسود وأنا لاحظت كثيراً أنك تقرأ كتباً في هذه العلوم وكنت أتردد في الحديث معك بشأنها لأني أراك تحب الهدوء وتنقطع إلى التأمل والتفكير، لولا أنك تشجعني على الكلام ثم إن مشكلتي الرئيسية في حياتي وعذابي الأكبر لا يحلها إلا العلوم الروحانية ولولا وفاة والدتي لأنقذتني من عذاب جهنم.

وانقطعت المحادثة عند هذا الحد ولم أشعر في الحقيقة بأي اهتمام بأسراره ورأيته عده مرات ولم أفاتحه في هذا الحديث حتى جاء مرة وفاتحني غير متردد قائلاً:

– أنا أطلب مساعدتك وقد علمت منك أنك تسر بالبحث في المسائل الروحانية والمساعدة الوحيدة التي أطلبها منك توافق مزاجك ورغبتك.

– قلت أني سمعت منك قبلاً تلميحاً عن متاعب وآلام أو عن مأساة حدثت لك أو شيئاً من هذا القبيل وإني أرى الفرصة سانحة لتخبرني كل شيء بتفصيل ولا تخفي عني شيئاً حتى أدرس الموضوع ولا تنس أن لي أربع صفات تحتم عليك الصراحة والاعتماد علي. أولها بصفتي طبيباً ثم بصفتي طبيب أمراض نفسية ثم باحث ومشتغل بالحالات الروحانية والصفة الرابعة أننا أصبحنا صديقين منذ زمن طويل ولعلك أدركت من خلقي ودرجة ثقافتي أنني لست ممن يهتم بالفوارق المادية بين الناس أو يقدر الناس حسب أعمالهم ووظائفهم، أنا رجل طبيب أتتبع بحوثاً معينة.

– يا سيدي لن أجد غيرك فأنت مقصدي وملجأي وأشكرك على رقيق إحساسك والمسألة بسيطة لا تحتاج لشرح.

ثم سكت لحظة وازداد وجهه شحوباً وضاق صدره بالأنفاس المتسارعة حتى كنت أسمع له حشرجة ولهاثاً، ثم أشار إلي بيده يعتذر لحظة قصيرة وغاب في الداخل ثم عاد. وأظن أنه احتسى قدحاً أو قدحين من الخمر لأنه كان يمسح فمه بمنديله وقد تورد وجهه واتكأ بأصابعه على حافة المائدة وقال:

– أريد أن أخبرك بصراحة أيها الطبيب أننا نحن الإيطاليين في مسألة الأعراض لا

نعرف الوسط فالرجل الإيطالي قد يرى بعينه امرأته تخونه فلا يطرف له جفن ولا يعيرها أقل اهتمام، وقد يشك الإيطالي في امرأته أبسط شك فيمزق قلبها بالمدية الثقيلة، وذلك يختلف حسب مواقع البلاد والمهن والأسر وماضي تاريخها ومبادئها ومنابتها وأقول لك بصراحة مادمت قد عزمت على البوح بكل شيء أن زوجتي تخونني.

وسكت كأنه يتوقع أنني سأبادره بعبارات الدهشة أو إظهار التشكك لأشجعه أو لأزيل سوء ظنه، ولكني آثرت الصمت فاستأنف حديثه:

– زوجتي تخونني.. لا تقل لي أنني مخطئ أو أنني سيء الظن أصدق وشايات الناس.. أنا رجل متعلم يا سيدي الدكتور وقد أتممت الدراسة الثانوية وتعلمت أعمال الكهرباء الفنية والرسم الزخرفي للأخشاب وكانت والدتي تنفق عن سعة وتدللني كل التدليل حتى نشأت ضعيفاً قليل الصبر فلم أطق الاستمرار في عملي الفني في ذلك الوقت. وبالاختصار، مادمت قد شجعتني وتنازلت إلى سماع قصتي فأنا أستأذنك في مقابلة خاصة في أي مكان أو قهوة نستطيع التحدث فيه بحرية حيث أعرض عليك فرصة حسنة لتواصل هوايتك ولذتك في بحث الأمور الروحانية وفي نفس الوقت تؤدي لي خدمة كبيرة لا تكلفك إلا أبسط الجهد.

وأثار حديثه تشوقي ولهفتي بطبيعة الحال فقد أدركت ما هو عليه من ذكاء ووثقت أنني إذا أنفقت مالاً أو جهداً في مسألته فلن أضيعه هباء. وهو يؤمن إيماناً أعمى بالعلوم الغامضة وهذا الإيمان وحده هو القوة الحقيقية الفعالة في الموضوع، قوة العقل الباطن التي تؤثر على الغير بغير علمه. والتقينا يوم الأحد التالي في قهوة أمفتريون الفسيحة الهادئة، في مصر الجديدة وقد جاء في الموعد المحدد بدقة مدهشة وهو يرتدي ثياباً تلفت النظر بأناقتها وفخامة أقمشتها؛ فتبادلنا التحية ولم يخرج عن أدبه الجم واحترامه لي حتى أنه استأذنني في التدخين ثم طال الصمت وهو مطرق يدخن لفافته بنهم ويبدو كأنه مستغرق في التأمل، ولكني أدركت أخيراً أنه لن يتكلم، وينتظر مني أن أفتح الحديث ولعله كان متردداً أو لعله يعتقد أن ذلك من حسن اللياقة وعلامات الاحترام والتبجيل لي فقلت

أخيراً، مخاطباً إياه باللغة الفرنسية كالمعتاد:

– اسمع يا رناتو.. نحن الآن أصدقاء وأنا كطبيب وصديق وأكثر من ذلك لأنني رجل مشتغل بالعلوم الغامضة. وهي رباط وثيق بيننا أرجوك أن توضح لي كل شيء ولا تخفي عني أصغر التفصيلات، وأنت تعلم أنني أعزب ولا يشغلني شاغل في الحياة عن ممارسة ما يطيب لي وتضييع وقتي كيف شئت وشاء مزاجي.

– سيدي إنني أشعر في الواقع بشيء من الخجل لأنه ليست لي قصة وليس لهذه القصة تفاصيل وليس في هذه التفاصيل أية غرائب ولا عقد نفسية والمسألة بسيطة.

ثم مال إلى ناحيتي، وخافت من صوته، وأنا أسمع حشرجة أنفاسه فأطلت النظر إليه فرأيت وجهه قد تبلل بالعرق وزاد اصفراره، وللمرة الأولى أدركت أنه مصاب بالسل الرئوي وتعجبت كيف لم ألاحظ ذلك من قبل مع طول معرفتي به، ورأيت علامات المرض واضحة كانهيار كتفيه وشحوبه وسعاله وتقطع أنفاسه ورقة أنامله وجمالها العجيب وكان الرجل أهدب وعيناه صافيتان وجامدتان كأنهما من زجاج. وعاد إلى متابعة حديثه فقال هامساً:

– قد علمت بما لا يقبل الشك أن امرأتي تخونني وهي سيدة عصبية ثائرة كثيرة النزوات والمسألة أنني لا أريد أن أعمل ما يؤذي نفس ولدي الوحيد في المستقبل ويجرح شرفه وكرامته فإنه مجمع آمالي ومناط حبي وحناني وتضحيتي ولا أعيش إلا من أجله وهي أيضاً بنت عمي ولولا ذلك لقتلتها فوراً أو أثبت عليها الإثم والعار وطلقتها ضائعة الشرف ولكني أريد أن أتخلص منها بهدوء وسكينة بحيث لا يشعر ولدي أن أمه كانت أثيمة ملطخة بالوحل.

وسكت لحظة وقد انبهر وبان عليه الإعياء فقلت يلوح لي أنك مريض تحتاج إلى عناية طبية:

– نعم إنني مصاب ببرد مزمن شديد لأننا نسكن غرفة في أعلى السطح تطل على النيل وهي شديدة البرودة وقد آثرت أن أدخل ابني في القسم الداخلي بالمدرسة الإيطالية

وكل أملي أن أعيش حتى أراه طبيباً راقياً يعيش كما يعيش أهل الطبقة العليا من الناس.

– وكيف تريد التخلص من زوجتك؟

– بالطريقة المضمونة المستورة التي كانت والدتي تمارسها، بواسطة الفن الأسود! وقد بحثت كثيراً حتى اهتديت إلى أحد المشايخ الذين يقومون بعمل التأثيرات السحرية وثبت لي أنه قدير جداً في فنه وكل ما في الأمر أنني أخشى ألا أفهم كلامه بدقة أو لا يفهمني هو أو يتخوف مني ويخامره شك في نياتي فيصرفني لأنه ليس من المألوف أن يثق فيه أو يتعامل معه الأجانب وقد علمت أنه حريص جداً في معاملاته. وبواسطة علومه الغامضة أتخلص منها بكل سهولة بغير أن ألوث سمعة ولدي أو أجعله يكرهني فالحقيقة أن الولد متعلق بها تعلقاً شديداً. ولا أريد أن أضحي نفسي أو راحة ضميري من أجل امرأة خاطئة، فمن الغباوة أن أشنق أو أسجن طول عمري بينما الذنب ذنبها، ثم لا أخفي عنك أن عشيقها هو رئيسي وله كلمة نافذة في الإدارة فإن ضبطته متلبساً سأفقد مركزي وقد أتضور جوعاً ولا أستطيع الإنفاق على ولدي.. هذا هو السبب!!

– وكيف تعتقد أن الشيخ الساحر سيخلصك منها هل تظن أنه سيعطيك سماً زعافاً تقتلها به بغير أن يظهر أثره للأطباء كما كان يفعل السحرة والأطباء والمنجمون في إيطاليا في القرن الخامس عشر والسادس عشر وغيرهما.. لعلك تظن أن السموم التي كان يركبها يوحنا الراجوزي ليقتل بها الإمبراطور مكسيمليان أو لوكاستا ليجربها في عبيد نيرون أو الإيطالي رينيه المشهور للملكة كاترين دي مدسيس لتقتل أعداءها لم تزل إلى الآن سراً غامضاً لا يعرفه المحقق أو الطبيب الشرعي أو أن الخمور القاتلة التي كان يصفها لافورج العراف وأمثاله تخفى الآن على أحد بينما ضابط البوليس المصري يعرف معظم أنواع التسمم من أول نظرة، فكيف بالطبيب الشرعي وهل تعتقد أني أشترك في جرائم.

فقال بهدوء، وقد تمالك نفسه وابتسم ابتسامة مشرقة مرحة لا تتناسب مطلقاً مع انفعالاته.

– كلا.. كلا.. لا أقصد هذا بالمرة ولا أخفي عنك أنني لو أردت قتلها بالسم

لفعلت لأني أعرف ما لا يعرفه هؤلاء المنجمون والسحرة والعرافون، بل بكل صراحة أقول لك أني أعرف عن والدتي وجدي لوالدتي، وهم يعرفون عن أسرتهم أباً لجد كثيراً من أسرار الفن الأسود والسموم التي تتوارثها الأسرة لأنهم يحترفون هذه المهنة منذ قرون، وهي سموم تقتل الإنسان ولا يكتشفها الطبيب بعد الموت وأبسطها أن يبلع الضحية خصلة من الشعر العادي الطويل أي شعر امرأة، تكور وتجعل كرة صغيرة ولكنها أثناء الهضم تنحل ثانية فإذا ابتلعها الإنسان عقدت أمعاءه ولم ينفع فيه علاج حتى الأشعة الحديثة لا تكشف عنها لأن الشعر لا يبدو واضحاً في الأشعة السينية، وأعرف كذلك نوعاً من القواقع إذا ترك لحمه مع مواد أخرى معينة ثلاثة أيام حتى يتعفن فإن قطعة منه في حجم البندقة إذا دست في الطعام تقتل بالتسمم الغذائي وهو سبب بريء، وحقن مصل الدفتريا بكميات كبيرة...

وحاولت هنا أن أقاطعه؛ فتضجر وضاق صدره وأشار إلي بيده يستمهلني قائلاً.

– أرجوك.. أريد أن أتم حديثي ولندخل في الموضوع، إني أعرف كثيراً في هذا الباب ولكني لا أريد أن ألوث ضميري وشرف ولدي بأن أقتل أمه لأني لا أتحمل أن أراه يبكي والدته صغيراً ويحزن عليها كبيراً وأنا قاتلها، وإني لأعرف أنواعاً أخرى من الطعام ليس من الصعب دسها لأي إنسان فيموت بتسمم غذائي ليس فيه أية جريمة تنسب إلى أحد، وأعرف الطريقة القديمة السرية وهي إدخال إبرة رفيعة طويلة في الأذن وهي طريقة يابانية قديمة ويشخص الطبيب المرض بأنه نزيف في المخ أو "نقطة" وتقطير نوى المشمش المر أو نوى الخوخ الفج، وسكين المائدة إذا طليت به ناحية واحدة منها أو بعصير نبات ستروفانث ثم وضع عليها لحم متعفن فإني أقطع بها تفاحة يصبح نصفها مسموماً والنصف الآخر سليماً فآكل نصفها ومن يأكل الثاني يموت متسمماً.

فقاطعته قائلاً:

– من العجيب أنك تندفع في الكلام في هذا الباب بحماسة وفخر كأنه تراث عائلي تعتز به وتتفاخر؛ فأرجوك أن تدخل في الموضوع وما دمت لا تنوي استعمال هذه

الطرق السخيفة فدعنا منها ولا تنس أبداً أن الطب اليوم غير الطب القديم وهيهات أن يفلت المجرم من يد العدالة ونوى المشمش المر الذي تذكره به حامض الهيدروسيانيك وهو معروف وبديهي في الطب وخلاصة الستروفانث لا تؤذي إلا إذا أصابت جرحاً مفتوحاً...

– عفواً سيدي أريد أن أقول باختصار أن هذا الرجل أي الشيخ المشتغل بالعلوم الغامضة يمكنه أن يريحني منها بأن يجعلها تفعل ما يحلو لها من تلقاء نفسها فتهرب أو تفقد العقل فندخلها المستشفى حيث تقضي نحبها في سكون أو تعيش كأنها في الأموات، وقد قيل لي أنه يمكن بسهولة أن يجعلها تتركني وتهرب مني وفي هذه الحالة فإنها غالباً تعود إلى أوربا وتختفي من حياتي إلى الأبد.

– ولكن ألا يمس ذلك سمعة ولدك وشرفه؟.

– إنني إذا طلقتها بتهمة الزنا وهي السبب الوحيد للطلاق في شريعتنا فإن ذلك سيبلغ مسامع ولدي مهما طالت السنون والحقيقة لا يمكن أن تخفى عنه ثم أنها في هذه الحالة ستمكث هنا في مصر لترى ابنها من آن لآخر وقد تلجأ إلى كنف عشيقها وهذا ما يمزق قلبي ويحرقه بالنار الآكلة لأنني لا أكتمك تزوجتها عن عشق جنوني ووله جارف. أما إذا اختفت هي فجأة فإن ذلك لن يضر ولدي لأن أحداً من أفراد أسرتها أو أسرتنا لن يعرف شيئاً عن سقوطها في أوحال الإثم والزنا، وبالتالي لن يجد ابني حينما يكبر أي إشاعات عن والدته أو عن الحقيقة نفسها ولن ينظر إليه أحد نظرات ازدراء وفي نفس الوقت من الصعب علي أن أثبت عليها الزنا بشهادة الشهود ثم أني سأفضح نفسي وأصبح سخرية وماذا أقول لولدي؟

– وكيف يمكنني مساعدتك في هذه المشكلة؟

– كل ما أطلبه منك هو أن نذهب معاً إلى هذا الشيخ لكي يسهل التفاهم معه وكذلك حتى لا يخدعني ولو أني في الحقيقة واثق من مقدرته الفائقة وأعلم عن حادثة بالذات أبدع فيها إبداعاً يشبه المعجزات، وأرجوك يا سيدي الدكتور ألا تظن أني أريد حشرك في مسألة إجرامية أو خارجة عن القانون أو عن الشرف؛ فأنا لا أعرف كيف

سيتصرف هذا الشيخ وما هي طرائقه وكل ما أريده أن يتعهد بأن يريحني من هذه المشكلة بغير أي تدخل مني.

– ولكنهم عادة يحاولون استغلال الظروف وسلب الأموال ولعله سيطلب مبالغ كبيرة.

– لا أخفي عنك يا سيدي الدكتور أني أكسب كل شهر ما لا يقل عن ستين جنيهاً ومع ذلك عرفت من تحرياتي شاباً مصرياً من أصل يوناني قال لي أن الشيخ يطلب أتعاباً معتدلة بل تافهة جداً بالنسبة لأهمية الموضوع.

– وهل صديقك هذا يشتغل بهذه العلوم، والمعتاد أن الأجانب لا يؤمنون بها.

– أولاً هو ليس أجنبياً بل أبوه مصري وأمه يونانية وقد ولد في مصر وثانياً يوجد في الأجانب كثيرون يؤمنون بهذه الأمور الروحانية أكثر من المصريين، وكان منزل والدتي في شارع ريو جانينا في روما لا يكاد يخلو من الزوار.

– وكيف عرف هذا اليوناني المتمصر أن الشيخ مقتدر في العلوم الغامضة وليس دجالاً؟

– كان له خطيبة تحبه وهي تملك ثروة طائلة فعمل لها أحدهم عملاً سحرياً فكرهته وبعد عذاب طويل وخسائر كثيرة مع الدجالين وفق إلى هذا الشيخ – الشيخ الطنطاوي – وقد رفض في البدء الاشتغال بمسألته وقال أنه منصرف للدراسات العلمية مثل اكتشاف حجر الفلاسفة وطريقة تحويل النحاس إلى ذهب وغير محتاج للعمل لأنه غني ولكنه قبل رجاءه بعد إلحاح ولاسيما حين أثبت له أنه مظلوم، فقال له الشيخ الطنطاوي إن شاء الله سأنقذك.

وسكت رناتو فنتورا لحظة ثم قال بالعربية مبتسماً: (من أولاد الحرام) واستأنف بالفرنسية:

– وفعلاً اكتشف العمل المعمول ضده وعاد إليه حب خطيبته وهما الآن في بلاد

اليونان لتصفية بعض أملاكها وأموالها...

ورأيت رناتو قد تعب ونال منه الانفعال والجهد فنصحته بإلحاح أن يهتم بصحته ويعالج عند طبيب أخصائي في أمراض الصدر بكل عناية واهتمام ولو من أجل ولده الوحيد، ثم افترقنا على موعد وهو يقول:

– هذا برد مزمن، هذا برد مزمن لا يهمني مطلقاً، لا يهمني سوى ابني.

مرت بضعة أيام حتى أتم رناتو مخابراته مع الشيخ الطنطاوي أو تحرياته عن عنوانه أو شيئاً من هذا القبيل ثم اصطحبته إلى مسكن الشيخ ولم يكن من الصعب الاهتداء إليه حسب العنوان الذي معنا وصعدنا الدرج العتيق المظلم وقابلنا الشيخ بترحيب طويل وعاد إلى مجلسه على الأريكة (الكنبة) وحوله بعض الوسائد العتيقة وأكوام من الكتب القديمة، فجلس رناتو على الكرسي الوحيد بالغرفة وجلست أنا على طرف الكنبة.

ودخل غلام خادم يحمل ثلاثة أكواب من الشاي الأخضر تضوع منها رائحة النعناع.

ورأيت الشيخ رجلاً مسناً وكل ما حوله ينبئ عن استغراقه في العلوم الروحانية، فأخذت أفحص المكان بلذة عميقة في نفسي: كتب صفراء بالية مكومة في كل مكان بالغرفة، على الأريكة وعلى الأرض وعلى رف خشبي مثبت في الجدار، وبعض مواقد من الفخار (دفايات) وموقد كبير من الحديد وآثار الفحم والرماد حولها، وخزانة خشبية فوق ظهرها صفوف من الزجاجات وقنينات العقاقير والعطارة.

وشرحت للشيخ القصة باختصار وقلت له إن هذا الرجل مظلوم ولا يريد إلا التخلص من هذه المرأة الخاطئة؛ فسألني الشيخ بضعة أسئلة ثم أخذ يلمع إلى نظريات خرافية عن الجن واستخدامهم لأغراض الإنسان وأنه قد يهتدي في القريب العاجل – إذا شاء خالق الأكوان – إلى أكبر سر في الوجود وهو حجر الفلاسفة أو أكسير الشباب، وكان يتكلم بهدوء واتزان، وصاحبنا الإيطالي ذاهل مأخوذ كأنه في معبد رهيب أو في كهف من كهوف الجن لا يبدي أقل حركة أو إشارة بل يكاد يعلق أنفاسه كي لا يفوته

لفظ من ألفاظ الشيخ، أما أنا فلم أكن أتتبع ما يقوله باهتمام غير أن ثقته العظمى بنفسه وبعلومه أدهشتني لأن الامتحان قريب، وقد أدرك وهو يثبت في عيني نظراته الثابتة الهادئة أنني قليل الاعتداد به، فقال بهدوء:

– والآن نعمل "شيء بسيط".

فقلت متحدياً:

– في نفس الموضوع أم في باب آخر؟

فسكت لحظة طويلة ثم قال وفي لهجته شيء من العتاب.

– صبرك بالله. صبرك بالله.

ثم صفق بيديه فدخل الغلام وهو في نحو الخامسة عشر يلبس جلباباً وغطاء رأس (طاقية) وهو حافي القدمين وقال بلهجة الفلاحين

– نعم يا سيدي

– اعمل قهوة يا عبد الفتاح وخذ (المنقد) ولعه وصفي الفحم خالص وخليه عندك لما أطلبه.

وشربنا القهوة بعد قليل وأنا في أشد الدهشة والغيظ لما يبدو على الشيخ من الثقة العجيبة بنفسه ودفعني شعور التحدي ثانية أن أقول بغير تروي.

– والله يا سيدنا الشيخ، أنا بصراحة دكتور.

ثم سكت وتحيرت كيف أتمم كلامي مع أن المعنى واضح طبعاً فكأني أقول له أني سأدرك وأفهم بسهولة كل حيله وتهريجه، ولكن الشيخ الطنطاوي استمر يلف لفافة التبغ بعناية وتمهل وقال بثقة عجيبة كأنه أستاذ يكلم صبياً.

– الله ينور عليك.. الله ينور عليك.

وبعد قليل طلب من خادمه إحضار الموقد فوضعه في الجهة الأخرى من الغرفة

وأقفل الباب وأخذ يرمي فوق الجمر أنواعاً كثيرة من البخور حتى امتلأت الغرفة بالدخان ثم عاد إلى مجلسه على الأريكة وأشار إلى رناتو بأصبعه قائلاً:

– هات منديلك

فبادر مسرعاً وأعطاه منديلاً أبيض من التيل الفاخر فقطعه الشيخ نصفين وغمس القلم في محبرة كبيرة بجواره ورسم مثلثاً على قطعة من المنديل وأخذ يكتب داخل المثلث أرقاماً وحروفاً، ثم طوى نصف المنديل بعناية ولفه بالنصف الآخر وقال مشيراً إلى رناتو

– أظن طبعاً حضرتك غير مسلم

– أنا مسيحي

ولم يزد على ذلك حرفاً

– خذ هذا المنديل وضعه في الدفاية الفخار بعيداً عن النار

فقام رناتو ووضع المنديل في دفاية من الفخار ليس بها أي نار وهي التي أشار إليها الشيخ. فقال الشيخ:

– عليك أن تخطو فوق البخور ثلاث مرات وتعود إلى كرسيك.

ففعل الإيطالي ذلك بسهولة في حركاته وبغير أن يبدو عليه أي دهشة أو تردد وجلس مكانه. وأخذ الشيخ يتمتم دقيقة أو دقيقتين، وإذا بالمنديل يشتعل ويخرج منه دخان كثيف وكنت أتوقع شيئاً من ذلك فلم أظهر أي اهتمام وأنا أعلم أن هذه حيل كيميائية تافهة، وزادت كثافة الدخان في الغرفة ولاحظ الشيخ عدم اهتمامي بحيلته فمد يده وتناول السيجارة التي لفها وقد رأيت أنها ضخمة جداً فأدركت أن لها ألعوبة أخرى ولكنه أشعلها وأخذ يدخن وقام إلى الموقد وأخذ يرمي فوقه مواد عطارية أخرجها من زجاجات فوق ظهر الخزانة الخشبية وأنا أتأملها بكل دقة وإمعان، ثم قلت فجأة:

– يا سيدنا الشيخ إن جو الغرفة أصبح خانقاً.

ثم أردت أن أوقفه عند حده فقلت متصنعاً البساطة

– إني أشم رائحة مواد عطارية مخدرة وهذه رائحة الأفيون والحشيش والداتورة ويظهر أن بينها أيضاً أوراق البنج وست الحسن وأظن أن ست الحسن لا تأثير لها إذا أحرقت، وتأثيرها المخدر لا يكون إلا بتعاطيها إذا كان قصدك أن نقع في حالة نوم أو استهواء وإذ ذاك يصبح الإنسان مثل من وقع تحت التأثير المغنطيسي يصدق كل كلمة تقال له.

فنظر إلي الشيخ وفي عينيه شعاع قوي كأنه ضوء يشع من مصباح كهربائي من مصابيح الجيب وسط الظلام، ورد علي رداً عجيباً اقشعر له بدني لأني كنت أعتقد أني هزمته وهزأت به وأثبت له أنني أستاذه. قال بهدوء

– تمام تمام يا دكتور ست الحسن.. ست الحسن.. بيلا بيلا.

وانتفض رناتو من ذهوله وقد فغر فمه واقشعر بدنه قائلاً

– نعم.. بيلا.. بيلا هذا اسم زوجتي.. هذا هو الاسم الصغير الذي أناديها به.

كنت في أول الأمر أظن الشيخ يقصد اسم "بيلادونا" وهو اسم نبات ست الحسن باللغة الطبية أي اللاتينية ويجوز جداً أن يكون قرأه في أي كتاب باللغة العربية ولكني لما عرفت أن اسم الزوجة "بيلا" أدركت أن الشيخ متريض لقراءة الأفكار، وهي ليست معجزة نادرة وكثير من الدراويش يقرأون الأفكار بعد دخولهم الخلوة والرياضة وكثير من العرافين وقارئي الكف يقرأون الأفكار بسبب التمرين الطويل فقط. وفي نفس الوقت يجوز أنها صدفة لأن الشيخ كان يتمتم ويدمدم بألفاظ كثيرة.. ويظهر أن الشيخ كان يريد عمل ألاعيب كثيرة ولكنه عدل فقام وفتح النافذة ونادى خادمه فحمل الموقد وخرج به.

وتكلم الإيطالي المسحور باضطراب وذهول فقال:

– أرجو أن تنهي مسألتي وأنا أشعر شعوراً باطنياً عميقاً لا يكذب ولا يخطيء وأعلم يقيناً أنك ستحلها.

وسكت الشيخ فترة طويلة وسكتنا نحن أيضاً وقد تقرر بيننا – أي بيني وبين الشيخ – أن الشيخ قد انتصر علي وذلك لما بدا على رناتو من الإيمان الأعمى. وأنا نفسي تراجعت واقتنعت إنه يستند إلى دراسات ورياضات عتيقة تجعل تهريجه متقناً ودجله رائعاً.

وأخيراً تكلم الشيخ الطنطاوي قائلاً:

– تأتي إلي صباح يوم السبت، أما في مساء يوم الجمعة فتشتري دجاجة صغيرة السن بيضاء اللون وتحفظها عندك ولا تدعها تأكل مطلقاً.. ضع أمامها الماء فقط، وفي صباح السبت تحضرها معك وأرجو الدكتور أن يشرفنا بالحضور حتى تتم المسألة إن شاء الله، ولا بأس الآن بشيء من الأتعاب على سبيل الارتباط فقط ولسد المصاريف الأولية.

وأخرج الإيطالي محفظته وبدا عليه التردد واضحاً ويظهر أنه تحير في تقدير المطلوب فبادر الشيخ قائلاً بسرعة:

– لا.. لا.. خمسة قليل.. عشرة.. عشرة، مبدئياً

ولا أعلم هل قرأ فكره فعلاً وعلم أنه كان سيعطيه خمسة جنيهات أم هو يقول ذلك على سبيل التهريج. وأعطاه زميلي عشرة جنيهات بكل رضى، فقال الشيخ:

– مسألتك ناجحة إن شاء الله العلي القدير.

وفي الموعد المحدد مر علي رناتو في منزلي حيث احتفظت له بالدجاجة البيضاء وقد وهنت قوتها من الجوع، ولم يكن يستطيع حفظها في منزله لئلا يثير شك زوجته. ووجدنا الشيخ على أريكته كأنه لم يتحرك منذ تركناه؛ فرحب بنا بالعبارات المألوفة ولاحظت أنه يجيد اللغة العربية الفصحى ويراعي أصول النحو والصرف في كثير من عباراته، ثم قام من مجلسه على المقعد الكبير فرسم على الأرض دائرة بالطباشير وقال بلهجة الآمر.

– ضع الدجاجة في الدائرة ونحن الآن نشتغل في صميم الموضوع وأرجو ألا تتكلما مطلقاً والعبرة في كل شيء بالنتيجة، اكتب في هذه الورقة اسم زوجتك واسم والدتها بلغتك الأصلية.

وصفق منادياً خادمه عبد الفتاح

– هات (المنقد) من عندك يا عبد الفتاح واقفل الباب

ورمى في الموقد بعض البخور وطلب من زميلي أن يخطو فوقه ثلاث مرات ثم يجلس مثبتاً نظره في الدجاجة المسكينة؛ ففعل رناتو ذلك وهو في شبه دوار وذهول، ثم أخذ الشيخ يتمتم نحو ربع ساعة حسبناها ساعات طويلة، ولاحظت أن الدجاجة التقطت بضع لقطات بمنقارها من الأرض. ولعل الشيخ وضع لها حبوباً مخدرة ولهذا طلب ألا نعطيها طعاماً منذ الأمس كي يضمن أنها ستلتقط ما أمامها، ومن المعروف في العطارة والمادة الطبية أنه يوجد نباتات أو حبوب كثيرة تخدر الدجاج مثل سم الفراخ وهو نوع من السكران، والشيلم والداتورة وغيرها كثير. وفعلاً أخذت الدجاجة المسكينة تترنح وتدور على نفسها وقد تدلى عنقها على الأرض، وأخذت تتشنج.

فقام الشيخ إلى الإيطالي ووقف بجواره وهمس في أذنه قائلاً:

– قم من مكانك واقترب من الدائرة، انظر إلى الدجاجة ونادها باسم بيلا سبع مرات.

فقام وهو مضطرب يترنح وقد شحب وجهه حتى بدا كالأموات ولما انتهى رمى الشيخ في المبخرة المشتعلة بالورقة التي فيها اسم الزوجة واسم أمها. فسقطت الدجاجة المنكودة جثة هامدة في الحال. وارتمى الإيطالي المنكود على مقعده وبكى كثيراً.

وكنت أفكر في هذه المهازل ونفسي تنازعني أن أقول للشيخ ما أعرفه عن تسميم الدجاج وإذا به يفاجئني قائلاً بهدوء:

– ظن ما شئت. العبرة بالنتيجة. صبرك بالله.

ثم أحضر ورقة كبيرة ورسم عليها عدة خواتيم أي مربعات ومثلثات مملوءة بالحروف والأرقام والإشارات ولف بها الدجاجة الميتة ثم أحضر ورقاً آخر فأحكم اللفافة وقال للإيطالي.

– هذه الدجاجة ترميها من فوق الكوبري في مياه النيل نفسه ليلاً، عند منتصف الليل بالضبط وتحضر إلي باكر الساعة العاشرة مساء ومعك دجاجة أخرى بنفس الشكل ونفس الطريقة.

وفي خروجنا لم يتكلم أحدنا سوى جملة واحدة قالها الإيطالي تعجبت لها.. قال:

– إني أعرف هذا تماماً لأن والدتي كانت تعمل ما يشبهه ونسميه في الفن الأسود "انتحار دجاجة".

وفي الزيارة التالية عملنا ما قال الشيخ بالضبط وقام هو بنفس العمليات ولم يتغير شيء، والتقطت الدجاجة بضع حبات لم أتبينها والشيخ يقرأ ألفاظه السحرية ثم التفت إلى الإيطالي وقال له: "قم". فقام ووقف على رأس الدجاجة وناداها سبع مرات باسم زوجته بصوت مرتجف هالع ثم عاد إلى مقعده، وقد زم فمه وفي عينيه إصرار ورضى كأنه أصدر حكماً عادلاً.

وما رمى الشيخ الورقة التي بها اسم الزوجة واسم والدتها فوق الجمر حتى سقطت الدجاجة ميتة فلفها الشيخ في الورقة المسحورة وناولها للإيطالي ليرمي بها عند منتصف الليل في ماء النيل.

وفي خروجنا قلت للإيطالي:

– ماذا تقصد بقولك انتحار الدجاجة؟

– في الفن الذي نمارسه في بلادنا ما يشبه هذا بالضبط يعمل على دجاجة أو حمامة وقد نعمل نوعاً آخر من الفن الأسود وهو ما نسميه القداس الأسود وفيه ننزع قلب الحمامة وهي حية وذلك يؤدي إلى انتحار الشخص المطلوب وهو امرأة في الأغلب تكيد لها غريمتها.

– أعرف أمثلة ذلك في تاريخ فرنسا وإيطاليا

وفي الليلة الثالثة وهي الأخيرة تكرر ذلك بالضبط حتى وقف رناتو فنتورا على رأس

الدجاجة وناداها باسم زوجته فإذا به يذهل ويستمر في ندائه وهو لا يعي وفي صوته دموع ورقة كأن قلبه يذوب في ألفاظه ذوباً. فأجلسناه على المقعد وفتحنا النافذة حتى تنبه، ولما حمل الدجاجة الميتة وتأهبنا للنزول سألنا الشيخ عن أتعابه فقال هامساً بصوت ناعم وبرقة شديدة وهو يبتسم.

– لي أربعون جنيهاً إذا لم تدفع ينعكس العمل..

ولم أجد وقتاً لأي اعتراض لأن صاحبنا أخرج المبلغ المطلوب بسرعة البرق وبسطه ورقة ورقة على المقعد. وخرجنا وأقفل الدجال اللص الباب وراءنا.

وفي الطريق أخبرني رناتو الخبر الأليم فقد تأكد له بالفحص الطبي – كما أشرت عليه – أنه مصاب بالسل الرئوي وفي الرئة اليمنى كهفان وفي اليسرى كهف كبير، ورأيته منقبضاً لا يحتمل أي كلمة فافترقنا وهو يائس تماماً من حياته وهو الواقع فعلاً.

في ذات ليلة ازدحم الناس على كوبري قصر النيل وكان عددهم كبيراً لأن شدة الحر أثناء النهار تجعلهم يرتاحون لنسيم الليل على النيل، وكان ازدحامهم حول دائرة فارغة ليس فيها شيء وأخذ أحدهم يشرح للجمهور ما حدث بتفصيل وتمهل مستمتعاً بإصغائهم إليه، وكلما جاء مستمعون آخرون بدأ القصة من أولها، غير أن محمود، وهو منادي السيارات في موقف السيارات الذي أمام فندق سميراميس، لم يستطع صبراً على هذه الثرثرة فصرخ بانفعال:

– يا إخواننا.. إنسان ابن آدم مثلنا رمى نفسه في النيل وانتهت المسألة.. الخواجة رناتو فنتورا.. الله يرحمك يا رناتو.



على هامش التحليل النفسي

المريض الذي يأكل الورق

لو لم يشاهد الدكتور إبراهيم هذا المريض، فكيف كان الأستاذ الدكتور يوسف يشخص هذه الحالة النفسية؟؟ وهل كان من الممكن أن يعرف القارئ الفائدة العظيمة التي يجنيها الإنسان من أكل الورق قبل أن يقرأ هذه القصة الواقعية؟!.. لا أظن هناك حاجة لوصف الزحام والضجة والصياح عند قيام القطار من محطة القاهرة إلى الإسكندرية فهي معروفة لنا، وفي اليوم الذي حدثت فيه هذه القصة الواقعية، قام القطار من محطة مصر وقد استقر كل من الركاب في مكانه وهدأت الضجة وأخذوا يتطلعون فيما حولهم ويتصفحون وجوه جيرانهم الذين سيتسامرون معهم طول الطريق.

وكان في أحد مقاعد الدرجة الثالثة مجموعة من الناس مكونة من طالبين في كلية طب الإسكندرية عائدين من الأجازة ومعهما سلتان كبيرتان فيهما بطبيعة الحال كثير من أطايب الطعام، لأنهما يسكنان وحدهما في غرفة متواضعة بمسكن امرأة رومية عجوز في الشاطبي ويعانيان كثيراً من المتاعب في مشكلة الأكل، فتارة يرتادان المطاعم على أمل العثور على مطعم نظيف متواضع، وتارة يعدان الطعام في مطبخ مسكنهما وكان أحدهما – قصير القامة – وهو إبراهيم، سهل الخلق هادئ الطبع قليل الكلام وكان يعترف لزميله يوسف بالتفوق الفكري والذكاء والبراعة في كل شيء، مما كان يدفع يوسف المسكين – طويل القامة – إلى القيام بإشعال (وابور الجاز) أي موقد البترول وعمل الشاي أو قلي البيض في الصباح أو تحمير بعض اللحوم في المساء وغير ذلك مما يحتاج لكثير من الاستنتاج وقوة الملاحظة وسعة الاطلاع..

غير أن زملاءهما من الطلبة في كلية الطب كانوا إذا أرادوا الحصول على معلومات يوثق بها في مسألة من المسائل العلمية لا يسألون غير إبراهيم – قصير القامة – وبعضهم كان ينسب ما يظهره إبراهيم من التجاهل وسرعة تصديق "الفشر" والمبالغات، والثناء على زملائه ومدرسيه إلى ما عرف عن أهل الريف من المكر والدهاء. وحقاً كان إبراهيم

من صميم الريف في صعيد مصر ومازال أهله وأقرباؤه يقيمون هناك حيث يعود إليهم في أوقات العطلة.

نقول كان يجلس في أحد مقاعد الدرجة الثالثة هذان الطالبان ورجل كهل يلبس بذلة عتيقة وهو مشغول عن الحديث بذهول عميق لا ندري أهو استغراق في التفكير أم مقدمة للنوم، وكان رابعهم رجل سمين مستكرش ومع ذلك تلتمع عيناه بنور الذكاء الحاد وكان يلتفت لفتات بطيئة عارضة كأنها غير مقصودة ويفحص الركاب من أوائل الصفوف إلى أواخرها، ويظهر أنه كان مصاباً ببرد أو انفلونزا لأنه كان يغطي وجهه وعنقه بوشاح مع أن الجو لم يكن بارداً. وقال يوسف لزميله بصوت خفيض:

– ماذا أحضرت معك يا أخانا؟

– أحضرت طلباتك كلها– فطير مشلتت ومش قديم لكن مدهش جداً.

– أنا لم أطلب منك (مش) يجب أن تميز بين الأسماء المتشابهة فالمفروض أنك درست المنطق يا عزيزي الكونت.

– منطق؟ منطق أيه يا سيدنا، أنت قلت أنك مغرم بالمش.

– لا لم أقل ذلك. أنا قلت أني مغرم (بالقتة) أي القثاء مخللة في المش، والبيض المسلوق المحفوظ أيضاً في المش بعد تقشيره طبعاً كما أخبرتني.

– أظن أنك أنت لم تدرس المنطق فأنا قلت قد أحضرت لك المش، وحيث أن المش يتضمن القثاء والبيض المسلوق المقشور والخيار والفلفل الأخضر فيعتبر المش (كلا) وهذه المحتويات كلها جزءاً وإذا ذكرت الكل فكأنما ذكرت الجزء بطبيعة الحال.

– ها.. ها.. هذه مغالطة سفسطائية ولا يمكن لمثلك أن يغالطني

– اشرح لنا ذلك لعلنا نستفيد من ذكائك الهائل يا طويل القامة.

– إن المش يا عزيزي القصير، عنصر مستقل عن هذه المواد بدليل أنه قد يكون

بمفرده أو يحتوي على بعض قطع من الجبن وبعض الديدان فقط، فإذا قلت أنا آكل الدود فهذا لا يستدعي أن يكون معه المش والعكس أيضاً صحيح. وعلى كل حال الآن ارتاحت نفسي واطمأن خاطري وهدأ بالي.

ونظر إليهما الرجل السمين ثم بصق على الأرض – على ذكر أكل الديدان – وانصرف إلى تأملاته في وجوه الركاب، وقال إبراهيم:

– قد أحضرت بعض الفطائر الريفية والبيض والزبدة.

وانتهى حديث الطعام عند هذا الحد ولم يسأل إبراهيم زميله عما أحضره من مصر، وفي الواقع لم يكونا ممن يهتم بالطعام إطلاقاً ولاسيما يوسف لأن أسنانه تالفة. لا يأكل إلا الطعام اللين ولا يترك الكتاب من يده أثناء الطعام ولا يرفع بصره عن القراءة فهو يأكل كما اتفق من أي لون يكون قريباً من متناول يده. وتناول إبراهيم صحيفة الأهرام وأخذ يتصفحها، وتناول يوسف كتاباً صغيراً باللغة الإنجليزية مكتوب عليه (مركب النقص وعلاجه) وأخذ يطالعه ويضع خطوطاً بالقلم تحت بعض العبارات. ووقعت عينا الرجل السمين على الأهرام فأخذ يختلس النظر إليه كعادة المصريين وكان جالساً في المقعد المقابل لإبراهيم وجعل يثني عنقه ويتخارز (أي يضيق عينيه) بشكل مضحك ليتمكن من قراءة الصفحة التي تواجهه. وأخيراً تكلم يوسف قائلاً:

– انظر هذه هي النظرية التي تنكرها حضرتك وتدعي أنها غير معقولة وغير كافية لتشخيص الحالة.

– أي نظرية؟

– أنا أقرأها لك بالحرف الواحد: يقول المؤلف "وكل مريض بمركب النقص تظهر عليه أعراض معينة يمكن إدراكها بالملاحظة البسيطة وذلك طبعاً غير الأعراض الأساسية العلمية التي تعرف بالتحليل النفساني، وأهم هذه العلامات التصنع في الحركات والتصرفات كتصنع الكبرياء أو العظمة، وكذلك سرعة الاستياء وعدم الاستقرار على حال واحدة، والقلق وكثرة التطلع في وجوه الناس وفحص ثيابهم ومظهرهم ليقارن بينهم

وبين نفسه، وغالباً يكون المصاب بمركب النقص سميناً زائد الوزن لأنه يعوض ما به من الشعور بالنقص بالتهام المأكولات ولاسيما أنه انطوائي لا يتمتع بالاختلاط بالناس والذهاب إلى الحفلات أو الرحلات فيبالغ في الاستمتاع بالأكل".

وكان يوسف يقرأ باللغة الإنجليزية فطوى إبراهيم صحيفته وقال بهدوء:

– نعم.. نعم.. تمام.. تمام

وكذلك وضع يوسف الكتاب ناحية وقال بثقة عظيمة:

– هذه طبعاً هي العلامات السطحية، وهي قابلة للاختلاف الشديد حسب السن والثقافة والبيئة، وأنا شخصياً اعتمد على علامات فسيولوجية وعلامات هرمونية طبية أما بحوثي الخاصة في مختلف المراجع فقد خرجت منها باكتشاف علامات فرينولوجية وأخرى فيزيونومية.

واندفع يشرح لزميله هذه الآراء بلغة عربية ممزوجة بكثير من الاصطلاحات الطبية. ولم يكن زميله الدكتور إبراهيم ممن يهتمون بقواعد الآداب العامة مع الزملاء فعاد إلى الأهرام ينشر صفحاتها أمامه يطالعها وترك صديقه يتكلم، وكذلك لم يكن الأستاذ الدكتور يوسف ممن يقطع عليهم محاضراتهم مثل هذه البوادر التافهة فاستمر في شرحه متدفقاً كالسيل. وأخيراً مال على إبراهيم وهمس في أذنه بالإنجليزية:

– انظر هذا الرجل السمين الجالس أمامك وتأمله جيداً.

فنظر إليه إبراهيم مرتين أو ثلاثاً كأنه يفحصه وهو في الحقيقة يفكر في مسائل شخصية خاصة به. وتعجب الرجل من همسها وتكرار نظرهما إليه ولكن لم يظهر على عينيه الضيقتين أو وجهه السمين ما يدل على أفكاره، وقال يوسف بصوت مرتفع:

– مركب نقص واضح جداً.. ما رأيك؟.. وعقلية انطوائية أيضاً

– يا سلام؟ عقلية انطوائية؟!

– مائة في المائة بل مليون في المليون.

– وما سبب هذا المرض يا يوسف؟

– أعظم سبب له هو ضرب الوالدين للطفل ثم الكادر

– كادر يعني إيه؟

– الكادر هو درجات الموظفين، فالموظف يرى دائماً رؤساءه أعلى منه وأعظم مركزاً ومرتباً وهو خاضع لهم بحكم القانون يسومونه الذل والإهانة ومهما كان مركزه كبيراً ففي استطاعة رئيسه أن يجرح كرامته ويهينه بطرق دبلوماسية، وكلما ارتقى وجد من هو في درجة أعلى منه. فإن كان مثلاً في الدرجة الثالثة وجد رئيسه في الدرجة الرابعة وإن كان في الدرجة السابعة أو الثامنة فرئيس رئيسه في الدرجة العاشرة مثلاً يحتقره.

وهنا قاطعه إبراهيم:

– يا سيدنا دي درجات الموظفين معكوسة بعكس كلامك أي أن موظف الثالثة، أرقى من موظف الرابعة وهكذا.

وهنا ابتسم الرجل السمين ابتسامة مرحة، ولكنه لم يتكلم، وعاد يوسف إلى بحثه قائلاً وقد ضرب صفحاً عن ذكر درجات الموظفين:

– وهكذا يصاب الموظف حتماً بمركب النقص مما ينتج عنه عدم رغبته في الاختلاط ورغبته في الاختفاء بمنزله وانصرافه إلى تعويض لذات الحياة بالإفراط في الأكل وأحياناً بضرب زوجته وأولاده واحتقارهم.

وكان إبراهيم منصرفاً إلى قراءة الأهرام فاكتفى بكلمة: "يا سلام!!"، وهو يقلب الصفحات ويمعن فيها، ولكن الرجل السمين اهتم اهتماماً غريباً بالحديث فقال مخاطباً يوسف وهو في نفس الوقت يلقي نظرة جانبية فاحصة على إبراهيم:

– أظن حضرتك دكتور؟

– نعم

– يا سلام يا دكتور.. والله كلام جميل جداً جداً ومدهش، سبحان الله يا دكتور ربنا أعطاك ذكاء وفهم لا توجد عند كبار الأطباء.

فتمم يوسف بتواضع:

– لا أبداً.. أبداً هذه أمراض نفسية وأحياناً تكون أمراضاً عصبية.

– لكن يا دكتور نفسي أقول كلمة وخايف تستهزئ بي أو تعتبرني جاهل.

– لا أبداً أبداً.

– هل يوجد يا دكتور شيء اسمه سحر أو عمل معمول للإنسان؟ لأني أنا عندي حالة عجيبة جداً لا هي في الطب ولا في الأمراض النفسية ولا في الأمراض العصبية كما تقول حضرتك، وفي الحقيقة لم أخبر بها الأطباء لأني أخاف أن يضحكوا علي كما قلت لحضرتك ولسبب آخر سأذكره لحضرتك حالاً.

– حكاية عجيبة جداً، وما هو هذا السبب؟

– السبب في أنني لم أخبر الأطباء بحالتي هو أن علاجي بسيط جداً وغير متعب وسهل مع إنه عجيب.

فابتهج يوسف ابتهاجاً ممزوجاً بالدهشة الصبيانية، ومال على الرجل السمين بسذاجة وهو يقول بحماسة:

– اشرح لي هذه الحالة.. أنا أهتم جداً بهذا الموضوع، وفي الواقع قرأت كثيراً من المراجع المحترمة في الأمراض النفسية

وهنا تنهد إبراهيم في ارتياح وتثاءب وانصرف إلى قراءة الصحيفة، فقال الرجل السمين بسرعة:

– أنا لا أريد أن أطيل عليك الكلام بشرح أصل الموضوع، ولكني أختصر فأشرح

لك النتيجة وهي أنني أصاب بأدوار غريبة من التشنج. وفي أول الأمر عرضت نفسي على الأطباء وأعطوني المسكنات فلم تنفعني مطلقاً، وكانت الأدوار أحياناً تفاجئني وأنا في الطريق أو في الشغل، وأخيراً وبالاختصار ذهبت لعدة مشايخ بدون فائدة ثم وفقت بعد تعب وعناء إلى أحد المشايخ المشهورين، وبعد الاستخارة والبحث قال لي إن علاجي بسيط وهو أنه عند شعوري باقتراب الدور آكل قطعة ورق من ورق الجرائد تكون جديدة فينصرف الدور بانصراف الأسياد بسبب ما يوجد في ورق الجرائد من الحروف والكلمات وهي طبعاً تتكون منها أسماء الله الحسنى.

– أسياد.. تقصد الجن؟.. هذه أشياء خرافية والأصل أنه مرض نفساني أو مرض عصبي ومنه أنواع...

– ولكن يا دكتور كلما شعرت بالدور وأكلت ورقة من ورق الجرائد الجديدة وشممت رائحة حبر المطبعة انصرف الأسياد حتى أني أصبحت الآن ألتذ بأكل ورق الجرائد، والآن على ذكر الموضوع أشعر بأني (اتعكرت).

– اتعكرت يعني إيه؟

– اتعكرت أي بدأ عندي الدور، وإذا كان زميلك الدكتور يسمح لي بالأهرام فأنا آخذ منه قطعة صغيرة جداً، من بعد إذنك يا دكتور....

ومد إليه يده، فقال إبراهيم وهو مندهش: "تفضل".. وناوله الصحيفة فقطع الرجل السمين جزءاً من الورقة بعناية وقطع هذا الجزء أربع قطع، وطوى كل قطعة وأخذ يمضغها ثم يبتلعها بهدوء. واندفع يوسف يشرح له أنواع الصرع والتشنج، وأن هذا العلاج العجيب ليس إلا من تأثير الإيحاء الذاتي وأن المرض سيعود إليه حتماً إذا لم يعالج نفسه بالتحليل النفساني مع الأدوية الحديثة. وكان إبراهيم يطيل النظر إلى الرجل السمين وهو متعجب متفكر، ثم قال إبراهيم:

– وحضرتك طبعاً عارف أن هذا الدور يأتي فجأة فلماذا لا تستعد له بالجرائد المطلوبة.

فأجاب الرجل معتذراً:

– والله أحضرت معي جريدة ولكني وضعتها في الحقيبة لأني لم أكن أتوقع الدور اليوم فهو لا يأتيني إلا نحو كل عشرة أيام وكان حدث لي أول أمس فقط والحقيقة أن (التعكير) حصل لمناسبة الكلام.

– انتظر يا إبراهيم يا أخي– نحن نبحث الناحية العلمية وما رأيك إني أدركت سر الموضوع بكل بساطة.

– يا سلام؟.. ما هو سر هذا الموضوع يا دكتور يوسف؟

– يا سيدي العزيز هذه حالة حساسية وأنت تعلم أن الحساسية تحدث من أي شيء بغير سبب.

– تقصد **Allergy**

– بالضبط حالة **Mysterious Allergy**

وظهرت على الرجل السمين علامات التعب، فانقطع عن الكلام وأخذ يهوم ويقاوم النوم. وفي محطة سيدي جابر نزل الرجل السمين بعد أن ألقى التحية، واختفى في الزحام. وسار إبراهيم بهدوء إلى أقرب بائع جرائد واشترى (الأهرام) وأخذ يتصفحها بدقة غريبة ويوسف يقول:

– إن شاء الله سأشرح لك هذه الحالة بالضبط، وما هي إلا خليط من التشنج والأوهام والإيحاءات والحالات الـ **Spasmodic**

– ولكن لماذا تشتري الأهرام؟!.. هل هذه القطعة التي أكلها صاحبنا مملوءة بالأخبار المهمة، أنت عجيب جداً يا إبراهيم تقف في وسط الزحام لتكمل قراءة الأهرام مع أن معك عدداً آخر منه، عجيبة والله.

فقال إبراهيم بهدوء وهو يشير بأصبعه إلى موضع معين في الصحيفة.

– انظر هنا

فنظر حيث أشار له فرأى صورة الرجل السمين مكتوب تحتها "صورة الصراف المختلس ولم يقبض عليه إلى الآن والبحث جارٍ عنه".

حب ولا حب

وهي قصة المرأة التي فشلت في علاج حالة نفسية والمرأة التي نجحت، وهي تبين بوضوح سراً من أعمق أسرار الإيحاء الذاتي.

***

كان شبابها في مثل بهجة الربيع، وكان خداها في لون زهرة اللوز: حمرة خفيفة على شحوب له روعة وفتون، وكل حلاوة الدنيا وفرحتها في ابتسامتها، ولكنها لم تكن لي.

قلت باشمئزاز:

– أنتِ مجنونة. لا بد أن تكوني مجنونة. أريد أن أوضح لك المسألة بصراحة تامة، إن في عقل كل امرأة شيء يمنعها من فهم الأمور على حقيقتها؛ فإذا نحينا العواطف جانباً...

– تنحي العواطف جانباً؟ هذه هي المعجزة التي لا يمكن أن تتم في هذا الوجود، إن الماء الذي نشربه والنسيم الذي نستاف لا تخلو من ناحية عاطفية. إن الحياة بحر من العواطف.

– صدقت إن الحياة بحر من العواطف وأنت تريدين أن تموتي به غرقاً وأن تسحبيني معك إلى أعماقه. فلماذا لا أكون لك مرشداً ومنارة النجاة؟!

فقالت بنغم ظاهر:

– لست من السباحة في شيء، لقد يئست من النجاة.

فقلت بتلطف وحاولت ألا يظهر في صوتي أي غضب

– اسمعي: إنني أحبك وأنت تحبيني. إنه القدر المقدر، لقد خلق كل منا للآخر وكتب هذا علينا ليسعد كل منا زميله.

– أو ليشقيه ويسقيه كأس الصب والصبر في العيش المزيف.

فقلت بقسوة:

– إنني أريدك وأنت تريدينني، أما "هو" فلا يريدك وقد سخر لفائدته وأغراضه واستغلك على قدر طاقته.. اسمعي إنه لا يريدك ولا يريد إلا الكأس وصحبة المرأة ذات الشعر الذهبي.

فأجفلت وشهقت، ولكني لم أعبأ بها ومضيت في كلامي:

– إن الوعد الذي قطعته على نفسك لوالدته كان حمقاً وتسرعاً.

– قطعته لأمه وهي على فراش الموت.

– وهذا أدعى للتحرر منه ورمي قيوده لأنه استغلال لشعورك في لحظة تأثر.

فانتفضت فجأة ونظرت في عيني نظرة ناطقة بألف معنى وألف إحساس وصمتت لحظة ثم قالت:

– كان في ذلك الوقت يحبني ويحترم رأيي وقد اعتمدت أمه على ذلك لتنقذه من ذلك المنحدر الذي انحدر فيه.

– وهل أفلحت يا سيدتي؟

فلم تعبأ بكلامي ومضت تقول:

– لقد قالت لي بالحرف الواحد وهي على فراش الموت: "أنت فتاة مليحة طيبة القلب ذات مبادئ قوية، ولك تأثير عنيف على قلوب الشبان، وولدي يحتاج لمثلك لتقودينه بين أشواك الحياة وتعنين به وتكونين له أماً من بعدي.. إن ولدي لا يحكمه ولا يرشده إلا فتاة صلبة المبادئ لا تلين، فتاة مثالية لا تعرف التساهل وهو أنتِ يا حبيبتي وليس غيرك مطلقاً من تصلح لهذا. أنت مدرسة متعلمة وذات ثقافة معروفة وستكونين له مرشداً وأماً وحارساً حفيظاً".

وكان صوتها الصارم والحماسة العنيفة تكاد تشتعل لهيباً ودخاناً والتماع عينيها ببريق العزم والتصميم قد أثارت غضبي وجن جنوني، ولكن ما فتحت فمي حتى قاطعتني:

– لقد قالت أشياء كثيرة.. قالت إن ابنها يحتاج إلى نجم يقوده، إلى كوكب ينير له، إلى قلب كريم كبير ولكنه قلب قدّ من الحديد، إلى راحة رخصة تمسح عنه عرق حمى الحياة المفزعة، ولكنها كف من حديد هكذا قالت لي وهي على فراش الموت.

– نعم قد يكون إلى ذلك محتاجاً مثله في ذلك مثل غيره من الناس، ولكني أظن...

– لقد وعدتها. لقد وعدت. قلت لها إذا أهمله كل إنسان في العالم فلن أتخلى عنه وسأقوم بتقويم اعوجاجه برغم ضعفي، لقد قلت ذلك فغمرها الفرح في مرضها الأخير، ولا تنس أنها خالتي التي ربتني بدل أمي.

– حسناً وماذا فعلت؟

فأطرقت بشيء من الحيرة:

– إنني أكافح.. إنني أعمل جهدي.

– لقد كافحت وعملت جهدك طيلة سنتين بغير نتيجة.

– لم أقصر لحظة واحدة في القيام برغباتها وتنفيذ وصيتها المقدسة ومع ذلك...

– ماذا حدث؟

– ذهبت كل جهودي هباءً فقد كنت أحسبه يصغى إليّ وإلى نصائحي وإذا به أخيراً يبدي ملحوظات سخيفة ساخرة، ويتغزل في شعري أو عينيّ.

"شعرها وعيناها"!! فنظرت إليها وتنهدت من فؤاد شيق مستهام:

– وكان أحياناً يثور ويصخب ويقول كفاك وعظاً وإرشاداً، فكنت أتحكم في أعصابي فلا أثور ولا أغلظ له رداً وأعمد إلى الملاينة والمداورة في نصحه وتوجيهه، وإني

لأسمع من أخباره ما يحزن قلبي ويسيل الدمع من عيني مدراراً، وقد قال لي بغلظة وحدة: اسمعي يا ابنة خالتي خذي بخناقي ومزقي ثيابي واضربيني ومزقي وجهي بأظافرك ولكن لا تبكي عليّ كأنني ميت يرثى أو قتيل يندب، ثم خرج وصفق الباب وراءه صفقة ارتجت لها الجدران.

أما أنا فقد أثارت غضبي الدموع التي ترقرقت في عينيها وهي تتكلم فقلت:

يا له من سيء الأخلاق لا يرجى منه نفع وتريدين أن تضحي حياتك لأجل رجل كهذا.

لن أتخلى عنه مطلقاً. إن أمه ألحت عليّ مراراً وتكراراً طيلة السنين الخمس التي عشتها معهم ألا أتركه يركب رأسه ويضل سواء السبيل، وكانت أمي وأمه تقولان دائماً ونحن صغيران إنني خلقت له وهو خلق لي، وإذا كلمتاني عنه وأنا طفلة قالتا جاء زوجك.

– لقد جعلك أضحوكة الناس، إنه يمشي ليلاً ونهاراً في أعقاب الشقراء وهي تلبس ثياباً مزركشة عجيبة ولها خدان في لون التفاح الأحمر، وهل تعلمين ما هي مهنتها؟ إنها تغني في الإذاعة الإفرنجية بعض الأغاني ولعلها تمثل بعض الأدوار الثانوية في السينما، ولها ضحكات عالية رنانة شاذة.

فقالت بحزن:

– مسكين! لهف نفسي عليه!

فقلت بحدة إنه الجاني على نفسه فهو يسير بخطوات واسعة في طريق البؤس والخراب؛ فلمعت عيناها ببريق قوي وتنفست الصعداء قائلة:

– ما زال في الإمكان إنقاذه.

– لقد فقد وظيفته وقاطعه كل صديق أو زميل من أصحاب المراكز الأدبية ولم يفق من الخمر والقمار منذ شهر كامل حتى نبذه أبوه وتخلى عنه وأصبح يسير في الطرقات كالمتشردين.

وقطعت الكلام فجأة وأنا أنظر إلى عينيها الملهمتين تلتمعان ببريق لماح وإلى شفتيها الجميلتين وقد تباعدتا قليلاً، ثم صاحت بي.

– لكن بقي له صديق واحد مخلص لا يتخلى عنه.. إنني سأضحي بكل شيء حتى الحياة العزيزة لأنقذ هذا الفتى.

وقامت إلى مكتبها فكتبت له خطاباً بأنها سامحته في كل ما فعل وسألته أن يأتي حالاً لزيارتها لأمر مهم. ومضت الأيام ولم يأت لزيارتها ولم يرد عليها خطاباً، فإن ذات الشعر الذهبي كانت تمسكه على ما يظهر بقبضة من حديد. وقلت لها أنني سمعت أن ذات الشعر الذهبي تشرب من الخمر أكثر مما يشرب هو. وأعتقد أنه من واجبي أن أخبرها بكل ما أسمع..

فجلست إلى مكتبها واعتمدت رأسها بين يديها، فقلت أنهما يشربان معاً ويغرقان في الخمر إلى آذانهما. ما أسخف تمسكها بوعدها. إني لأكره هذه العواطف المفروضة عليها فرضاً والمبادئ المزيفة، وأنا بغير شك أجدر إنسان بها في المدينة كلها وأعلم علم اليقين أنها تحبني وأنا خبير عليم بنفسيتها وأعماق ضميرها.. حقاً إنه لموقف سخيف سمج..

ووقفت هي فجأة وقد عاد إلى عينيها ذلك البريق الغريب إذ تلتمعان ويرتفع إنسان عينها حتى يكاد يختفي تحت الجفن الأعلى، بالضبط كالوسيط حينما يدخل في النوم المغنطيسي. وتكلمت كأنها تمشي في النوم بصوت هادئ ثابت:

– سأذهب وأرى هذه السيدة ذات الشعر الذهبي.. سأقابلها

– ماذا تقولين؟.. هل جننت؟

– سأوضح لها ما هي فاعلة

– ما هذا الكلام؟.. هل هذا كلام يعقل؟

– نعم.. سألجأ إلى الناحية الطيبة فيها، كل إنسان في الوجود فيه (إنسانية) كامنة

في ناحية من نواحي نفسه.

– لا أظن فيها أي بقية من الإنسانية

– سأتضرع إليها وأتوسل أن تتركه إذا كانت حقاً تحبه؛ كي ينجو ويعيش.

– إنها خليقة أن تتركه إذا كانت لا تحبه.

فتنهدت وقالت وهي تهز رأسها هزات ذات معنى:

– إنك لا تفهم قلب المرأة، وسأثبت لك ذلك.

وخرجنا معاً لنقابل المرأة ذات الشعر الذهبي، وكانت تسكن في مصر الجديدة في طابق صغير في شارع الأسود في عمارة الحاج حسن الصحابي فوقفت أنتظرها قرب سيارتي وأنا محنق مضطرب الأعصاب خوفاً عليها؛ فأدخلوها عليها وهي واقفة تكوي ثوباً نسائياً أحمر عتيقاً. فلما رأت زائرتها أمامها فارعة القوام صارخة الفتنة وضعت المكواة وبدت منها ألفاظ لم تعن صاحبتنا بإعادتها على مسمعي حينما أعادت على كل ما حدث ولكنها قالت لها بجرأة:

– لقد جئت لأراك وجهاً لوجه.. امرأة أمام امرأة.

– إذا كانت مسألة إحسان للجمعيات الخيرية – ومدت يدها إلى حقيبتها بجوارها – فليس معي غير جنيه. إنني مفلسة تمام الإفلاس.. خذيه ها هو!!

فدهشت صاحبتنا فإنها حين كانت تعمل في الجمعيات الخيرية لم تعطها أية سيدة عادية أكثر من عشرة قروش مع أن بعضهن كن واسعات الثراء، ولم تسألها الشقراء أي سؤال عن الجمعية التي تجمع لها التبرعات أو عن الإيصال.

– لم أحضر من أجل تبرعات خيرية، وإنما جئت أضرع إليك أن تنقذي نفساً بشرية من الدمار

فنظرت إليها بقلق وتحولت نظرتها المضطربة إلى الباب ثم أزاحت شعرها الذهبي عن

عينيها، وقد لاحظت الزائرة أنه جميل حقاً وأنه طبيعي غير مصبوغ

– إلى أي شيء ترمين؟ إنه خطيبي.

– أريد أن تتركي هذا الرجل، اتركيه وشأنه، امنحيه حريته

– أتركه؟.. أتركه يذهب إلى أين؟

فقالت بحماسة:

– اتركيه، أبعديه عنك. لقد فقد وظيفته ونبذه أصدقاؤه وأهله وهو أيضاً أهملهم.

فمطت شفتيها بازدراء، وقالت ببديهة حاضرة:

– يا لهم من أصدقاء ما لهم عهد ولا وفاء.

– وهل تحبينه أنتِ ويهمك شأنه؟

فعادت إلى مكواتها فتناولتها وقربتها من خدها لتتعرف من حرارتها ثم قالت لزائرتها ببرود أن تهتم بشؤونها الخاصة ولا تتدخل في شؤون الناس. فردت عليها بثبات:

– هذا هو شأني يا سيدتي، إني أريد أن أنقذه

فنظرت إليها بشيء من الفضول، وغمغمت ببعض ألفاظ خشنة، فصاحت بها الزائرة:

– أصغي إلي يا سيدتي، استمعي لي، لا يمكن أن تكون نفسك كلها شراً خالصاً، لا بد أن في نفسك ناحية من الخير.

فقالت وقد عادت إلى كي فستانها الأحمر:

– وكذلك لا يوجد إنسان كله خير

– أتضرع إليك أن تتركيه

– لماذا؟

فاحمر وجهها رغماً عنها، وقالت أنه وهو تحت تأثير سحرك أعمى وأصم عن كل تأثير آخر أو عطف فيه خيره وصلاحه

– تقصدين تأثيرك أنت وعطفك؟

– إذا كنت تحبينه حقاً فإني أتوسل إليك أن تتركيه

– وهل تفعلين أنت ذلك؟ إذا كنت تحبين رجلاً هل تتركينه لامرأة أخرى؟

فشحب وجهها وارتبكت، إذ كيف توضح لها أنها وهي وصية عليه خير من يعطف عليه وأقوى من يؤثر عليه في هذا العالم، فقالت بتردد وصوت رقيق مستعطف

– إن أملي قوي في أن أعمل كل ما فيه خيره

– هل تحبينه؟

فصمتت صمتاً تاماً:

– هل أنت الفتاة التي كانت خطيبته؟

– نعم أنا

– هل أنت الفتاة التي دأبت على نصحه ووعظه وإرشاده حين كان أكثر الشبان استقامة وأعظمهم اجتهاداً في عمله؟

ورمت بمكواتها ووقفت تطيل النظر إليها، ثم ابتسمت ابتسامة غريبة ذات معنى:

– هل أنت الفتاة التي أشقت عيشته بالنصائح في الصباح والمساء؟ هل أنت الفتاة التي كانت تقابله بالمواعظ والأحاديث المرهقة المقلقة والوساوس والمخاوف حتى دفعته إلى أشياء لم يكن ليفكر فيها؟.. لو قابلته بوجه باسم ووثقت به الثقة التامة التي يلذ للرجال الشعور بها، وتركت له زمام الأمور وأظهرت له الاعتماد التام عليه. إذا كنت أنت الفتاة التي فعلت ذلك، وإني أرجح إنك أنت بعينها من جمالك الفتان وعينيك الساحرتين فقد طالما وصف لي كل ذلك وتكلم عن وجهك وعينيك وشفتيك. لو كنت أنت تلك

الفتاة فينبغي أن تعلمي علم اليقين أنك أنت التي دفعت به في سبيل الهاوية وليس أنا.

فتمسكت المسكينة بالكرسي تعتمد عليه، وقد تخاذلت ركبتاها، وقالت تحدث نفسها: "كان ينبغي ألا أدخل هذا المنزل. لقد جئت لأسمع ما يسوؤني".

– والأفضل أن تنصرفي فإنه ليس لك الحق في الحضور إلى هنا إلا إذا كنت تحبينه، وإذا كنت تحبين رجلا فقد وجب عليك أن تثقي فيه وتعتمدي عليه وتتوقعي منه من البدء كل خير وأن يسير من حسن إلى أحسن، ولكنك فعلت العكس، إنك بحاجة إلى هذا الدرس القاسي ولعله ينفعك في المستقبل مع رجل آخر.

وخرجت المسكينة وعيناها تسبحان في الدموع، وأعادت عليّ ما حدث؛ فقلت لها بقسوة:

– هل تعلمت درسك؟

– إن طريقي مفروش بالشوك والعثرات، ولن أنثني، وإنني لأسير إلى الأمام مهما حدث

وعادت إلى منزلها فكتبت له خطاباً تخبره بما لاقت من العنت والحرج في سبيله ولكنها صافحة عنه إذا جاء لزيارتها، ولكنه لم يرد عليها ولم يأت لزيارتها؛ فكتبت إليه مرة ثانية وثالثة ورابعة، ولكنه لم يأت، وما زالت تلتمس له المعاذير وتسبقه بالصفح. يا لها من ملاك ساذج.

وأخيراً سمعت بالخبر قبلها فقد تناقله أصدقائي، وأسرعت إليها أخبرها به وقلبي مفعم بالسرور، فوجدتها جالسة في حديقة منزلها.

– وأخيراً يا سيدتي.. لقد ختم صاحبنا أعماله وكلل سيرته الجميلة بالفعلة الكبرى.

فاصفرت وتماسكت وهي تغلي كالمرجل، وقالت بصوت راجف:

– ماذا حدث ماذا فعل؟

– لقد هرب مع السيدة ذات الشعر الذهبي غير المصبوغ. لقد نزح واختفى وذلك ما تنبأت لك به يا عاشقة الإصلاح والتوجيه

فخامر شحوب وجهها احمرار، وذبلت جفونها كأنها هي محمومة، ووضعت راحتها على كفي، وقالت بخوف يخامره سذاجة صبيانية.

– لا تتركني وحدي في هذه المآزق، ولكن إلى أين ذهب؟

قلت بسرور لم استطع إخفاءه:

– وماذا يهمك إلى أين ذهب؟ لقد هرب واختفى والسلام، وأنت الآن حرة يا سيدتي، أنت حرة يا أعز من روحي.

فهزت رأسها بحركة صبيانية كأنها في العاشرة من عمرها، وقالت:

– أبداً.. أبداً.. أنا مقيدة بوعد على فراش الموت، بقسم مقدس وبإجماع أعضاء الأسرة، وكلما زادت أخطاؤه عظمت حاجته إليّ وعظمت مسؤوليتي،

قلت بهدوء:

– هل يمكن أن تكوني النجم الهادي والملاك الحارس لزوج امرأة أخرى!!

ومن العجيب أنها لم تهتم بخبر زواجه، بل قالت بشكل آلي:

– عليّ أن أنقذه قبل أن يفوت الوقت، ولن أنسى ما عشت الطريقة المفحمة التي كلمتني بها تلك المرأة، الطريقة القاسية.

– ولكنه قد رحل واختفى ووالده نفسه لا يهتم بتعقبه.

– لا بد أن أبحث عنه واتبعه ولو إلى آخر الأرض.

– يا إله العرش!! نبحث عنه أيضاً. أنا أبحث عن غريمي! أبحث عنه وأنا أعلم أنك لا تحبينه بل تحبين دور الملاك الحارس!!

وأترك للقارئ تقدير شعوري وأنا أبحث عنه، ولكني أعلم أنها فتاة ملائكية واقعة تحت تأثير غريب وهو تكرار أمها وخالتها على مسامعها في طفولتها أنها عروس هذا الرجل، وأنها لا تصلح إلا له وأنه لا يستطيع العيش ولا تحلو له الحياة بدونها، ثم عادت خالتها وهي على سرير الموت فقيدتها بهذا الوعد، وذلك بغير شك من نفاذ بصيرتها وهي على أبواب العالم الآخر فأرادت أن تضمن لولدها الوحيد المدلل عيشاً رخياً وقلباً حنوناً ونفساً متواضعة لا تحيد عن خدمته والإخلاص له، وكل هذا يتوفر في صاحبتنا هذه التي وقعت أسيرة مسحورة بتكرار ذلك على مسامعها منذ طفولتها.

وفي مساء ذلك اليوم بالذات ذكر لي أحد أصدقائي من علماء النفس أن الرجل محق في الهرب منها والسأم والملالة من اندفاعها الأعمى وإلحاحها الشاذ، وإخلاصها الأهوج، وهذه كلها نتيجة الإيحاء الذي انطبع في عقلها الباطن الذي هو الوعي أو أعماق النفس.

والإيحاء بهذه الطريقة، أي التكرار منذ الصغر وتصوير الأمور وتفصيلها يؤثر في الصبيان والأحداث طيلة العمر، فتجد الواحد منهم إذا كبر يسعى وراء شهرة أو ثروة أو أي هدف آخر كالخلاعة أو البذخ أو حب الظهور أو المخدرات باندفاع لا يكل ولا يمل، وقد يصل إلى هدفه أو لا يصل، فإن نجاحه رهن بالظروف والحوادث والعوامل. وحدثني صديقي أستاذ علم النفس أن صاحبنا هذا هرب من الوظيفة لأنه لا يطيقها فهو مهندس نابغة لا يطيق التقيد بالأعمال الكتابية ثم قال إنه يعرف السيدة الذهبية الشعر وأثنى عليها كثيراً وقال إنها ذات فهم عميق يتمشى مع طبيعة الرجل، فتركته وفي نفسي شعور بالسرور ولا أعلم سببه.

وبحثنا عنهما كثيراً بغير جدوى، ونشرت هي إعلاناً تطلب منه العودة وأنها صفحت عنه فلم يصلها رد. ومضت سنة ونصف سئمت نفسي فيها كآبتها وارتباكها، ولكن نفسي كانت مبتهجة راضية لأنها كانت تعتمد عليّ ولا ترتاح إلا لوجودي، بدلال وثقة كما يعتمد الطفل على أهله ولا تطيق فراقي. وأخيراً عرفنا مكانه! فقالت:

– هل تأتي معي؟

– نعم.. سأقوم بواجبي إلى النهاية. وماذا تريدين أن تفعلي هل عندك اتجاه معين أو رأي خاص.

– نعم لن أخاطبه هو، ولكني سأخاطب الناحية الطيبة فيه، سألجأ إلى النفس الإنسانية الراقية المستورة مؤقتاً وراء طبائعه الفاسدة وإدمانه الخمر والتصاقه بهذه المرأة. سأنتصر عليها أخيراً..

– ألم تحاولي ذلك من قبل.. أظنك حاولت ذلك على أساس هذا المبدأ الخيالي.

– نعم، ولكن هل أنسى القسم الرهيب للمحتضرة، وهل أنسى منظرها وقد انتقلت إلى العالم الآخر، وجمدت وسكنت حركتها وعيناها مفتوحتان تحملقان فيّ، وما زال صوتها يرن في أذنيّ. سأخبره أنني صفحت عنه وعفا الله عما مضى، ولنقلب صفحة جديدة في كتاب الحياة.

– والسيدة ذات الشعر الذهبي والذكاء العجيب واللسان السليط؟

فصمتت متحيرة حيرة الطفلة الغريرة ثم قالت بتردد:

– لعلنا نستطيع مقابلته وحده.

وكانت طريقتي أن أتركها تفعل ما تشاء حتى إذا قدر لنا الزواج أنا وهي وهو وما لا شك فيه مطلقاً، لا يكون باستطاعتها أن تجد باباً للندم أو أن تعود عليّ بأي لوم أو تتهمني بأي تقصير، مع أني أعلم علم اليقين أنها لا يمكن أن تجد غنى عني وأنه لا بد لها أن تأخذ حظها من الكفاح والعناء لكي ترتاح نفسها بعد ذلك من ضغط الإيحاء الذي غرس فيها ونما كما ينمو الشوك، ولا مناص لنا من اقتلاعه. وركبنا القطار من المحلة الكبرى وتعبنا كثيراً في البحث عنه دون جدوى.

وأخيراً دلنا صبي بقال عليه، وكان لذلك صدفة غريبة؛ فقد سألنا الغلام عن مكتب البريد وامتد الحديث فذكرنا له اسمه فقال: إنه يعرفه وأن بيته غير بعيد، وسرنا معه

فدلنا على منزل ريفي صغير كست مدخله الأشجار الزاحفة من اللبلاب والعليق وتفتحت أزهارها الكثيرة فكان لها منظر مفرح كأن أكواماً من الزهر قد سكبت على المنزل الصغير سكباً، وسرنا في المدخل إلى الباب. فأسرعت هي بضغط زر الجرس ففتحت لنا شابة مليحة فوجئت بنا فضحكت برقة وقالت تفضلوا بالدخول إنه سيأتي بعد قليل. فجلسنا في غرفة بها زهرية قد نسق فيها الزهر ببراعة فنية خاصة. فقد وضع فيها زهرتان كبيرتان تحتضنان زهرة صغيرة وخلف الثلاث ستار من الأغصان الخضراء، وعلى النوافذ ستائر شفافة من الحرير تتطاير مع النسيم بدلال ورقة كما تتطاير ذيول الحسناء على شاطئ البحر، والقطة السمينة تنام بسعادة ورضى على البساط البهيج اللون وبجوارها مهد طفل، نظرنا فيه وقد نسينا أنفسنا ونسينا أننا في حارة بالمحلة الكبرى، فإذا بالطفل ينظر بعينين واسعتين ويبتسم وهو أشقر الشعر تفاحي الخدين.

ومشت السيدة ذات الشعر الذهبي بخطوات رشيقة لم يسمع لها صوت فتناولت الطفل من مهده وقربته منا، وقالت بلهجة طبيعية.

– إنها بنت لقد سميتها باسمك

وأشارت إليها بأصبعها. وانعقد لساني وصمتت هي كذلك وأخذنا ننظر في أنحاء الغرفة وهي تقول:

– إن عينيها عينا والدها أما شعرها فشعري.

ثم غيرت لهجتها فجأة وقالت بلهجة جدية.

– كل هذا من صنعك، من صنعك أنت...

وابتسمت ابتسامة فاتنة، فقالت المسكينة:

– صنعي أنا؟.. كيف؟

– هل تذكرين يوم زرتني بمنزلي في مصر الجديدة وتناقشنا معاً يوم حاولت أن تنقذيه من مخالبي كما كنت تقولين.

– نعم، أذكر ذلك اليوم.

فضحكت ذات الشعر الذهبي بدلال وسعادة، وقد لاحظت ما اعترانا من الوجوم والذهول، وقالت:

– أقول لك بصراحة إنك سبب نعيمي، فقد جلست بعد ما تركتني ساعات طويلة غارقة في التفكير وأنت التي أثرتِ تفكيري ودفعتني إليه.

– أنا؟

– نعم، أنت إذ لم يخطر ببالي من قبل إطلاقاً أن أنقذه وأوجهه فلما تأملت الموضوع علمت أنني أحبه وأنه ينبغي عليّ أن أنقذه.

– نعم.. نعم.. تنقذينه.

– ولكن كيف، هذا ما فكرت فيه، إن الوعظ والإرشاد والإلحاح المتواصل لا تؤثر إلا في الصغار، أما في الكبار فهي أسوأ طريقة فأنتِ التي علمتني ذلك!!

– أنا؟

– نعم.. أنت، ففكرت وفكرت حتى سطعت الفكرة كشعاع من النور في الظلام، ظلام حيرتي وتفكري وإدماني الشراب وفوضى حياتي.. قلت لنفسي لا تحاولي إنقاذه بل اطلبي منه أن ينقذك هو ويوجهك فأنا أيضاً محتاجة إلى ذلك!!!

ودهشت لكلام الشقراء فلم أتمالك إلا أن صحت صيحات الدهشة والإعجاب، فابتسمت لي وعادت إلى حديثها.

فأطلت التفكير في خطتي، وحينما جاء طلبت منه أن ينقذني من إدمان الخمر والتدخين الذي أوقعتني فيهما طبيعة عملي كمذيعة فنانة قد تمتد بها السهرة ولها إحساسها المرهف، وأوقعني فيهما أيضاً ظروف أخرى لا داعي الآن لذكرها.. قلت له وأنا على ركبتي أمام كرسيه وقد سالت دموعي: إنني ضعيفة مسكينة ارحمني وخذ بيدي

من هذه الهوة بقوتك ورجولتك وتفكيرك الناضج وخبرتك بالحياة.. ومن تلك اللحظة أخذ يعنى بي ورأى أنه لا مناص له هو من الامتناع عن الخمر والتدخين حتى أستطيع أنا الإقلاع عنهما، فأبطلهما تدريجياً وأنا معه خطوة فخطوة وقد حلا لنا الجهاد معاً، وربطنا برباط أعذب وأصفى! وأخذ اهتمامه بي يزداد حتى أحبني حباً حقيقياً وتزوجنا وهذه طفلتنا، وهو مهندس بالمصانع. ومنذ رزقنا هذه الطفلة أصبحت الدنيا جنته، ولذته الكبرى في هذه الجنة هي العمل والكفاح والاستقامة والمحافظة على صحته وصحتي والعناية بالطفلة

فانتفضت صاحبتنا وقالت بصوت ضعيف: "نعم.. نعم"

وشكرناها وألقينا التحية بسرعة، وقد قلت لها بضعة كلمات جوفاء عن أننا أتينا لتحيتهم بطريق الصدفة، وخرجنا فسرنا في الحارة الضيقة إلى الشارع، وكنت أشعر براحة ورضى، ليس لنجاة هذا الرجل من الانحدار، فهو شاب دلله أهله أسوأ تدليل وسواء قيض الله من يأخذ بيده أم أصبح مدمناً شريداً فهذا ليس من شأني. وإنما طربت لاستقرار الموقف، وانتهاء زمن عبوديتي، وفوزي بعد هذا الكفاح الطويل في صبر وإخلاص، عبداً لهذا الملاك المخلص الساذج.

وجلسنا على مقعد ننتظر القطار أكثر من ساعة لم أقطع عليها صمتها حتى تتمالك نفسها وأنا أفكر فيما شاهدته، وأخيراً قلت:

– يا عزيزتي لقد تمت رسالتك على أحسن وجه فإنك أنت التي أنقذته، وقد اعترفت لك بذلك زوجته وما كانت هي إلا أداة في يدك وواسطة لتنفيذ غرضك. والآن وقد أديت رسالتك فإني أؤكد لك على ضوء التحليل السيكولوجي للموضوع كله أنك لم تكوني أبداً محبة له، وإنما كل قوتك وحيويتك وشبابك وتنبه أعصابك ونشاطك كانت خاضعة في توجيهها لإيحاء معين أنت تعرفينه. أما من الناحية الميتافيزيقية – أي الروحانية – فلا بد أن تتم رسالتك وتتحقق أهدافك بأية طريقة مادمت قد ركزت تفكيرك فيها هذا التركيز القوي، فإن التركيز يفعل العجائب.

ثم سكتُّ وهي تنظر إليّ وقد بان في عينيها التأمل والتفكير العميق، وقد ارتاحت لحديثي. ولما وصلنا لم تخرج من منزلها يومين متتاليين، وفي اليوم الثالث زرتها فوجدتها هادئة وقابلتني بابتسامة مشرقة، ولكنها تجنبت أن أنظر في عينيها.

وبعد لحظة قصيرة لم تستطع صبراً ولا تصنعا فإني أعرفها صريحة طاهرة القلب، فقالت بكل بساطة وصراحة.

– اسمع، أنت جبار التفكير، ولقد تأملت أنا كل ما حدث وفعلاً فهمت كل شيء، والخلاصة أنك رجل بمعنى الكلمة وقد أظهرت في هذه الأزمة كل صبر وسعة عقل ورجولة وروحاً رياضية سامية. إنك لم تكن تخدمني بل كنت تعالجني من حالة نفسية وتلقي عليّ درساً كبيراً، وحيث أنني قد فهمت الدرس فأنا أعتمد عليك وأشعر بالضبط وبغير أي مبالغة كأن حجراً ثقيلاً قد أزيح عن صدري، وإني لأترك لك التصرف المطلق، إنني كنت مسحورة وقد انفك عني السحر بفضل ذكائك وصبرك.

ثم تضرج خداها وقالت:

– لم يخطر ببالي، في وجود هذه الأزمة وفي غير وجودها، أنك... أنك لا تكون دائماً إلى جانبي.. أرجوك أن تسكت وتدعني أتم كلامي. أريد أن أقول أنني فعلاً لست سوى فتاة ضعيفة، وإني من هذه اللحظة أترك لك التصرف المطلق في كل حياتنا المقبلة معاً...

وترقرقت الدموع في عينيها الواسعتين وعلقت بأهدابها الطويلة ونظرت في عيني نظرتها الصريحة كأنها ملاك طاهر؛ فشعرت بقلبي كأنه يرتجف وكأنه صعد إلى حلقي، فكدت أغص بالدمع فغضضت النظر أمام نور عينيها. ثم قلت لها:

– يا سيدتي الصغيرة، يا أعز من روحي! لا تجهدي نفسك في الحياة وشئونها! إن دورك في الحياة أن تكوني سيدة قلبي ونور عيني.

صاحب الملايين

وهي قصة واقعية تبين للقارئ الطريقة البسيطة التي تمكن بها أحد الفقراء من أن يصبح صاحب ملايين بواسطة الإيحاء الذاتي، وبواسطة نقص الغذاء والحرمان من الملابس والأغطية والهواء النقي مع اليأس والعجز وضيق العقل والحسرات وسبعة أولاد وأم وزوجة!

***

في آخر ديسمبر من عام ١٩٣٢، كان حسين أفندي صادق معاون صحة باب الشعرية جالساً في منزله يقرأ خطاباً وصله بإمضاء (حلمي بطرس) وكان عبد الحكيم أفندي سعد البطراوي معاون صحة مصر الجديدة في منزله يقرأ خطاباً وصله بنفس الإمضاء (حلمي بطرس) أما نص الخطاب فهو:

"حضرة الأخ العزيز والذهب الأبريز.. بعد السلام عليكم والسؤال عن صحتكم التي هي غاية المراد من رب العباد نفيدكم أيها الأخ أنه ستقام لكم حفلة ساهرة في كازينو الفانتازيو لاستقبال العام الجديد حيث يقدم فيها العشاء والخمور الفاخرة والدخول بدون تذاكر. على أنه يجب على كل مدعو أن يقدم للجمهور ما يطلب منه من نكت ونوادر آخر ساعة ودمتم كما رمتم. المخلص حلمي بطرس –كاتب أول صحة مصر الجديدة"

حاشية: إدارة الكازينو لا تمانع من دخول حضرات المدعوين ومعهم بعض حزم من الفجل والبصل الأخضر على أن يكون الأول من صنف (الورود)، والثاني يكون حديث العهد بالولادة ومقيداً بالدفاتر في مكتب الصحة في تاريخه أعلاه.

واجتمع الأربعة في منزل حلمي أفندي بطرس، ونقول الأربعة لأن عبد الحكيم أفندي وحسين أفندي وجدا في مسكن حلمي بطرس زائراً آخر هو محمود أفندي عثمان كاتب القيودات. وكان هذا المسكن مكوناً من غرفتين بأعلى عمارة ذات أربعة طوابق في

محطة سراي القبة المعروفة في خط الزيتون – من ضواحي القاهرة – وكان سطح العمارة فسيحاً ممتداً أمام هذه الغرف فكانوا ينعمون فيه في فصل الصيف بهواء طلق جميل ومنظر منفسح أمامهم وذلك هو الذي دعاهم إلى تشبيه هذا المسكن بالكازينو.

وفي تلك الليلة لم يستطيعوا الجلوس على السطح تحت السماء لشدة البرد في هذا الوقت من السنة، فاجتمعوا حول المائدة في غرفة داخلية وبرغم اختلافهم الظاهري في السمات والقسمات والحركات والإشارات فقد كانت تجمعهم أخوة الشباب وتربط بين قلوبهم الفتية صلة أعمق من ذلك وهي أن كلاً منهم كان سليل أسرة طيبة الأعراق تدين بالآباء وعزة النفس والأمانة المطلقة في تأدية الواجب. وكان حلمي عريض الألواح مضبور الجسد، ولذا أطلق عليه زملاؤه في المدرسة كعادة الطلبة لقباً مازال يلازمه إلى اليوم وهو اسم (حلمي العريض) فجلس معهم إلى مائدته المتواضعة ورتب عليها الأكواب الزجاجية وبعض أطباق الطعام وزجاجة من الخمر الرخيصة. وجلس إلى جواره حسين أفندي، وقال بوقاره المعهود وهو يمسح منظاره السميك:

– تعرف يا حلمي.

– نعم.

– أمس ذهب عبد الحكيم للدكتور لأنه كان مريضاً فقال له الدكتور اذهب إلى معمل الصحة وحلل البول وهات النتيجة فدخل عبد الحكيم المعمل وأعطاهم زجاجة البول وأخذ النتيجة المعلقة على الحائط، ورجع بها إلى الدكتور وقال له ها هي النتيجة يا دكتور؟!

ويضحكون ويمسح عبد الحكيم أفندي منظاره أيضاً قائلاً:

– والله واحد أحضر لي نتيجة فاخرة فرفضتها.

– لماذا رفضتها، لابد أنها لم تكن فاخرة.

– يا سيدي أصله بقال وحلواني، وأرسل لي في البيت هدية كبيرة فطردته شر

طردة، ولعنت له والده وجده، ومع ذلك عاود الهجوم عليّ وأرسل لي نتيجة فاخرة فرفضتها أيضاً فاخرة فعلاً.

وكان محمود عتمان يجلس في آخر المائدة، ويبتسم ويشير برأسه موافقاً ولكنه لم يكن يرفع بصره عن الأرض، وكان نحيلاً جداً وعظام وجنتيه بارزة وهو يلف عنقه بوشاح من النسيج الرخيص. وقد طالت لحيته وطال شعر رأسه حتى كان يتدلى في قفاه، وكان من آن لآخر يحكم لف الوشاح حول عنقه، فقد كان ذا أهمية رئيسية له لأنه يستر شعر رأسه الذي لم يحلق منذ شهرين ويستر جانباً من لحيته القذرة ويغطي بنيقة سترته (أي الياقة) وقد نحلت ونسلت وحال لونها وكستها لطخ قذرة من العرق والغبار، وكان إذا تكلم أحدهم رمقه بنظرة جانبية وهو مطرق برأسه كأنه يختبئ من نظراتهم، فلفت أنظارهم إليه بسكوته التام وسكونه.

وقال حسين أفندي صادق:

– يا سي محمود أريد أن أسألك سؤالاً مهماً جداً.

وما التفت إليه الجميع حتى اصفر وجهه ورفع كتفيه كأنه يتقى عدواً مهاجماً، ثم أخذ يفرك يديه مرتبكاً، وأخيراً قال بصوت أجش

– نعم؟

– ما هو السبب في أن اسمك عتمان بالتاء مع أن كل الناس يسمون أولادهم عثمان بالثاء؟

وكان محمود عتمان هو الوحيد المتزوج فيهم وله ستة أولاد مع أنه لم يتعد الثلاثين من عمره ويعول أمه أيضاً. وتلعثم قليلاً ثم قال باضطراب محزن:

– هذا اسمي.. اسمي هو.. اسمي عتمان كده.

وقال حلمي ببساطة وهو يغرس أسنانه في قطعة من اللحم.

– مالك يا سيدنا؟ إيه يا عتمان يا أخي دايماً حزين ومضطرب، يظهر إنك عاشق.

– لا، أبداً.. أبداً.. أقسم برب العزة.

وأشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى وحاول أن يبتسم فجلع فمه ثم أخذ يسعل سعالاً مصطنعاً وانصرفوا هم عنه إلى الحديث معاً، وقد يكون ذلك منهم عن قصد رأفة به، وقد يكون عن غير عمد على أنه ارتاح كأنه أفلت من مأزق وتنهد تنهداً عميقاً، وقال بصوت باكٍ كأنه يخاطب نفسه: "إيه!! واللي قبلنا خدوا إيه!!"

وقال حسين أفندي وهو يلوك قطعة من البسطرمة

– والله يا جماعة بلغني أن صديقين تقابلا صدفة في الطريق بعد افتراق طويل، فقال الأول:

– هل تزوجت يا فلان؟

– تزوجت والحمد لله.

– وهل رزقت أولاداً

– لا، والله

– ولا زوجتك؟؟

***

ومرة واحد سكران نادى أحد (العربجية)

– فاضي يا أسطى

– أيوة

– طيب.. ما تيجي ندردش سوا؟!

واستمرت النوادر والفكاهات تتدفق من فم حسين أفندي وعلا الضحك والتهريج وقال حلمي أفندي:

– مرة واحد حضر إلى مكتب الصحة وطلب شهادة وفاة لوالده فقلنا له مين الدكتور اللي كان بيعالج المرحوم؟ فقال أبداً والله دا مات موتة طبيعية.

واستمر السمر والنكات والمحادثات في كل موضوع، وعتمان يرفض كل ما يقدم إليه تقريباً من الطعام فقد كان يخيل إليه أن الناس كلهم يعرفون أنه جائع محروم من الغذاء الأساسي ولا يكاد يأكل إلا ما يمسك رمقه. وكان يرفع نظره عن الأرض بين حين وآخر ويفتح فمه ليقول شيئاً معيناً، أو بعبارة أوضح ليطلب شيئاً معيناً ثم تنهار عزيمته وتتبخر الكلمات التي على لسانه، فيغطي تراجعه وتردده بضحكة مصطنعة أو بنغمة جوفاء خشنة تخرج من حلقه يوافق بها على الحديث الذي يلقي أو كأنها بداية قهقهة يشاركهم بها في ضحكهم ثم تتلاشى في أولها ويغص بها حلقه ويعاود الإطراق والوجوم ويسف إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً ضيعه. ولكن الحقيقة أن صوتاً خفياً كان يهتف في عمق ضميره:

"أيتها الأرض ضميني إلى صدرك فأنت أحن علي من الناس! والجوع ينهش أولادي".

وهدأ المجلس وهم يصغون إلى قصة (عيسى الخباز) التي يقصها عليهم عبد الحكيم وهي قصة واقعية حدثت في دائرته، فقد أفلس هذا الخباز – وهو ألباني الأصل – وساءت حاله لإدمانه الشراب كل ليلة وكسدت أعماله وأشرف على التسول، وأخيراً رأت زوجته أن تؤجر غرفة من مسكنهما لتستعين بأجرها على العيش. وكان المستأجر كريماً سمحاً، يأتي كل ليلة بزجاجة الخمر وما يلائمها من النقل ويتقارعان الكؤوس إلى منتصف الليل، وسارت حياتهم هينة لينة صافية مثل ينبوع الماء الهادئ في جبل لبنان.

وفي ذات يوم فوجئ موظفو مكتب صحة مصر الجديدة بالخواجة عيسى الفران الألباني والخواجة إسكندر وهما يتناقشان وأمامهما دفتر المواليد على مكتب حلمي أفندي العريض. وحلمي كعادته يناقشهما ويحاور ويداور ليصل إلى الحقيقة، وفي نفس الوقت

يرحب بالست الحكيمة ويحييها عند دخولها. أما سبب الخلاف بين الخواجة عيسى والخواجة إسكندر فهو إن حرم الخواجة عيسى وضعت مولوداً – أنثى – فكانا يتصايحان ويصرخان ورائحة الخمر والبخر تفوح منهما. وكانت نقط الخلاف هي:

أولاً: صمم الخواجة عيسى أن يكون اسم المولودة (مريام) إحياءً لذكرى المرحومة والدته.

ثانياً: صمم الخواجة إسكندر أن يكون اسم المولودة (أنسطاسيا) إحياءً لذكرى المرحومة والدته.

ثالثاً: صمم الخواجة عيسى على أن يقيد اسم المولودة (مريام عيسى) لأنه والدها.

رابعاً: صمم الخواجة إسكندر على أن يقيد اسم المولودة (أنسطاسيا إسكندر بابادوبلو) لأنه والدها.

وكان حلمي أفندي وهو جالس إلى مكتبه في مكتب الصحة يصغي إلى مناقشتهما وهو في نفس الوقت يتكلم في التليفون وينتهز بعض اللحظات السانحة ليملي أحد الموظفين صيغة بيان مقدم إلى الوزارة، بينما هو نفسه يراجع بعض المنشورات والتعليمات الجديدة بخصوص موسم الحجاج، وفي ناحية منعزلة من مخه يفكر في حل لهذه المشكلة لكي يتخلص منهما ويتفرغ لأعمال المكتب الكثيرة فأشعل لفافة وما جذب منها بضعة أنفاس حتى وفق لحل المشكلة، فقد طلب من الخواجة إسكندر أن يحضر إثبات شخصية أو عقد إيجار الغرفة. فقال الخواجة إسكندر:

– ليس عندي إثبات شخصية ولا عقد إيجار ولكن عندي خطابات باسمي وعنواني تصلني من بلاد اليونان وهي موجودة بالمنزل وليست معي الآن.

– عال.. عال اذهب حالاً وأحضرها على شرط أن تكون باسمك وعنوانك يا (خبيبي)

وهرع الخواجة إسكندر وهو يتمايل من أثر الخمر ليحضر الخطابات وهو يضحك

طرباً لانتصاره على غريمه، ولكنه ما إن خرج من باب مكتب الصحة حتى كانت المولودة تقيد باسم الخواجة عيسى الذي طلب من قبيل الرحمة والتعطف أن تسجل باسم (أنسطاسيا عيسى) وهو يؤمل إنه بهذا التعطف والتساهل لن يحرم من زجاجة الكونياك القبرصي...

وتعالى الضحك والتعليقات، وقد انعقد دخان التبغ في سقف الغرفة، وانتهز عتمان فترة الضجة وانشغالهم بالقصة فتأوه (آهته) المألوفة بصوت كسير ضعيف وهو في شبه غيبوبة:

– إيه...!! واللي قبلنا خدوا إيه!

ثم تطور الحديث إلى قلة مرتباتهم وعدم تقدير الحكومة للموظف الأمين الكفء، وقال عبد الحكيم: "والله لو أردت لجمعت ثروة والفرص كثيرة جداً وسانحة بل إني أعرف كثيراً من الزملاء جمعوا ثروات طيبة"

فأخذ حلمي يتثاءب ويتمطى، وقال بفتور:

– الفرص كثيرة لمن يكون واسع الذمة.

وهنا تحمس محمود عتمان، وقال فجأة بصوت مرتفع واهتمام عظيم لا يتناسب مع بساطة المحادثة ولا مع سكوته الطويل:

– وحياة رب العزة، عبد العليم أفندي باع ثمانين أقة من الورق وحسن خضر وجد محفظة

– يا سلام ثمانين أقة!

– ثمانين أقة من قيودات الأرشيف وحياة رب العزة وحسن خضر وجد محفظة.

وتثاءب حسين وقال:

– مرة يا جماعة كنت سأصبح (مليونير) فقد كان معي ورقة يانصيب كبيرة تكسب

خمسمائة جنيها وفرقت رقم واحد، رقم واحد يا عالم وكنت أكسب خمسمائة أهيف

– ظهر أن بعض الناس لهم حظ في (اليانصيب) فإن يونس الشامي كسب البريمو مع إن عنده عمارة ١٢ شقة.

فقال حلمي:

– والخواجة ميشيل السمسار كسب (فيشة) في سبق الخيل أربعمائة جنيها مع أنه قبلها بيومين أخذ من محسوبكم عشرين قرشاً على سبيل القرض والاستعارة.

فصاح حسين صادق:

– كل هذا معقول وجائز، ولكن الأغرب منه أن الخواجة ستوماتي صاحب الخمارة الحقيرة على ناصية شارع المنصورة وصله خطاب من محام رومى بإسكندرية بأن زوجته ورثت من أحد أقربائها بالإسكندرية ألفا وخمسمائة جنيها مصريا، وكان المرحوم صاحب مطاحن بن..

وتعددت الحكايات والقصص عن الحظ واليانصيب والميراث المفاجئ وأرباح القمار وغير ذلك مما يحفظ كل إنسان منه بضعة أمثلة (منقحة ومزيدة)، وكان محمود عتمان لا ينبس بلفظ مع أنه يتابع هذه القصص بعناية وحرص وكأنه يشرب ألفاظها شرباً، وكان برغم ضعفه وشحوبه حاد التصور ناري الخيال، وكأن كل قصة حكيت أمامه قد حدثت له هو وعرك دقائقها ودخائلها وذاق وقعها ومفاجأتها، فصعد الدم إلى وجنتيه الشاحبتين وأصابته حمى من فرط انفعاله وتلاعب الحديث بأعمق خيالات أمانيه وأحلام يقظته، وقد جاء صدفة في تلك الليلة ليقترض بضعة قروش لأسرته الجائعة وكانت المحادثة عن أصحاب الحظ الذين تهبط عليهم الثروات المفاجئة قد وقفت عند هذا الحد، وختمها حسين وهو يملأ الجراموفون العتيق قائلاً إن محمود عبد البر الساعي وجد محفظة ضخمة في الشارع وقعت من شخص (هندي) وفيها نصف أقة من الأوراق المالية.

فصرخ محمود عتمان:

– وحسين خضر وجد محفظة

وما أن أتم كلامه حتى عاد إلى صمته الذي يشبه الغيبوبة لولا احتقان وجهه والبريق العجيب الذي ظهر في عينيه الذابلتين، ولزموا الصمت جميعاً وارتفع صوت أم كلثوم بالقصيدة التي يعشقونها حتى وصلته إلى قولها:

وإذا صلت فكل شيء باسم وإذا هجرت فكل شيء باك

فتأوه عبد الحكيم أفندي من قلب مشتاق، وجاوبه حسين صادق بتنهدات عميقة، وقال وهو يهز رأسه هزات متتالية.

– أين.. أين.. أين أيام زمان، ما الحب إلا للحبيب الأول..

وسمع حلمي أفندي كلمة (الحبيب) فصاح، وهو على عادة أهل أسيوط لا يهتم بالعواطف والخيالات.

– الواد حبيب الترزي بعت لي جواب عاوز مني اتنين جنيه!

وكان عتمان مطرقاً وعيناه مغمضتان وقد ألهبت الحمى رأسه وهو لا يسمع كلمة مما يقولون بل يرى أمام عينيه رزماً كثيرة من الأوراق المالية. ووقف الضيفان فصافحا صاحب المنزل ثم نظرا إلى عتمان يتوقعان أن يقوم وينزل معهما، فإن الساعة فاتت الواحدة بعد منتصف الليل، ولما لم يتحرك ألقيا عليه التحية وانصرفا مودعين من حلمي بعبارات المودة والشكر. وعاد حلمي إلى مقعده وهو يتثاءب وينظر بدهشة إلى صاحبنا الذي لم يجرؤ على طلب بعض النقود كما كان يريد. فأخذ يهذي بكلام متقطع عن أصحاب الحظ المدهش وأصحاب الحظ التعس الذين يتركون أولادهم بغير عشاء. وأنه لم يأكل الليلة لأن أولاده ليس عندهم طعام بالمرة وبعضهم كان يبكي ويطلب قطعة من الخبز.

وعاود حلمي تثاؤبه المتواصل وقال بصراحة:

– والله يا عتمان اليوم آخر الشهر وآخر السنة ومعي خمسون قرشاً خذ نصفها

وأنا نصفها.

وسكت عتمان وهو يتمتم بألفاظ غير واضحة فاعتقد صاحبه أنه استصغر المبلغ، فقال:

– اسمع يا عتمان خذ الخمسين قرشاً وأنا أتصرف باكر

ثم هرول إلى الغرفة الثانية ليحضرها له، ولكنه سمعه يرد الباب وراءه وينصرف مسرعاً فوقف ينظر إليه في دهشة وهو يصيح بصوت عال:

– والله ما عندي غيرها يا ناس؟!!

وكانت الليلة شديدة البرد فسار صاحبنا محمود عتمان وهو يرتجف وأسنانه تصطك وكان يخاطب نفسه بصوت مرتفع وهو يكاد يجرى من شدة البرد "لو كنت قلت لهم الحقيقة أن زوجتي على وشك الوضع الليلة أو باكر كانوا ضحكوا عليّ وسخروا مني – كانوا هزأوني – سبع أولاد!".

وأخذ يفكر في منزله القذر المتهدم في منشية الصدر فسرى في جسده تيار بارد وصل إلى عظامه، وتخيل أنه يدخل غرفة زوجته المظلمة فيجدها طريحة على السرير العتيق ذي القوائم الأربع الرفيعة السوداء وعليها ذلك اللحاف القذر الملطخ بالبقع وقد تناثر القطن من خروقه. كيف يتكلم وماذا يقول لها وماذا يفعل. وأولاده الستة هل يجدهم قد ناموا فيستريح منهم؟

وماذا كان يقول له صديقه حلمي؟ إنه لا يذكر سوى أنه طلب منه مساعدة مالية، ثم رأى نفسه يسير في الظلام والبرد القاتل وبينه وبين منزله مسافة طويلة من سراي القبة إلى منشية الصدر. وسيقسم لها أنه لم يأكل سوى كسرة من الخبز وقطعة صغيرة جداً من الجبن. ولكنه شرب ثلاثة أقداح من النبيذ القوي.

وتنبه لنفسه فوجد أنه قد كف عن السير ووقف يحدث نفسه وفي رأسه ألم شديد وشعر كأن عموداً من الحديد يدور بسرعة شديدة فيخرق رأسه من الصدغ الأيمن إلى

الصدغ الأيسر ثم يعود فيمر من الأيسر إلى الأيمن..

لو يحضر لزوجته وأولاده بعض الطعام، ويشتري بعض الأغطية وهو يراهم ينامون كل ليلة متلاصقين طلباً للدفء وأسنانهم تصطك برداً. وأمه العجوز المسكينة التي لا تستطيع الخروج من هذا الكهف بثيابها الممزقة، والبنت الكبيرة.. تكاد تكون عارية وعندها سعال يقطع صدرها...

ولم يكن يفكر في كل هذا تفكيراً عادياً بل كان يراه صوراً تتزاحم ويدفع بعضها بعضاً بغير نظام ولا وضوح. لماذا لا يجد هو أيضاً في الطريق محفظة بها بضعة جنيهات، خمسة مثلاً؟ أو عشرة جنيهات مصرية، هذا جائز جداً وحدث مئات المرات.

وهذه الفكرة نفسها تراوده منذ سنين طويلة، والتهب رأسه برغم البرد الشديد كأن به ناراً موقدة واتكأ على الحاجز الحديدي الذي يفصله عن قضبان السكة الحديدية وهو يقول:

"جائز جداً.. بل لا بد أن أجد محفظة ضخمة محشوة بالأوراق المالية"

وأغمض عينيه وقد أخذت هذه الصورة تضطرب في رأسه كأنها ألسنة من النار المتأججة، فتخيل أنه وجد محفظة كبيرة ثقيلة بها أوراق من فئة الجنيه وأوراق يانصيب رابحة، وأنه سيسكن منزلاً جميلاً به مائدة عليها لحم وفواكه ودجاجة كبيرة ويستطيع أن يأكل كما نصح له الطبيب: اللحم والفواكه والدجاج والمرق والجبن. وتخيل في صور من لهيب الحمى أن أولاده وزوجته ووالدته قد تغطي كل منها بغطاء من الصوف الثقيل. فأمسك بالحاجز الحديدي (الدرابزين) بكلتا يديه وهو يقول لنفسه هامساً (أقسم برب العزة أنني سأجد هذه المحفظة!... المحفظة!... المحفظة!...!)

ثم هدأت ثورته ووقف مطرقاً صامتاً وهو كما هو معتضد بالحاجز الحديدي. وكفّ عقله عن التخيل وكف لسانه عن الكلام. ومضى عليه ساعة طويلة وهو في موقفه ثم سار بهدوء في طريقه وهو لا يفكر بشيء، بل ينظر إلى الأرض وقد امتلأت نفسه بثقة كاسحة لا تتزعزع وفكرة واحدة تملكت كل عقله وشعوره وكيانه ولم تترك مكاناً لغيرها:

المحفظة– المحفظة– المحفظة!!

سيجد محفظة ثقيلة بها أوراق مالية.. إلى المحفظة.. إلى المحفظة.. وسار في البدء مستمهلاً وهو ينظر إلى ما تحت قدميه ثم زاد به شعور غريب كالإلهام بأنه سيجد المحفظة حتماً فقال:

"هنا!! حتماً لا بد أن أجدها.. في هذه اللحظة"

وأسرع في مشيته وهو يفحص الأرض بثقة عجيبة (والإيمان يصنع العجائب)، وكان يتعثر في أكوام القمامة والمتروكات القذرة والصفائح القديمة فيقف ثانية وعيناه مثبتتان في الأرض. واقشعر بدنه فجأة وقف شعر رأسه، فقد رأى أمامه محفظة عتيقة سوداء منتفخة..

ولم يكن هذا خيال سكران أو وهم مريض محموم فإنه انحنى عليها فرآها محفظة حقيقية كبيرة فاختطفها بسرعة البرق وأسرع يعدو قبل أن يعترضه أحد أو يراه أحد، وكان الشوط طويلاً وشاقاً لضعفه واضطرابه فاشتد احتقان رأسه وتلاحقت أنفاسه وصار لها خرير وحشرجة، وجف حلقه وشعر بوخز حاد في جانبه الأيسر يشيع في صدره وذراعه.. وأخيراً وصل إلى الزقاق الذي يقيم فيه في منشية الصدر، وفرح فرحاً شديداً حينما ملأت أنفه روائح القمامة والأوحال المنتنة التي يعرفها فهذا منزله وهذا بابه، فدقه دقاً عنيفاً، وبادرت زوجته تفتح له وهي ملهوفة وإلى جوارها أمه فدخل المنزل عدواً وارتمى على كرسي محطم وهو يلهث حتى يكاد صدره ينشق وهما تتأملان بفزع وذعر، شعره المشعث، وقد ضاع طربوشه وهو لا يدري، وثيابه الملطخة، والبريق المخيف الذي ينبعث من عينيه. ونطق بعد لحظة كانت عندهما دهراً طويلاً.

"المحفظة! ها هي! ألف جنيه!– ألفين جنيه! عشرين ألف جنيه!! كل شيء تريدونه!! نشتري كل شيء في العالم – مائة ألف جنيه– خمسمائة ألف ألف!!".

أصبح محمود عتمان من كبار الأغنياء، بل الواقع أنه أصبح أغنى رجل في منشية الصدر، فقد صار عنده ستة آلاف سيارة خاصة به وألف منزل بها أفخر الأثاث والرياش

وفيها من اللحوم والدجاج والأمراق الدسمة وأنواع الجبن والفواكه ما يكفي لإطعام جيوش كاملة، ومزرعة مساحتها ثلاثة ملايين من الأفدنة...

وكان يعطي زملاءه في المستشفى (شيكات) بملايين الجنيهات ويأمرهم أن يشتروا بها (بطاطين) من الصوف لأولادهم وزوجاتهم، وكان هادئاً مسالماً لا يثيره إلا شيء واحد وإذ ذاك يحاول أن يحطم ما تصل إليه يده.. يثيره أن يتجرأ أحد الناس ويحاول أن يلمس المحفظة التي وجدها، وهي محفظة بالية وجدوا بها حينما فتشوها بعض أوراق قديمة وورقة يانصيب وأوراق شخصية وخطابات باسم محمود عتمان، لأنها في الواقع محفظته هو الأصلية، سقطت منه في تلك الليلة ثم عاد فالتقطها.

وهكذا حينما زاد ضغط الإيحاء على عقله الباطن نفذ ما أمر به! فجعله يعتقد أنه غني واسع الثراء!! واستراح في مستشفى الأمراض العقلية من بؤسه وشقائه، لأنه استراح من عقله الواعي!!

عجائب القوة الفكرية

حجر الفلاسفة

وهي دراسة لقوة التأثير المغناطيسي: كيف تحدث؟ وكيف تزول؟ وإلى أي حد تصل إمكانياتها؟ وذلك كله في سبيل الحصول على حجر الفلاسفة أو إكسير الشباب.

***

في غرفة مظلمة، بمنزل مظلم، في زقاق مظلم ضيق ملتو بأطراف القاهرة جلس على أريكة (كنبة) عتيقة رجل معمر له لحية بيضاء مشعثة ووجه عليه ملايين الخطوط والغضون، وجلس أمامه على كرسي خشبي شاب أصفر الوجه هزيل يلبس بذلة بالية ممزقة.

وكان كل منهما ينظر إلى الآخر.

كان الرجل المعمر – الشيخ الطنطاوي – يضع حوله عن يمين وعن يسار أكواماً من الكتب العتيقة الصفراء، وكذلك كانت الكتب صفوفاً على الأرض في أركان الغرفة وعلى رف خشبي مثبت في الجدار، وقد وضع على هذا الرف نفسه بعيداً عن الكتب مصباح كبير يضاء بالبترول. وكان الشاب ينظر نظرات تائهة حائرة خالية تقريباً من أي معنى غير أنك لو تأملته تأملاً شديداً وفحصت عينيه ونظرت إلى زاويتي فمه المتهدلتين واسترخاء جفونه وخفوت صوته وجفاف شفتيه وحلقه لعلمت أن نظراته نظرات توسل واستجداء، وأنه جائع.

أما الشيخ فلم يكن يركز نظراته على الشاب بل كان ينظر (خلال الشاب) إلى ما وراءه أي أن نظراته كانت تخترقه وتمر به مراً وتترامى إلى عالم بعيد مجهول بغير أن يعترضها معترض. حتى الجدران نفسها لم تكن تصدها، وكان الشيخ ثابت النظرة، أما الشاب فكان قلقاً مضطرباً ينظر إلى الشيخ ثم يدير عينيه في أنحاء الغرفة وهو مندهش مأخوذ بما

يراه ولكن في ضعف ووهن كأنه مريض علت به الحمى فتراءت له الرؤى وهو يهذي، فكان يقلب النظر في رءوس الهداهد المحنطة وحيوان السقنقور معلقاً من ذيله، وقد جفف بالملح وحشيت به أحشاؤه وجلود الثعابين موضوعة فوق كومة من الكتب وبجوارها ظهر سلحفاة.

والخزانة الخشبية الكالحة وقد وضع على سقفها مدق نحاسي صغير له يد من نحاس (هون) وعشرات من البرطمانات بها أنواع من العطارة، وقد كتبت أسماؤها عليها بخط كبير كان يستطيع قراءته مع ضعف النور لقربه منه. فقرأ (تين الفيل) (المرزنجوش) (هند شعيري) ومثل ذلك، وفي زاوية الغرفة البعيدة ثلاث دفايات من الفخار متفاوتة الأحجام وموقد فحم من الطراز القديم (منقد).

وتكلم الشيخ فقال بصوت رائق صاف لا يتناسب مطلقاً مع سنه وهيئته.

– هل استرحت من السلم؟.. سلمنا عال نوعاً.. هل أطلب لك قهوة؟.

فقال بسرعة:

– لا.. لا.. لا لزوم لها.

وكان في صوته فزع ورعب وعاد فقال بلهجة أثبت من الأولى، ويبدو فيها التصميم.

– لن أشرب قهوة مطلقاً.. لن أشرب أي شيء مطلقاً.

وشعر بدوار وهو يفكر في أنواع السموم المجهولة، وينظر إلى البرطمانات وقد طافت برأسه فكرة غامضة عن معلومات قديمة عن السحرة الذين يستعملون الجماجم والقلوب البشرية في السحر، فشعر بارتعاد واضح في ركبتيه، وقال بصوت كالبكاء كأنه يخاطب نفسه: "أريد الخروج والنزول".. وتصادف وهو يتكلم أن رفع رأسه قليلاً فشاهد تمساحاً معلقاً في السقف. فتشجع وقويت رغبته في الهرب فوقف قائلاً بصوت مرتفع.

– أريد الانصراف في الحال.. السلام عليكم.

ثم عاوده الطمع والأمل فتمهل، وقال الشيخ كأنه لم يسمعه.

– هل أنت صاحب عمل؟

– كلا مضى على نحو سنة وأنا أدور في الشوارع باحثاً عن أي عمل، أي عمل، فلم أجد.

– أنا أعرف هذا.. هذا ما عرفته في الحال وأنا في الواقع لا أحتاج لسؤال وأنا أعرض عليك شغلة بسيطة تنقضي في ساعة واحدة.. ساعة واحدة، وأعطيك...

وتباطأ الشيخ كأنه يفكر وهو لا يريد إلا إثارة لهفته وتشوفه

– أعطيك عشرين جنيهاً

– عشرين جنيهاً؟؟

– نعم.. عشرين جنيهاً مصرياً.

وسكت الشاب وقد أخذ برغمه يتخيلها في يده: عشرين ورقة، وجعله التخيل يقطب وجهه وتزوغ عيناه، ثم تنبه إلى ما في ذلك من الغرابة، فقال:

– لا بد أنها مسألة خطيرة لعل فيها مخاطرة أو مسئولية.

وسكت لحظة ثم استأنف بانكسار

– وأنا مسكين وغلبان

فأجاب الشيخ بهدوء وثقة تامة:

– لا.. أبداً.. أبداً.. بالمرة

وأخذ يلف لفافة تبغ بتأن وهدوء قائلاً:

– المسألة أخذ شيء معين من شخص معين والأصل أنه سرق هذا الشيء ونحن نريد أخذه منه، هذا كل ما في الأمر وتأكد أني أجد ألف شخص يرحبون بالقيام بهذا

العمل وسأدفع لك عشرين جنيهاً وهي بالنسبة لي بسيطة جداً فأنا يمكنني أن أجد النقود وقتما أريدها، وفي القريب العاجل سيصبح الذهب عندي أكثر من التراب. وكل ما في الأمر أنني عندما نظرت في وجهك علمت أنه يمكنني أن أثق فيك. أثق فيك إن تمسك لسانك عن ذكر أي شيء أما العمل نفسه فسهل فالمكافأة من أجل الكتمان فقط.

وأسند الشيخ ظهره إلى المتكأ وثبت نظره في عيني الشاب الذي حاول أن يجيب أو يتحرك فتراخت أوصاله وشعر كأنه مغمور في مادة دافئة غير منظورة وغابت عن عينيه الرؤية فكان يسمع صوت الشيخ كأنه صادر من مكان بعيد وشعر بنفسه يردد كلمات الشيخ في نفسه كلمة كلمة، والشيخ يقول:

– هذا الرجل استحوذ على شيء أثري ثمين جداً له قوة سحرية هائلة وأريد أخذه منه ولا خطر عليك بالمرة.

فردد الشاب في نفسه وهو في شبه غيبوبة "ولا خطر عليك بالمرة". وشعر بارتياح يحل محل القلق والخوف، واستمر الشيخ يتكلم قائلاً:

– والمسألة إني أريد شاباً كتوماً سريع الحركة.

فأخذ يقول متابعاً "شاباً كتوماً سريع الحركة".

– لقد قلت عشرين جنيهاً وهو مبلغ تافه إذا عرفت أن هذا الشيء السحري يساوي ملايين الجنيهات بل لا يمكن تقدير قيمته لأن الأعمال السحرية الجبارة التي تعمل بواسطته تنجح نجاحاً تاماً ففيه كشف الستار عن سر الأسرار.

وراح الشيخ يتكلم وقد زاد الدوار بالشاب وأخذ الصوت يضعف تدريجياً في أذنيه وتراجعت المرئيات كلها في عينيه حتى لم يعد يرى شيئاً، ومرت به لحظات في هذه الحال ثم أخذ يتنبه ويعود إلى نفسه ثانية كأنه يفيق من حلم، وراح ينظر إلى الشيخ ويتأمله بإمعان فرآه ينفث دخاناً كثيفاً من اللفافة التي لفها بنفسه. وأدرك لأول مرة أنها ليست لفافة تبغ لشدة رائحتها وكبر حجمها، ومع اعتقاده أنها نوع من البخور المخدر أو نوع

من السحر فإنه لم يعد يشعر بخوف بل بهدوء واستسلام.

وكان قد مضت عليه ساعات طويلة وهو جائع فقال فجأة باندفاع غريب:

– أنا جائع جداً لا أستطيع أن أفهم شيئاً، عندي دوار شديد أرجوك إذا كان عندك...

ثم سكت وهو يتعجب من غرابة وقع صوته هو في أذنيه كأنه كان يسمع شخصاً آخر يتكلم.. كان يريد أن يطلب بضعة قروش ليخرج ويأكل ثم تنبه لنفسه وهو مندهش من جرأته وخروجه عن الموضوع وتهجمه على الشيخ باعتراض حديثه، ولكن الشيخ بادره قائلاً:

– لا بأس.. لا بأس.. أنا سأذهب لأتوضأ وأصلي وأتركك لتأكل هنا عندي وأنت مثل أولاد أولادي.

وفتح الخزانة العتيقة فأخرج منها رغيفين وقطعة من الجبن الأبيض، وقطعة من اللحم الطري، وجامل الشاب ببضع كلمات وخرج إلى غرفة أخرى. ولما عاد وجده مطمئناً وقد زال عنه الدوار والخوف، فقال:

– المسألة بسيطة وسأصارحك بكل شيء وأنت كما يبدو لي شاب طيب القلب حسن النية، وأنا رجل أشرفت على السبعين من عمري. فإن نجحت في هذه العملية – وستنجح إن شاء الله – جعلتك تلميذي لئلا أنتقل من هذا العالم وتضيع أسراري وعلومي، وهذا ما لا يرضاه الله بل أنه يعتبر نوعاً من الكفر بنعمته تعالى عليّ.

– في أي شيء يا سيدنا الشيخ؟!

– سأحكي لك كل شيء وأنا أشعر بارتياح لوجودك. تعال هنا بجانبي على (الكنبة) لتستريح في جلستك ولكي لا أضطر لرفع صوتي

وانتابت الشيخ نوبة غريبة من الائتلاف بالفتى والائتناس به، وانحلت عقدة لسانه فانطلق يتحدث عن نفسه:

– اعلم يا بني أنني بدأت حياتي في الريف البعيد المنقطع وكان والدي رحمه الله على علم ببعض الأسرار الخفية وكتابة الأحجبة السحرية والاتصال ببعض ملوك الجان إلى جوار مهنته الأصلية وهي العطارة، فكان ميسور الحال حتى كان منزلنا يزدحم بطلاب الحاجات، فكانت الغرفة المخصصة للحريم تكتظ بهن جالسات على الحصير والوسائد وهن يثرثرن ويتكلمن جميعاً في وقت واحد، ومنهن من يطلبن التعاويذ والرقي أو الأحجبة الجالبة للخير أو الأدوية والمركبات العطارية التي تساعد على الحمل أو البخور الواقي من العين الشريرة وغير ذلك كثير. وكانت (المندرة) أي الغرفة الخارجية المخصصة للرجال تمتلئ بهم كذلك، وقد أخذت عن والدي رحمه الله كثيراً من الأسرار الناجحة والأعمال السحرية العظيمة كالحل والربط، والمحبة والبغض، والجمع والتفريق، والنحس والقبول، والأنكيس والفرنكيس، إلى أن دخلت الأزهر الشريف وأمضيت به ستة أعوام كنت فيها مجنوناً بالعلوم الروحانية أجمع كتبها من كل مكان، ولم يكن أبي يبخل عليّ بالمال فقد كان في سعة من الرزق في ذلك الريف النائي، وتركت الأزهر وعدت إلى قريتي حيث كان أبي قد أصيب بالشلل فتوليت محل العطارة وقد ازدهر واتسع وامتدت أعماله إلى البقالة بالجملة ومبيعات لوازم العمارات مما كان جديداً في القرية، ولكنه وافق استثمار أراض زراعية مجاورة لها، وإنشاء عزب جديدة أي مزارع، ولما توفي والدي رحمة الله عليه كان قد أوقف كل عقاراته عليّ وأخواتي وهن ثلاث سيدات، وهذه العقارات بيوت في طنطا ودكاكين، ودارت الأيام فتوفيت زوجتي وليس لي إلا ابنة متزوجة تزورني كلما سمحت لها الظروف. فأنا والحمد لله من إيراد الوقف في خير، لأنه بوفاة أخواتي السيدات الثلاث – وكلهن أكبر مني سناً – عاد إليّ كل إيراد الوقف بنسبة ثلاثة أرباع لي والربع للضريح.

– أي ضريح؟!

– ضريح السيد البدوي وهو الذي نستمد منه الأسرار أنا ووالدي رحمة الله عليه.. وأنا لا اكتفي بذلك بل أزكي عن نفسي بما يرضي الله، ومازلت بصحة جيدة وأصلي الفجر حاضراً بالمسجد الحسيني.

– ولكن كيف يمكني القيام بهذه الشغلة بدون خطر، يجوز أن يراني الناس وطبعاً الرجل نفسه سيقاومني.

– كلا لن يعترضك أحد، وقوتي ستحميك منه ومن الناس ومن أي أذى.. إن عندي قوة تحميك وتخلصك من كل خطر.

– قوة؟ أي قوة؟ ربما بعض أتباعك ومريديك؟

فابتسم الشيخ، وشعر بلذة كان قد حرم نفسه منها، لذة الفخر بعلومه السحرية الغامضة وقوته الروحانية، والتبسط في الحديث عنها.

– اعلم يا بني أن قوة الإنسان العادي لا تزيد عن قوة البعوضة بالنسبة للقوة الخفية– القوة الروحانية. إن عقلك مهما فكر وابتدع لا يصل إلى عشر معشار ما تصل إليه الروح في قوتها المعجزة الجبارة وهذا معنى قول الرئيس الأكبر ابن سينا قدس الله سره:

والعقـل يـذبل في السـناء وفي السـنى والـروح تزهـر في الخـراب البلقـع

والـدود يرتـع في العيـون وفي الحشـا والسحب تسبح في السماء الأنصع

وهو يقصد الجسم والروح على اعتبار أنهما متلازمان في حياة الجسد

فتجاوز الفتى عن هذه الفلسفة قائلاً:

– لماذا إذن لا تحضر هذا الشيء بقوتك إلى هنا؟ ولو أني مستعد طبعاً للعمل حسب أمرك إذا كنت تحميني.

– إن الله جعل لكل شيء سبباً، ولا يمكنني استعمال القوة بغير واسطة والله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وسأريك الآن في الحال كل شيء وبرغم إنك قليل التصديق ولكن ذلك لا يهم وستؤمن حالاً بالقوى الخفية.

– وماذا عليّ أن أعمل الآن؟

– لا شيء.. اجلس ساكناً.

وصفق الشيخ وأمر خادمه أن يجهز المبخرة ويضعها في الغرفة الأخرى حتى تصفو نارها، وأحضر طبقاً أي صفحة طعام من الصيني الأبيض وضع في منتصفه نقطة كبيرة من الحبر الأسود وجعله أمام عيني الفتى وصفق ثانية، وأمر بإحضار المبخرة وجعلها تحت متناوله. وأمر الفتى أن يحدق في نقطة الحبر، وأخذ يرمي في المبخرة مواد عطارية مختلفة وهو يقرأ بسرعة غريبة أشياء غير مفهومة والدخان الأسود الكثيف يتصاعد ثقيلاً بطيئاً يكاد يكتم الأنفاس. وشعر الفتى كأن جسمه يخف ويتلاشى وأنه أصبح شيئاً خفيفاً يسبح بالفعل في طبقات السماء الواسعة، وشعر بابتهاج عظيم وفرحة ثائرة وخيل إليه أنه يصيح ويغني بصوت مرتفع طرباً وسروراً، إلى أن سمع الشيخ يكلمه بصوت ثابت آمر.

– أنت الآن محمي بالقوى الروحانية الهائلة، ولا يمكن لأي شيء أن يؤذيك حتى ولا السلاح نفسه، فإنك لن تشعر به إطلاقاً ولا يسيل منك نقطة دم.

ثم أخذ الدخان يخف كثافة ويتسرب من الطاقة التي فتحها الشيخ وبدأ الفتى يشعر كأنه خلق من جديد قوياً مطمئناً مع شعور آخر عجيب وهو أنه محاط بقوة هائلة تحميه كأنها طبقة من الحديد أو من مادة سحرية غير منظورة، وأحس نشاطاً غريباً ورغبة في العمل والكفاح والمخاطرات والتهجم. وقال الشيخ:

– أنت الآن كما قلت لك في مأمن من أي أذى وسترى ذلك بنفسك

وقام بثقة عجيبة فأحضر إبرة كبيرة الحجم ومسحها بالكحول الأبيض من زجاجة عده وأخذ يد الفتى فخبأها تحت عباءته لحظة ثم كشف عنها، ونظر الفتى إليها بدهشة فقد كانت الإبرة تخترق لحم يده بجوار الإبهام وهو لا يشعر بأي ألم، ثم سحب الشيخ الإبرة الغليظة فلم يسل من مكانها نقطة دم، ثم عاد فأخذ جمرة متوهجة وخبأ كف الشاب وراء عباءته ثم كشفها فإذا بالجمرة في كف الفتى تتسعر وهو لا يشعر بها. فقال الشيخ بتمهل ووضوح:

– الآن وقد ضيعنا وقتاً كثيراً فلندخل في الموضوع: باكر الجمعة عند منتصف

الليل تقريباً سيخرج من معبد اليهود الصغير المسمى معبد موسى بن ميمون بحارة اليهود رجل ضئيل القامة أحدب الظهر بشكل ظاهر، وهو يحمل ربطة كبيرة فتهجم عليه، وتأخذها منه والأفضل أن يكون ذلك قبل أن يخرج من حدود حارة اليهود ثم تحضرها لي هنا.

– آخذها منه بالقوة؟

– هو تقريباً لن يقاوم لأنه متقدم جداً في السن وكاهن متصوف يلتزم الحمية والصيام، فلا يأكل اللحم ولا اللبن ولا البيض ولا السمك. فإذا خطفتها منه فإنه لن يدركك ولو فرض أنه عاجلك بضربة أو طعنة فلن تؤثر فيك كما رأيت.

– لكن هذه مسألة خطيرة وفيها صعوبات كثيرة.

فنظر الشيخ في عينيه طويلاً وقال بصوت غريب كأنه صادر عن بعد.

– هذه مسألة سهلة جداً وستقوم بعملها حتماً...

– ولكن إذا كانت هذه الربطة بها نقود أو ذهب، فالمسألة إذن إجرام وسرقة وفيها سجن وقد يكون هو خارجاً من المعبد بمجوهرات وأوان ثمينة.

– أقول لك كل شيء بصراحة ووضوح لأنك الآن لا تستطيع أن تتراجع أو تغير فكرك. المسألة أن هذا المتصوف اليهودي يشتغل بالعلوم الروحانية من خمسين سنة وهو قد أخذ الوعد والقسم بإخراج الكتاب الأكبر من خط يد الحاخام موسى بن ميمون اليهودي الذي كان الله تعالى قد أعطاه أسرار شفاء المرضى وكان الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبي. وهذا الكتاب باللغة العربية والعبرانية، وكان الحاخام إماماً من أئمة البيان العربي في زمنه مع تفوقه في الأسرار الروحانية. وقد وفقه الله ﷻ إلى صنع حجر الفلاسفة فكان يتكلم كل اللغات ويحول المعادن إلى ذهب. أما أنا فقد أنفقت مالاً كثيراً وسنين طويلة حتى عرفت هذا السر.

– حجر؟ حجر إيه؟

"في كتاب (هداية الحائرين)، النسخة الأصلية بخط الإمام أبو عمران موسى بن ميمون طريقة صنعه واسمه حجر الفلاسفة، وهو أيضاً إكسير الشباب وإن شاء الله إذا أحضرت لي هذا الكتاب ستكون تلميذي وأعلمك الأسرار، ولا أبخل عليك بشيء وتكون مساعداً لي، وهذا المتصوف اليهودي وهو من معارفي قد دفع لحارس المعبد مبلغاً كبيراً جداً واتفق معه على الخروج بالكتاب في منتصف ليلة الجمعة – غداً – حتى لا يراه أحد اليهود لأن ذلك يوافق عندهم يوم الصيام وملازمة المنازل، وهو عيد يسمى باللغة العبرانية (يوم كيبور) ومعناه يوم التكفير أو عيد الغفران لأنهم يعتقدون أن الله في هذا اليوم يقرر مصير كل منهم فيصومون ٢٤ ساعة كاملة ويراجعون ماضي حياتهم وأعمالهم من خير أو شر. ويلازمون المعبد الكبير المسمى كنيس اليهود للصلاة والابتهال إلى الله تعالى أن يغفر لهم ثم يلازمون منازلهم، ففي هذه الليلة بالذات يكون اليهود في معبد آخر بعيد عن معبد موسى بن ميمون لأن هذا الأخير معبد أثري تذكاري لا تقام به الشعائر، وإنما يدخلونه للزيارة ولنذر النذور وتلاوة الأدعية لشفاء المرضى وللتبرك بآثار الإمام الطبيب موسى بن ميمون حيث يحفظونها في عيادته الطبية كما هي، وتسمى هذه الطقوس في لغتهم العبرانية (راب موشيه) أما المتصوف اليهودي الذي سيخرج بالكتاب في منتصف الليل فهو طبعاً أدرى بسنوح هذه الفرصة وبالوقت الأنسب، وقد كان يحاول رشوة الحارس العجوز وإغراءه منذ ثلاثين سنة فلم يفلح حتى مات الحارس العجوز، وتسلم ابنه مكانه حسب تقاليدهم فرضخ للإغراء، وسترى اليهودي وهو يرتعد فزعاً وإذا رأوه قتلوه ضرباً وركلاً لأنه لا يجوز عندهم إخراج أي شيء من كنوز المعابد المقدسة، وهو يعتزم نسخ الكتاب وإعادته إلى المعبد ثانية، وقد دفع مبلغاً كبيراً للحارس ولزميله فراش المعبد وهو من ذوي قرابته، وهذا الفراش هو الذي اشتريته أنا فأخبرني بكل شيء وقال إن حارس المعبد قد رفض أن يسمح لأي رجل أن يمد يده إلى كنوز المعبد سوى هذا اليهودي العجوز لأنه كاهن، أما الحارس نفسه فلا يمكن أن يمس الذخائر المقدسة وإلا حلت عليه اللعنة الأزلية. وهو قد وثق بوعد اليهودي بإرجاع الكتاب إلى مكانه، وإذا خطفته منه داخل حارة اليهود فهو لن يتجاسر على الصياح أو الاستغاثة لئلا يلفت

النظر إليه، وكذلك لا يمكنه أن يخفي الكتاب في ثيابه لأنه مخطوط كبير الحجم فسيكون من السهل خطفه وهو يحمله على كتفه أو بين يديه، وقد يحمل معه أشياء أخرى للتعمية ونحن أولى بهذا الكتاب الثمين. والآن خذ..."

وأدخل يده في أعماق ثيابه وأخرج رزمة من الأوراق المالية فأعطاه إياها.

– هذه عشرون جنيهاً، أظن أنك يتيم ولا تشرب الخمر.

– نعم، إنني يتيم ولا أطيق الخمر مطلقاً فقد كان والدي سكيراً لا يفيق أبداً ومات مخموراً وأنا لا أتحمل رائحة الخمر لأنها كانت تفوح دائماً منه مع رائحة القيء وأوحال الطريق.

– حسناً إذن اذهب واسترح ولا تفرط في الطعام.

فضحك الشاب ضحكاً يشبه التشنج لفرط انفعاله وفرحته وقال كأنه يمزح:

– ولكن كيف تأتمني على المال وعلى الكتاب، افرض أنني بعته ثانية لليهود أو أفرض أنني أخطأت فخطفت منه أشياء أخرى يحملها للتعمية مثل (مقطف بقسماط) أو بعض قطع من القماش أو (فواتير) قماش قديمة، ومثل ذلك كما يفعل فقراء اليهود لأكل عيشهم.

– لا يمكنك أن تخالف إرادتي. أنت الآن مرتبط بي اذهب ولا تخف مطلقاً، ولن يحدث غلط بإذن الله وسيتم كل شيء حسب المرام، واسمع نصيحة أخيرة مني إذا خالفتها ضعفت الحماية حولك ونقصت قوة الوقاية وتعرضت للأخطار: لا تأكل اللحم مطلقاً إلى أن تتم مهمتك. توكل على الله...

وخرج الشاب ولم يدرك ولم يلاحظ أنه في شبه غيبوبة أو دوار، وأنه عاجز عن التفكير والتركيز العقلي العادي بل كان يشعر بدفء وسرور غامر لذيذ، وكان مستسلماً لذلك كما يستسلم الإنسان للذة يراها في الحلم بغير أي تقدير آخر – بطبيعة الحال – وهو في فراشه.

ودقت الساعة الثانية عشرة ليلاً ثم مضت ساعة بعد منتصف الليل فخلت حارة اليهود من المارة وفتح الباب الجانبي الصغير لمعبد موسى بن ميمون بهدوء بغير أن يصدر منه أي صوت وأطلت منه رأس شبح بأناة وحذر ثم مرق شيخ ضئيل الجسم فسار مسرعاً بجوار الجدار وهو يتوكأ على عصاه ولا يكاد يظهر للعين في ثيابه السوداء وهو يلبس منظاراً سميكاً صنع إطاره من المعدن الأبيض الرخيص ويحيط عنقه بوشاح (كوفيه) يكاد يخفي وجهه. وسمع فجأة وقع خطوات خفيفة سريعة وراءه فلم يكد يتلفت حتى انقض عليه صاحبنا كأنه ممثل يقوم بدور محفوظ فأمسك بمعصم العجوز بيسراه واختطف الرزمة التي كان يحملها، تم ذلك في بضع ثوان وجرى الشاب كالغزال الشارد وهو يتمتم في نفسه بفرحة عاصفة.

– انتهى! انتهى كل شيء! الطيران!! الطيران!

ولم يسر بضع خطوات حتى كان العجوز قد أدركه بخفة عجيبة، وفاجأه بأن قبض على ساقه فتعرقل وسقط على الأرض وارتمى عليه العجوز، ولكنه تخلص منه بحركة سريعة كثيراً ما يعملها صبيان الأزقة والحارات في ألعابهم وهي أنه تدحرج بسرعة غريبة وبغير أي تردد فكان جسمه يدور كالأسطوانة ظهراً لبطن في التراب والأوحال أربع أو خمس دورات حتى تخلص من عرقلة خصمه وقفز بخفة الشباب وعدا واختفى من اليهودي بسهولة، ولكنه لاحظ أن اليهودي وهو ملقى على الأرض مد عصاه في اللحظة الأخيرة فطعنه بها في ظهره متشفياً كأنه ينتقم لنفسه لما رآه أفلت منه، وكان الشاب وهو يجري مختفياً في ظلال الأزقة يتعجب من هذه الحركة لأنه شعر كأن نصلاً بارداً دخل في لحم ظهره.

ولما ابتعد عن الخطر وهدأت أعصابه أدرك أنه لمح بريقاً ينطلق من سن العصا، وكان ذكياً متمرساً بالحياة عاش معظم حياته شريداً مختلطاً بالطبقات السفلى ففهم فوراً أن هذه العصا من الأسلحة التي يحملها كثير من ضعاف الناس خشية الاعتداء عليهم وهي في نفس الوقت عصا عادية لا يمكن إدراك سرها، وفيها أطواق من زراير معدنية

للزينة والزخرفة يمكن الضغط عليها بسهولة والعصا في قبضة اليد فيندفع منها (شيش) مدبب، وهو نصل رفيع حاد يدفعه إلى الأمام ضاغط عظيم القوة (أي سوستة أو زنبلك) وكثيراً ما يحمل مثلها التجار المتجولون وتجار المصوغات الذين يخرجون إلى أسواق الأرياف. وسار الفتى بارتياح وهو يحمد الله على نجاحه ولا يشعر بأي ألم ولا خوف، وفي الصباح سلم الشيخ المخطوط فكاد يجن فرحاً به وأخرج خمسة جنيهات أخرى وأعطاها للفتى.

ومضى يومان والغلام ينفق بسخاء ويعطي أخته وهي أرملة فقيرة كل ما تحتاج إليه، وقد أحضر الحلوى (الحمصية والسمسمية) لبنت أخته وكانوا يسكنون جميعاً غرفتين في قبو يملؤهما التراب، واشترى موقداً بالبترول (وابور جاز) وإناءين للطبخ من الألومنيوم واشترى لنفسه معطفاً كأنه جديد، ولكنه مع فرحته كان متوعكاً متعباً ويشعر بارتفاع حرارته وتؤلمه كل خطوة يخطوها فيشعر كأن لساناً من النار يسرح في ظهره فأرسل البنت الصغيرة لتشتري له شيئاً من الشاي والسكر، ورقد على الفراش وهو يحكي لأخته حكايات وهمية عن أرباحه وأعماله الجديدة وأنه سيفتح محلاً لبيع الدخان والسجائر على شكل (فترينة) بجوار القهوة وطبعاً لا بد له من حذاء جديد وكوفيه وشراب فتقول له: "وماله؟ مادام بتكسب اشتري، بس هات لنا طاقة بفتة"

واسترسل في أحلامه، وقد غابت الشمس وانتشر الظلام وأخته تسمع له ولا تبدي أية ملاحظة فقد كانت واهنة القوى مهلهلة الثياب وأخذت تنظف المصباح وتملأه بالبترول وهو يقول

– من يدري؟! من يعلم؟! قد أشتغل في القهوة بدل محمود لأنه وجد عملاً في محل البقالة، على كل حال سأفتح (فترينة) للسجاير على باب القهوة وأظهر للمعلم أني مبسوط (أي غني) وأشرب عنده الشاي كل يوم مرة في الصباح ومرة بعد الظهر، أنا أشعر أن باب السعد مفتوح أمامي وأن النحس انتهى وانتهت أيامه.. وعندي غير هذا كله شغلة ثانية يمكن أحسن وأحسن

وسكت قليلاً وهو يفكر في الشيخ الطنطاوي الذي وعده أن يعلمه فنون السحر والأعمال الروحانية وكيف يحترمه الجيران ويخشاه الناس حتى أنهم يتجنبون الخوض في شئونه وقلما يراه أحد في الطريق إلا ويحييه باحترام وخوف وهو نفسه يراه والشيخ في طريقه إلى المسجد، وهو قريب منهم. وهنا قطع عليه تفكيره دخول بنت أخته وهي تدق الأرض بالقبقاب بسرعة غريبة وتصيح بصوت مرتفع وتختلط عباراتها بعضها ببعض إذ يندفع الكلام من فمها كالسيل:

– أمي.. أمي.. الحقي فيه حريقة كبيرة في بيت الشيخ الطنطاوي، الشيخ الطنطاوي اتحرق جوه الحريقة وبقى فحم، البيت كله والع.. الحقم اجروا.. تعالوا نتفرج.

وأسرعت أمها معها من زقاق لزقاق حتى وصلوا بيت الشيخ الطنطاوي والجموع المحتشدة تتصايح وتضج ضجيجاً عالياً والنار قد أضاءت السماء ولها أزيز مخيف يتخلله قرقعة أخشاب وسقوط جدران وانتشار أتربة تعمي العيون ويهرب أمامها المتفرجون وهم كتلاً متراصة... وعادت الأم وابنتها بعد أن ارتوتا من الفرجة المجانية وشبعتا من الصياح وصرخات التعجب وزعقات الخوف والرعب. وتذكرت الابنة أنها لم تعمل الشاي لخالها وهو مريض لا يستطيع مغادرة الفراش، فتركت أمها وركضت ركضاً إلى غرفته. وما أن خطت خطوة واحدة حتى وقفت جامدة مأخوذة ثم صرخت بفزع هائل تستغيث بأمها، وكان الفتى على فراشه شاحب الوجه وقد تدفق الدم الحار من جرح غائر في ظهره وملأ الفراش، وهو يشير إلى الفتاة بضعف ووهن أن تسرع بمناداة أمها.

لقد مات الشيخ وزال تأثيره المغناطيسي على الفتى، تأثيره الذي جعل طعنة اليهودي جافة لا يتدفق منها الدم كل هذه الأيام. مات الشيخ الطنطاوي فزال تأثيره المغناطيسي على الجهاز العصبي السمبثاوي للفتى وتدفق الدم من جرحه..

العاشق والخنزير

وهي قصة تظهر الحقيقة السيكولوجية لعاطفة الحب في طور من أطوارها الطبيعية

***

كان صبري جالساً إلى مكتبه للاستذكار والمراجعة وقد أقفل بابه وانفرد بنفسه، وكان طالباً بكلية الحقوق بالسنة الثانية. وكانت أمه سيدة فاضلة تفنى في خدمة أسرتها. فأمسكت بمزلاج الباب تديره وتحاول فتح الباب وهي تصيح به.

– افتح الباب يا صبري.

فأسرع بفتح الباب، بعد أن فتح أمامه كتاباً ضخماً، فدخلت تحمل صينية عليها طعام منتصف الليل، فقد ألفوا منه في ليالي الصيف أن يسهر للدرس إلى الثانية عشرة أو الساعة الواحدة فكانت والدته تجهز له طعاماً خفيفا سهل الهضم وتضعه له جانباً في غرفته.

وكان يتعشى في الساعة الثامنة مع والديه وأختيه كاميليا وسوسو وأحياناً يتعشى معهم أخوه الأكبر كامل الذي تخرّج من الجامعة من سنتين والتحق بوظيفة، ويدخل صبري غرفته بعد العشاء فوراً للدرس اللهم إلا في بعض الليالي التي يذهب فيها لمقابلة بعض أصدقائه، أو يدعوه أخوه كامل للسينما والعشاء على حسابه. وما أن غادرت والدته الغرفة حتى أسرع بإغلاق الباب بالمفتاح، وبادر إلى النافذة فجلس إليها واعتمد رأسه بين يديه يراقب النافذة المقابلة.

نعم، هي القصة الخالدة! نافذة جارته التي يحبها ويهواها! ولم تكن غرفتها تطل على الطريق بل تطل على شرفة عتيقة مستطيلة لها حواجز من خشب مزخرف.

طـــــال عليهـــــا القـــــدم فهـــــــي بقـــــــاء عــــــــدم

كما قال شوقي في الخمر، ولم يكن هذا الخشب مطلياً بأي نوع من الطلاء، بل العجيب أنه كان خشباً أبيض بلونه الطبيعي ثم حوّله مرور الأعوام إلى لونه الحالي الكالح من الشمس والرطوبة والتراب، ويظهر أن أحد المستأجرين القدامى هو الذي وضع هذه الحواجز المرتفعة لتصد النظر إذا ما جلس هو وأسرته في الشرفة، ولم يجد داعياً لطلائها.

وكانت الحواجز منقوشة بشكل زخارف كبيرة متشابهة بينها دوائر واسعة مفرّغة ليدخل منها الهواء، وكان صبري إذا ما جلس في مرقبه يخرج دفتر ورق لف السجاير فيقطع منه بعض ورقات ينظف بها منظاره بعناية ويحكم وضعه فوق أنفه ثم يحدد البصر خلال دائرة معينة من الدوائر المفتوحة في شرفة جارته، ومن هذه الدائرة بالذات ينفذ بصره إلى نافذة غرفتها، وهي تتركها مفتوحة في أغلب الأوقات.

ومع الأسف الشديد كان "خط النظر" هذا، الذي يبدأ من نافذته ويمر عبر الحارة فالدائرة المعينة في الحاجز فنافذة غرفتها، لا يكشف إلا جانباً صغيراً من مكتبها ولاسيما أن الشرفة كانت مكتظة بصفوف من الأصص – أي أواني الزرع – وبها أنواع كثيرة من الزهور والنباتات. وكثيراً ما كان يفكر وهو مستغرق في تأملاته أنه لو كان حسن الحظ لكان خط النظر يخترق الموانع والحواجز والزهور حتى يصل إلى فراش الحسناء أو على الأقل إلى منطقة معينة أمام مرآة الحسناء، وهي المنطقة التي تقف فيها لتلبس قميص النوم أو تتمم زينتها في الصباح قبل ذهابها إلى الجامعة.

وكثيراً ما كان يحدث زميله العزيز "نادر" عن "خط النظر" أو عن حسن حظه أحياناً إذ كانت تعمل في الصباح بعض التمرينات الرياضية وهي حافية فكان يرى قدمها اليسرى تعلو وتهبط ثم قدمها اليمنى، فاستنتج من ذلك إنها مستلقية على ظهرها على السرير أو على مقعد واطئ مستطيل لتعمل تمريناتها، وأنها تلبس "بيجاما" حمراء كان أحياناً يرى أطرافها.

ومن العجيب أن أحداً لم يخبره أنها طالبة بالجامعة ولم يمض على سكناه في هذا المنزل سوى شهرين ولا يعرف أية معلومات عنها، فمدخل منزلها من حارة أخرى، ولم

يحدث أن تعرف بأحد من أهلها، وكل ما في الأمر أنه كان يرى الأسرة كلها تجلس في هذه الشرفة بعد العشاء لأنها المتنفس الوحيد للمسكن ولم يكن يستطيع أن يميز أشخاصهم في الظلام بل يرى بعض الألوان الصارخة من خلال الثقوب تروح وتغدو، وقد يسمع أصواتاً مؤنثة وضحكات رقيقة تختلط بصوت الذكور الأجش الغليظ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستمتع برؤية شخصها المعبود في هذه الجلسات المسائية في الشرفة. وكان يجلس جلسته المعتادة عند (مرصده) فيساعد بخياله حاسة النظر التي لا تكاد تأتي بمحصول يعتمد عليه.

وقد استنتج من استئثارها بأحسن غرفة في المنزل ومن قيامها بالتمرينات الرياضية وعكوفها على "المذاكرة" في مواسم معينة أنها طالبة جامعية والأغلب أنها "سيدة قومها" وأنه ليس لها أخوة ولا أخوات جامعيون، ولذّ له أن يستنتج أنها سمينة ممتلئة وذلك من عنف التمرينات التي كان يرى إشاراتها والتي قد تمتد أحياناً إلى ساعة كاملة. وهو بطبعه لا يرى جمالاً إلا في السمينات، وهي تمارس هذه التمرينات العنيفة طلباً للرشاقة فلا يعقل أن تكون هزيلة.

وفي هذه الليلة التي أدخلت له فيها والدته طعام نصف الليل كان يفكر وهو في مرصده في المزايا العجيبة التي تجمعت لجارته المعبودة فأخذ ورقة بيضاء وأخذ يكتب:

"شابة صغيرة ذات فكر طليق متحرر من سخافات الوسط والبيئة والأجيال الاحتلالية التي مرت بمصر وتركت آثارها السيكولوجية والتشريعية في النفوس، ولو أراد المشرع أن يجمع القوانين التي تسير بمقتضاها هذه الحسناء لوضع لها قانون التحرر الفكري وقانون التعليم الراقي وقانون الجرأة اللذيذة وأنها سيدة قومها وما يترتب على ذلك من الحقوق..."

وترك القلم وكف عن تسيطر هذيانه وقد طرب لكلمة (الجرأة اللذيذة) وأخذ يستعيد ذكرى الليالي التي رأى فيها النافذة وهي تغلق وتسدل عليها الستارة الحمراء البالية، ثم تفتح بعد بضع دقائق ويرمى منها إلى عرض الطريق عقب السيجارة وأدرك

طبعاً بسرعة البرق أن حسناءه تدخن سراً كما يفعل هو بالضبط وهذا معنى قوله (الجرأة اللذيذة) لأنه كان يدخن سيجارته في نفس الوقت تلذذاً باشتراكهما في ذلك، وكان يطرب لجرأتها ويعدها تجديداً فكرياً وثورة على القرون البالية العتيقة، وفي نفس الوقت تقترن هذه الأفكار في عمق نفسه بصورة فتاة سمينة شابة تضطجع بإهمال على سريرها وهي تدخن فينزلق قميص النوم عن ركبتيها ويبدو الجمال الصارخ...

وكان صبري ينظم الشعر.. فتنفس تنفساً شديداً من قلب جريح مستهام وتناول من درج مكتبه ورقة بها قصيدته (اللامية) التي عكف عليها منذ عشرين يوماً ولم يتمها بعد وهي قصيدة (على مرصد الهوى). فأخذ يرددها ويغنيها وهو يراوح برأسه ليحسن الترجيع والرقابة، من مرصده، في وقت واحد حتى وصل إلى قوله:

وليلة أنس جئتها ولثمتها فأوقظتها وافتر فوها لإقبالي!

فقالت لقد روعتني حين لم تزل تأمل في وجهي كأنك مغتالي!

فقلت ظمئناً يا حبيبي فلم نجد من الري إلا الحسن في عرشه العالي!

فلما تمطت زل عنها قميصها فأظهر ما نهواه من جسمها الغالي

لها ركبتا بكر حصان بخدرها وفي مأبضيها لي غرامي وبلبالي

وأخذ يردد الآبيات وقد طرب لها طرباً شديداً فتناول القلم وشطب عنوان القصيدة وكتب لها عنواناً جديداً (العبقري المهجور) ثم صمت مفكراً متأملاً وهو يخاطب نفسه "لا يوجد الآن شعراء، قد مضى عهد الشعر والأدب حتى طلبة الجامعة لا يكادون يعرفون القراءة وهيهات أن يستطيع أحدهم ولا غيرهم كتابة بيت واحد من مثل هذه القصيدة وبغير أي شك سأكون من مشاهير الشعراء في الشرق".

ثم تذكر محادثة له مع زميله نادر عن الأدب العربي فأخذ يضحك ضحكاً شديداً وهو يقول بصوت مرتفع (ظريف جداً والله ظريف جداً) ويعاود الضحك. فقد كان

يسأل زميله لماذا لا تقرأ الأدب العربي مع أني مغرم به جداً ولا أنقطع عن شراء الكتب الأدبية أو استعارتها من أخي كامل فقال نادر:

– إن الأدب العربي مملّ وسخيف فحينما كنا ندرس تاريخ الأدب العربي في الثانوي لا نجد إلا قولهم (وكان شاعراً سميناً) (وهو يقصد طبعاً قولهم شاعراً فحلاً) ونجد دائماً قولهم فلما اجتمعوا تطارحوا الشعر ثم تقاتلوا مائة عام أو قولهم وله قبر بالكوفة؟!

ومرت الأيام، وأفل نجم صبري وانهالت على رأسه المصائب. أما الكارثة الأولى وهي أخفهم وطأة فقد كسرت خاطره وأيقظته من غروره؛ فقد جاء أخوه كامل ذات يوم ومعه ديوان شعر جديد فتلقفه صبري بشغف وانكب على قراءته وهو "ديوان القلائد" من نظم الشاعر الفحل سليم إلياس من مدينة الزقازيق، وقد كتب أخوه كامل على غلاف الديوان ملحوظة، كعادته في التعليق على الكتب: "هذه والله رقائق شوقي في جزالة المتنبي"

وإذا به يفاجأ بقصيدة من نفس وزن قصيدته وقافيتها ومعناها كأن المؤلف استلهم حالته وكتب عنها فأخذ يقرأ منها:

وهــل تــذكرني ليلــة جئــت طارقــاً	بتختيــل ســرحان وتبكــير مرقــال
ويممــت خــدر الصــيدوية ســاعياً	على أرجل تصطك خيفة إيغالي
وقد زحزحت عنها الغطاء وأبرزت	قواماً بديعاً جل عن حسن تمثال
يجــول بــه مــاء الصــبي فيزيــده	بهــاء لوجــه وامــتلاء لأوصــال
تـرى شـعرها الزنجـي يرمـى فروعـه	على صدرها الفضي رمية إهمال
فغطــت أحيــدى مقلتيهــا بكفهــا	وفتحت الأخرى كنومة عسال
وقالــت أهــذا أنــت قلــت متــيم	كثير التصابي نضو حل وترحال

واستمر إلى آخر القصيدة، وهي مطولة، يرجع النغم ترجيعاً وقد أغنته عن قصيدته العرجاء. واشتد به الوجد وطرب للأبيات طرباً شديداً فأحكم رتاج الباب وتناول جرعة من زجاجة من النبيذ كان يخبئها في غرفته وغمغم بانكسار:

– سليم إلياس؟ يا له من وحش جبار، لا بد لي من حفظ هذه المعلقة عن ظهر قلب

وجلس إلى مكتبه واعتمد رأسه بين يديه واستعاد ما رمته به الأيام من المحن، سقوطه في الامتحان، واختفاء معبودته! وتحطم غروره كشاعر عظيم! ثم امتلأت عيناه بالدموع، وما عتم أن بادر إلى مجموعة شعره المخطوط فأخرج منها قصيدته وهو يقول لنفسه:

– أين اللامية؟ أين اللامية؟

ثم شطب عنوانها (العبقري المهجور)، وكتب مكانه (البائس المهجور) وأخذ يبحث في أعماق أدراج المكتب حتى استخرج لفافة تبغ قد تضعضع قوامها فأخذ يسويها برفق، وجلس إلى مرصده يدخن ويرنو إلى النافذة المهجورة وهو يغني بصوت خفيض يشبه صوت كلب حديث الولادة، أغنية سمعها في الراديو:

ليـــــه بـــــس كنـــــت بتأســـــرني   لمــــا أنــــت ناوي تهجـــــرني؟!

ولما جاء ميعاد السينما لبس ثيابه وأسرع إليها ليرى رواية (ثلاثة أيام في الفردوس) وهو لا يعلم ما تخبئه له الأيام من عذاب الجحيم.

ومرت الأيام.. وكان صبري كثيراً ما يسمع حديثاً بين والديه عن (عريس) وخطوبة وإشارات وكنايات مهمة عن هذا الموضوع، وكان بطبعه قليل الاهتمام بشؤون الأسرة لأنه لا ناقة له فيها ولا جمل كما كان يقول لهم وقد أدرك برغم انصرافه عن هذه الشؤون أن في الجو شيئاً جديداً، ومع هذا لم يوجه لهذا الشيء الجديد التفاتة واحدة،

وهو في نفسه يعتقد أن شقيقه كامل يرغب في الزواج أو أن شقيقته كاميليا قد حازت إعجاب صديقات والدته. وسواء كان المرشح للزواج كامل أو كاميليا فهو سيعرف ذلك في حينه، وكان بطبيعة الحال يخجل أن يسأل شقيقه الأكبر إذا كان يريد أن يتزوج.

ثم حان ذلك الوقت! فقد تحدد لخطوبة شقيقته يوم الخميس القادم، وسأل شقيقه عن العريس فقال إنه شاب مؤدب تخرج من كلية الزراعة والتحق في الحال بوظيفة في مدرسة دمنهور الزراعية. وهم على المائدة، كان يسمع مباحثات أهله عن هذا العريس ومناقشاتهم وهو غائب الذهن في أحلامه وآلامه. ثم رفع رأسه وحملق في توقع ولهفة وقد اشتد وجيب قلبه حتى خاف أن يسمعه الحاضرون. فقد قالت والدته:

– إن الذي دل هذا العريس على كاميليا هم الجيران الذين يسكنون أمامنا

فقال الوالد المتفلسف

– طبعاً السيدات في مجالسهن لا هم لهن غير الثرثرة والحديث عن الجيران، وكل واحد يأخذ حقه طبعاً من مدح أو ذم حسب ضميره.

– الحمد لله قالوا عنا كل خير.. الله يصبحهم بالخير.

– والله أنا عندي فكرة أن أدعوهم للسهرة ليلة الخطوبة هذا واجب.

وهنا شحب وجه صبري وكاد أن ينخلع قلبه من شدة الخفقان، ولا داعي لأن نصف حالته وما انتابه من الأرق والهواجس والآمال حتى جاء الموعد الرهيب، ليلة الجمعة التي تدخل فيها معبودته منزلهم، وكذلك ليس من شأننا أن نصف الضجة والزحام في الشقة الصغيرة والثرثرة والضحك وضجيج المحادثات الفارغة والتحيات المحفوظة، ولكننا نصف منظراً بسيطاً هو الذي يختص ببطل هذه القصة.

يرفع الستار عن غرفة الرجال وفي ركن منها جلس الأستاذ كامل وبجواره شقيقه صبري وأمامهما الأستاذ فهيم الذي يسكن أمامهما في الشقة التي لها شرفة مستطيلة بها مزروعات ولها حاجز خشبي كالح اللون. وإلى جوار الأستاذ فهيم جلس شاب قبيح الهيئة

غليظ الشفتين سمين الوجنتين ولون وجهه يجمع بين الصفرة والسمرة والقذارة، فهو بالضبط مثل لون الحاجز الخشبي الذي يحجب عن الناس حريم الأستاذ فهيم، وأشار الأستاذ فهيم إلى هذا الشاب وقال بحنان عجيب

– ونحن أيضاً عندنا عريس.. هذا هو عريسنا

وأطرق الشاب الغليظ خجلاً كأنه ثور بري يحتضر، وقفزت الفكرة مثل طعنة النصل إلى قلب صبري.. هذا خطيب معبودته! وأحسّ بجفاف حلقه وشعر أنه يريد أن يصرخ صراخاً عالياً ينفس به عن انفعاله المميت، وأن يثور ثورة عارمة يحطم فيها كل ما في المنزل وأن ينهال على خطيب معبودته ضرباً وركلاً. ثم فتر وتراخت أوصاله وهو يفكر في يأس.

– إذن هذا الحيوان هو الذي سيختطف عروس شعره، وأرج الروض في أحلامه، وندى الفجر في آماله! وأحر قلباه! لقد خابت الآمال واندكت المنى!

ثم تذكر قول سليم إلياس متعجباً – برغم اضطرابه – من إلهام هذا الشاعر الكبير الذي تنبأ بقصته

لـــه هامـــة مثـــل الفنيـــق وقامـــة   كقامـة شـخت خـائر العـزم تمبـال

إلى الله أشـــكو جـــور أهلـــي وأهلهـــا   وتبديـد أحلامـي وضـيعة آمـالي!

وتكلم شقيقه كامل فقال:

– والله يا فهيم بك نحن سعداء جداً بالتعرف بكم وحصل لنا الشرف وطبعاً نحن جيران وكان الواجب أن نتزاور من قبل

– والله يا أستاذ كامل الحقيقة أن الذي يبدأ التزاور دائماً هم السيدات وزوجتي صحتها ضعيفة ومريضة بالروماتيزم وتقريباً لا تخرج وليس في بيتي أحد غيرها، وابني "سعد" هذا وهو طالب بكلية الزراعة وطبعاً أنتم تعرفونه لأنه يسكن الغرفة المواجهة

لمسكنكم التي عليها ستارة حمراء وتطل على البلكونة– هو ابني الوحيد– ولم أرزق غيره.

وابتسم بحنان شديد وأشار بيده إلى الشاب الخنزيري المنظر. وهنا تسمع صرخة مكتومة مصحوبة بأصوات حشرجة خافتة وبعض ألفاظ مختنقة. ويثب صبري واقفاً وقد فغر فمه وجحظت عيناه.. (ثم يسدل الستار)

الرجل المربوط

وهي قصة رجل قلعت عينه فشفي

***

كان الطبيب النفساني الشاب في أول عهده بالعمل، وقد جلس ينتظر مريضه الأول ونظريات التحليل النفساني تروح في ذهنه وتجيء، وقد استقر رأيه على أن هذا الرجل مريض بالذهول وغياب الذهن وحالة قلق نفساني، ولا بأس أن يكون مصاباً بمركب النقص. وذلك كله إستنتاجاً على طريقة شرلوك هولمز، من سماع صوته في التليفون.

ودقت الساعة العاشرة، ودخل المريض مع آخر دقاتها كأنه يثبت شدة محافظته على الميعاد، وحيا وجلس. قال الطبيب بعد المقدمات

– إن العلاج النفسي قائم على معرفتي كل تفاصيل حياتك وأسرارك وأخلاقك وميولك، فعليك أن تبدأ الحديث من حيثما اتفق وتنساق معه إلى حيثما يفضى غير متحرج ولا هياب ذاكراً كل ما تشكو منه وكل ما تخافه وكل ما يخطر على بالك حتى لا يبقى عندك كلام تقوله..

– وماذا عندي أقوله؟ كل ما في الأمر إنني إذا خرجت إلى الطريق شعرت بدوار وتلعثمت خطاي وتهيبت أن يراني الناس مضطرب الخطى، كان هذا في البلد وأنا اشتغل صائغاً ولي محل صغير، أما في مصر فقد لاحظت – وأنا في الواقع – ولا أخفي عنك – وهذا بشهادة جميع معارفي تقريباً فالحقيقة التي يعرفها...

– ماذا لاحظت؟

– الحقيقة إني سريع الملاحظة وجميع أصدقائي يعرفون عني قوة الفهم فقد

لاحظت أن الدوار والارتباك والضيق تزيد عندي إذا كنت في مكان به سيدات أو صادفتهن بجواري في الترام أو في محل من المحلات.

– اشرح لي مرضك بالتفصيل. إنك جئت هنا لتعالج من حالة مرضية وليس من خجل بسيط أو ارتباك لأنه من الطبيعي أن تخجل قليلاً أو تشعر بنقص أو مذلة ولا تؤاخذني فإنك تعرف أنك بعين واحدة وعين زجاجية.

– نعم.. نعم.. هذا ما كنت أريد أن أقوله ولكن يا دكتور المسألة بالعكس تماماً، قبل أن أزيل عيني الطبيعية كان شكلها، وأنا دائماً أقول الحقيقة حتى أن أصدقائي يعرفون عني ذلك، بل أن نفس..

– أرجوك أن تتمم كلامك الأول.. ماذا كان شكلها؟

– كان شكلها فظيع بارزة وملتهبة أما الآن فهي نظيفة ولكن مع ذلك أشعر بهذه الأعراض وعلى ذلك فهي أعراض لا علاقة لها بالعين، وقد سمعت من والدتي أن المرحوم والدي كان أيضاً بعين واحدة ولكنه كان حريصاً على النقود جداً ورفض أن يغيرها بعين زجاجية.

– حسن جداً أشرح مرضك أولاً ولكن لاحظ الشروط الآتية: أولاً: أن تتكلم كأنك تخاطب نفسك ولا توجه الكلام لي، بل فكر بصوت عال وخاطب نفسك واشرح وحلل واستنتج كما تشاء. ثانياً: لا تخف أي شيء عني ولا تخجل من شيء فكلنا بشر ومتشابهون وأنا طبيب لا يصح أن تخفي عني أي شيء. ثالثاً: لا تختصر.. تكلم أكثر ما يمكنك لأن هذه أهم نقطة في العلاج وربما تضرب عن ذكر قصة تافهة أو حادثة فارغة بينما هي ذات أهمية نفسانية أو علمية تفيدك في علاجك.. والآن أجلس جلسة الراحة وابدأ..

– فهمت.. فهمت. اسمي تكلا ميخائيل عبد النور ميخائيل وأنا صائغ في ملوي وتقريباً أعمل كل شغلي بما يرضي الله وعندما أقوم من النوم أشعر بدوخة بسيطة، وقد حضرت إلى مصر للعلاج وشراء شيء من البضاعة.

– وبعد ذلك

– لا شيء هذا كل تاريخ حياتي تقريباً

الطبيب يزفر بشدة ويتنهد ثم يتمالك نفسه

– قلت لك يجب أن أعرف كل تاريخ حياتك وأهلك وأمراضك وأقاربك وتعليمك وماليتك وميولك وأسرارك وماضيك وحاضرك، عليك أن تتكلم في ذلك حتى لا يبقى في نفسك شيء ولا تجد كلاماً تقوله...

– أنا حضرت مصر لشراء فندقلي جاهز وأنا بعون الله غير عاجز عن صب أشغال الفندقلي ولكن ما الفائدة وهو يباع في مصر بثمنه ومكسي فيه خمسة تعريفة في القطعة، وأنا لم أتعلم ولكن ولا فخر لا يفوتني شيء ولم أتزوج.. خطبت (رومة) بنت بنت خالتي ولكن تركتها.

– وهل صحتك من الناحية الجنسية سليمة؟

– أنا الحمد لله سليم ولكن أخاف الله ومن جهة صحتي فأنا لا أبخل على نفسي مطلقاً وأعيش أحسن عيشة، أمس تغديت كباب وقبلها في البلد أرانب ويوم الخميس الرومي وكل يوم أحد لي فرخة بدرية وأربع بنانير.

– ما معنى الخميس الرومي وما معنى أربع بنانير

– يوم الخميس أكلت رومي يعني دبحنا فرخة رومي والبنانير يعني بلح

– بلح؟ بلح إيه؟

– عرقي.. عرقي.. عرقي بلح والدتي تقطره في المنزل في الأنبيق وأصل يا دكتور بيتنا ملكنا ولو أنه صغير، ولكن في الحوش نخلتين ووالدتي تقطر البلح مع تحويجة بجمار النخل واللبلوب والدار صيني والجوزة والقرفة والفوفل لأن أحد أقاربنا عطار في البلد وعنده كل شيء فهي تخرج خمس زجاجات في أول قطفة وزجاجتين تاني قطفة تقريباً، وأنا أعيش مع والدتي في البلد، وكل البلد تحسدنا وأطيع أوامرها وأقبل يدها في الصباح تقريباً

– وهل أنت شديد التدين والتعصب لدينك؟

– لا.. أبداً أنا محافظ على ديني فقط وأعز والدتي وهي عندها تكلا أعز من كل شيء في العالم تقريباً وتقول لي يا تكلا نفسي تتزوج وتجيب ولد نسميه ميخائيل

– ولماذا لا تتزوج؟

– والله يا دكتور يعني السوق نايم في هذه الأيام والإنسان خايف من واحدة غريبة وأنا لا أخرج إلا من البيت للمحل ومن المحل للبيت ووالدتي تقوم بخدمتي حتى لا أحتاج شيئاً مطلقاً.

وانتهت الزيارة، وفي الزيارات التالية أخذ الطبيب يحاوره ويدفعه إلى الكلام فقال:

– عندما خطبت (رومة) بنت بنت خالتي حصل ما حصل

– وماذا حصل؟ أذكر كل شيء بالتفصيل حتى يمكنني مساعدتك

إن قصة رومة بنت بنت خالتي هي تقريباً سبب كل شيء والرب جعل لي عبرة في هذه الحادثة ودرس لكي أتعظ فأنا فهمت الدرس واتعظت تقريباً أما الحكاية بالتفصيل فهي أن والدتي لا أرد لها طلبا أبداً وكانت دائماً تقول لي يا تكلا أريد أن أرى أولادك قبل أن أموت وأنا أنام في حضنها من يوم ولادتي حتى بلغت سن ١٥ سنة وليس لها غيري وليس لي غيرها. وفي يوم قالت لي إن رومة كبرت وصار يجري عليها خطاب وأنت أولى بها لأنها بنت جميلة جداً ولكن فقيرة تخدمك بإخلاص، ثم إن أمي أخذت تلح علي ورمت نفسها علي وأخذت يدي لتقبلها وهي تقول آدي إيدك أبوسها عشان خاطري تخطب لك رومة، وفي هذه الحركة زلت قدمها فوقعت على الأرض وهي ممسكة بجسمي لكي تستند عليه فوقعت عند رجلي فمالت عليها وباستها وقالت آدي رجلك بستها عشان تقبل، فأنا تأثرت جداً وفي الحال صرخت فيها: "طيب.. طيب" أنا قبلت ثم بكيت تقريباً، وهي استمرت واقعة على الأرض ممسكة برجلي ومحتضنة ركبتي حتى أقسمت لها بالمسيح الحي بالقبول وأخذت بيدها وأجلستها على الكنبة فطلبت مني عمل القهوة فعملت كنكة وشربنا معاً وهي تكاد تطير من الفرح وطول ما نحن نشرب

القهوة وهي تحمد الله على استجابة دعوتها وتقول باستمرار: "يا ماري جرجس السلام لحيلك وقوتك.. أنا ندرت لماري جرجس. فحينما شاهدت شدة فرحها مع تأثري من كل ما حدث سلمت أمري لله ومشيت في طريق الزواج كأني تايه أو مذهول يمشي في الطريق أو كأني أعمى يسحبه الناس وهو لا يدري إلى أين يذهبون به.

ولما ذهبنا لزيارة بنت خالتي لنطلب بنتها للزواج قابلنا هناك بعض أقاربنا مثل عمة البنت نفسها وابن عمتها توفيق وأخوه منير وأحد أقاربنا وهو خلة المكوجي وقد وجدنا أن توفيق دخل عندهم بهدية سمك نيلي سمين وفواكه، وحاولت أن أعرف مناسبتها فلم أتمكن من ذلك وكان توفيق يلبس بالطو جديدا أسود معتبر جداً وله ياقة قطيفة سوداء، وأنا اعتقدت أنه أخذه سلف من دكان خلة المكوجي. وبنت بنت خالتي رومة صارت تتجنب كلامنا، ونحن من ناحيتنا وجدنا أن الوقت غير مناسب لطلب يد البنت فسكتنا وقد فهمت أن توفيق وأخوه منير وخلة المكوجي وهو صديق عزيز لهما سيتغدون ثاني يوم عندهم وقالت لي والدتي عندما عدنا للبيت ونحن نتعشى

– يا تكلا يظهر أن توفيق العطار له غرض للبنت وأنا لاحظت أنها لها غرض له وتلاطفه وتضحك معه وتسبل عينيها.

قلت لها: "يا أمي توفيق أغنى مني ومبسوط والزواج ده قسمة ونصيب تقريباً".

وفي اليوم الثاني مباشرة ألحت علي أن نذهب فذهبنا وبالفعل وجدنا توفيق وأصحابه من أقربائنا وهو يلبس البالطو الجديد وقد كانوا تغدوا جميعاً هناك وأخذ يستهزئ بي حتى أنه قال:

– يا تكلا أحسن ترجع بيتك قبل المغرب لأن نظرك ضعيف وأنت نص نظر والنص الثاني كلته القطة

فلم أرد عليه فأخذ يضحك هو ورومة ومنير وخلة المكوجي، ولكن والدتي قالت له:

– يا ابني كل شيء نصيب يمكن تبقى ماشي تطب ميت ولا يمكن وأنت بتعدي

البحر تنقلب المركب والسمك اللي أنت كلت منه النهاردة يأكل من رمتك بكره

ولكنه استمر في الضحك وهو باستمرار يضحك في كل مكان حتى في الكنيسة، ويحفظ كل حكاية أو نكتة يسمعها ويغني مثل الراديو بالضبط.

نهايته في إحدى الزيارات طلبنا يد البنت، وأمها قالت أهي خدامتك ولكن طول بالك شوية لما تعمل العملية في عينك وهي تقصد طبعاً عمل عين زجاجية.

وذهبت لهم مرة، وكان ليلة الأحد في شهر طوبة والبرد شديد جداً فلم تستطع والدتي الذهاب معي ووجدت توفيق هناك مع والدته فقام إلى المطبخ وقال أنا معي شاي معتبر من محلي وأريد أن تشرب منه وكنت أسمع صوته مع رومة وهما يضحكان في المطبخ باستمرار وأخيراً دخلت رومة بالشاي وناولتني كباية كبيرة فشربتها وأمضيت السهرة لم أتكلم تقريباً وكنت أشعر بذهول وهبوط حتى لم يكن يمكنني أن أحرك جسمي وأخذوني إلى بيتي وأنا شبه نائم ولما فتحت عيني في الصباح قالت لي والدتي إني كنت مريض وإنني لم أكن أرد عليها الكلام مطلقاً، وأخذت تدعو لي بالشفاء فقلت لها ليس بي أي مرض ولكني رأيت أحلاماً غريبة جداً في النوم فقد رأيت إنك واقفة مع ماري جرجس القديس وهو يلبس عباءة لها ياقة من القطيفة السوداء وأنت تقولين له: تكلا سيتزوج (رومة) فتقدم بالحصان إلي خطوة خطوة حتى أن الحصان برك على صدري وشعرت إني مخنوق وصدري عليه جبل. ومرت بضعة أيام وصحتي جيدة ولا أشعر بأي مرض ولما ذهبت لمنزل بنت خالتي مع والدتي لترتيب المسألة نهائياً وذلك في ليلة السبت وجدت توفيق أحضر عشاء من فراخ محمرة وبطاطس ففهمنا أنه خطبها وأنهم لا يرغبون في، فمكثنا قليلاً وقمنا إلى بيتنا وبعد أن تعشيت شعرت بضيق عظيم في صدري كأني مدفون تحت التراب ورحت في النوم ولم أشعر بنفسي إلا ثاني يوم في الضحى ووالدتي واقفة أمامي تعمل لي مكمدات بالخل

فقال الطبيب: "هل شربت شاي عند رومة؟"

– نعم شربت شاي عندهم.. شاي محوج

– وماذا يعمل توفيق هذا أي ما صنعته؟

– هو عطار في الأصل ولكن عنده بقالة أيضاً

– وهل شربت والدتك من نفس الشاي؟

– كلا هي تشرب قهوة فقط

– حسن جداً استمر في كلامك

– وقد رأيت في الحلم شخصاً يلبس بالطو أسود وصوته يشبه صوت توفيق بالضبط ولكنه يختلف عنه في تقاطيع الوجه وفي يده اليسرى إنجيل وفي يده اليمنى سيف أخذ يشكني به ويقول لا تدخل هذا البيت ثانية، ورأيت في حلم آخر أن القص جرجس بطرس قسيس الكنيسة واقف عندي في المحل وفي يده سلسلة ذهب واحد وعشرين وقال لي: يا تكلا. بولس الرسول يقول: من تزوج فهو حسن ومن لم يتزوج فهو أحسن، ولما أردت أن أرد عليه خلع عباءته وأخذ يحشرها في فمي حتى كدت أموت مختنقاً وأردت أن أصرخ فلم أستطع بالمرة ثم استيقظت وأنا مبلل بالعرق. ومن ذلك الوقت يا دكتور عرفت أن الله لا يريد لي الزواج بل بالعكس يأمرني بعدم الزواج بالمرة ثم إني سمعت من خلة أن توفيق العطار كان يضع لي في الشاي بعض العطارة حتى يضحكوا علي وإني أتذكر بعض هذه العطارة مثل الشيلم والداتورة وجوزة الطيب وتفاح الجن وغيرها، وأنا ظننت أنها تحويجة فقط وبرغم إني كنت لا أستطيع الكلام تقريباً فقد كنت أسمع ضحكهم علي ولكن الله يعلم نيتي وطهارتي فأرسل في الحلم يحذرني من الزواج تقريباً.

– وما الداعي لمنعك من الزواج.

– الداعي لذلك بصراحة أن هذا المجرم توفيق ورث صناعة العطارة وطب الركة عن أهله وجدوده من قديم الزمان، وبالاختصار يا دكتور سر المسألة الأصلي أنه عمل لي عمل... رباط تقريباً بحيث لا يمكنني الزواج فأنا الآن مربوط، ولذلك فإن الله هداني لترك الزواج والمعيشة الطاهرة.

– إذن لماذا تطلب العلاج؟ ما هذا التناقض؟!

– أطلب العلاج من الحالة النفسية ووجود دوار ودوخة عندي، وأسمع صوت وش في دماغي وتصفير وكثيراً ما أشعر بهبوط شديد حتى لا يمكنني الوقوف وحرارتي ترتفع بعد الظهر معظم الأيام.

وقد حول الطبيب النفساني مريضه لطبيب العيون لأنه لم يخلع عينه الصناعية لغسلها من شهور كثيرة فتكون وراءها تلوث ميكروبي يمتصه الجسم أي أصبحت (بؤرة ميكروبية) وفعلاً وجد الطبيب حولها صديداً. وبتحليل دمه وجد أيضاً مصاباً بالزهري الوراثي وهو السبب الأصلي وحتى بعد علاجه الطبي يصعب علاجه النفساني لجهله المطبق ورغبته الساحقة أن يبقى مربوطاً بأمه محتفظاً بدور الطفولة، ولأنه تأخر في علاج الزهري الوراثي حتى هذا السن لم يعد في الإمكان إصلاح ما فسد، غير أن علاج عينه وإرشاده للعناية الصحيحة بها وخلعها يومياً لغسلها، أزال عنه معظم الأعراض الجسدية التي يشكوها، ولكنه مازال مصراً على أن عجزه الجنسي كان نتيجة الأعمال السحرية التي عملها له توفيق العطار اللعين وأنه رجل مربوط.

ولو كان المريض قد تعلم أرقى تعليم لظل متمسكاً بهذه الفكرة لأنه مدفوع بعقله الباطن إلى إيجاد (مبرر) لحالته وهو نفسه يقتنع بهذا المبرر اقتناعاً تاماً مهما كان مخالفاً للمعقول وهذا ما يسمى في علم النفس الحديث (التعليل التبريري) أي (**Rationalisation**).

حديقة النعام

هل الجنون رحمة أم عذاب! لعلّ فيه رحمة لامرأة تعذبها الحياة فهي تكره من تحب!! وهي مرهفة الحس مهذبة النفس لكنها تحسد الحيوان الأعجم!! فهي تخرج إلى عالم الجنون فتنفس عن الحسد والحقد والغيرة والحب والحرمان ممتزجة كلها في نفسها في آن!

***

كانت الآنسة "ماري مرهج" تقيم في مصر الجديدة مع أختها ووالدتها، فلما توفيت والدتها مضى على الشقيقتين ما يقرب من العام وهما منفردتان، فقد جاء شقيقهما أليكس مرهج[1] من الخرطوم مع زوجته عند وفاة والدته ومكث في القاهرة شهراً قضى فيه بعض أعماله التجارية ونقل شقيقتيه إلى مسكن آخر ثم عاد إلى مقر تجارته في الخرطوم، وقد عجز عن إقناع شقيقتيه بالسفر معه.

أما الكبرى (ماري مرهج) فقد أضاعت (نصيبهما) كما يقولون، لأنها رفضت عشرات الخطاب فانفضوا عنها، وقد كانت الصغرى تؤمل الزواج في مصر الجديدة لكثرة معارفهم بها وقوي أملها بعد وفاة أمهم لما تركته لأولادها من ثروة طائلة يعرفها الجميع فكانتا تذهبان إلى كنيسة البازيليك الكبرى بمصر الجديدة صباح كل أحد وتختلطان بكثير من الأسر، أما الخرطوم فلم يكن رأيهما فيها سوى أنها منفى ليس فيه من السوريين غير طبقة التجار وبعض الموظفين.

وفي ذات مساء انحلت هذه المشكلة بسهولة، فقد زارهما في منزلهما الخواجة رشيد هوري وهو أخو زوجة أليكس (شقيقهما) وشريكه في تجارته بالخرطوم وكان يأتي إلى

---

[1] نرجو ألا يعتقد أحد أننا نقصد أسرة مرهوج المعروفة في الخرطوم وتشابه الإسم ليس إلا من قبيل الصدفة.....

القاهرة مرة كل سنة لأعمال تجارية، فامتد به خياله التجاري العبقري إلى ثروتهما الطائلة... وما زارهما حتى أعجبته الأخت الصغرى– روز– بطبيعة الحال لأن المدموزيل ماري مرهج كانت متقدمة في السن، ولما تفاهمت العيون وعاد إلى الخرطوم أرسل شقيقهما يدعوهما للحضور لعقد الخطبة والزواج وكانت الأختان تعبد كل منهما الأخرى ولم يعد من المستطاع أن تسافر الصغرى وتبقى ماري مرهج وحدها في مصر الجديدة فسافرتا معاً إلى الخرطوم، وكانت ماري تعطف على أختها عطفاً شديداً وتعنى بثيابها الجديدة بغير أن يظهر عليها أي أثر للغيرة بل بالعكس كانت تدبر شؤون العروس بكل حصافة وذكاء فقد رأت أن إقامتهما مع شقيقهما وزوجته في شارع غوردون غير معقولة لضيق المسكن فطلبت من خطيب أختها أن يخرج معها في أصيل يوم عطلة يوم الأحد لتنتخب مسكناً جديداً.

فابتسم رشيد هوري ابتسامة سخرية واستسلام وخرج معها فطافاً بشارع كتشنر يفحصان ما فيه من الدور الفخمة، فقال بابتهاج وهي تمشي إلى جانبه عابسة وعليها علائم الجد.

– يا سيدتي هذه القصور كلها حكومية ولا يوجد هنا أي مسكن لغير الحكام والأعيان وكبار الموظفين.

– إذن نذهب إلى الضواحي

– كما تريدين والأفضل أن نركب الترام

وركبا الترام وهما صامتان وهي تتأمل ما حولها حتى عبر بهما النيل على القنطرة الكبيرة وأخذت تستنشق نسيمه المنعش فتورد وجهها المغضن وقالت وهي تتنهد:

– إلى أين ينتهي هذا الترام؟

– ينتهي في الضفة الأخرى من النيل في "الخرطوم بحري" وهي قرية حقيرة بها مساكن صغيرة ومساحات واسعة من الأرض الفضاء الرملية.

– إنه مكان هادئ جميل وهواؤه منعش وجوه أقل حرارة من الخرطوم فما رأيك أن تشتري هنا مساحة واسعة من الأرض ونبني لنا (فيلا) جميلة فيها حديقة واسعة للزهور

– هذا مشروع يحتاج لمبلغ كبير من المال

– هذا لا يهم.. نبني الفيلا شركة بيننا أنا وأختي وأنا أحب سكنى الطابق الأرضي إذا كان يطل على حديقة لطيفة فأنا أعبد الزهور وكان مسكننا في مصر الجديدة لا تطل نوافذه إلا على زهور يانعة جميلة الألوان كنت أتعهدها كل صباح ولا يمكن أن أعيش في مكان ليس به زهور.

وهنا وصل الترام إلى نهايته فنزلا وسارا قليلاً فلم يجدا ما يستحق الالتفات ولكنها صممت أن تستمر في تجولاتها فركبا الترام البخاري إلى قرية (سلامة الباشا) وهي التي تسير منها البواخر لتعبر النيل إلى أم درمان في الضفة الأخرى.

وكان شاطئ النيل مظللاً بأشجار اللبخ والسكون يطرب النفس والنسيم العليل ينعش الروح فسارا على الشاطئ قليلاً فتنهدت بارتياح، وقالت وعيناها الحالمتان تنظران إلى الأفق البعيد.

– كنت أتمنى أن تكون روز معنا لولا أنها مشغولة بالجهاز

فضحك ضحكة تجارية سمجة وقال وهو يغمز بعينه متظرفاً:

– وأنا أيضاً كنت أتمنى ذلك؟.. أنظري هذا القصر الغريب إنه معروض للبيع.

– للبيع؟ ولماذا لم تخبرني بذلك من أول الأمر؟

– في الحقيقة لم يخطر ببالي ومع ذلك فهو بعيد عن محل عملي ومنعزل ثم أنه مرتفع الثمن جداً لفخامته وسعة حديقته المطلة على النيل.

فشمخت بأنفها في الهواء ثم ألقت نظرة غير إرادية على الخاتم ذي الفص الضخم الثمين في أصبعها وقالت بهدوء مصطنع:

– لا يهم الثمن... لا يهمني إلا راحتي ومزاجي.

ودخلا حديقة القصر مع البستاني فجنت بها جنوناً حتى أنها في عودتهما لم تتكلم وتاهت في عالم الخيال والأحلام، وبدا على وجهها علائم الفرح الشديد وكأنها عثرت على كنز ثمين. ولم يكن صاحبنا رشيد بالرجل الغر ولكنه كان تاجراً متمرساً بعقد الصفقات وانتهاز الفرص وقد خاف أن تعدل العانس، فلم تمض أيام حتى اشترى لهما القصر وكان قد بناه أحد الحكام الإنجليز اللصوص بعد فتح أم درمان واستضاف فيه اللورد كتشنر اللعين ووكل الورثة من بعده أحد وكلاء الأعمال في بيعه.

كانت الآنسة ماري مرهج حادة الذكاء مولعة بالقراءة وهي تجيد اللغة الفرنسية إجادة تامة وكانت رفيعة الذوق مرهفة الإحساس لا تجلس للقراءة إلا في سكون شامل وأثاث فاخر، ولا بد لها من زهر بديع منضد تطيل النظر إليه وتستسلم لأحلامها، أو حديقة جميلة كثيرة الألوان والظلال تقرأ فيها دواوين الشعر والروايات العاطفية العنيفة، ومن أجل هذا الخيال الجامح والذوق الرفيع لم يعجبها أحد ممن خطبوها. وقد اقتنت في حياة والديها مجموعات من الجواهر الثمينة ثم انتهى إليها ميراث ضخم فكان إصلاح القصر الذي اشترته أعظم سعادة عمرت قلبها الكسير وغمرته فخصت نفسها بالطابق الأرضي وجعلت لغرفة نومها شرفة على الحديقة وأمرت البستاني بتجديد الزهور وتعمير المغارس والإكثار من الشجر الوارف الظلال. وفي إحدى زياراتها للقصر مع أختها وخطيب أختها للإشراف على الإصلاحات قالت لها العروس.

– انظري ما هذه الأقفاص الكبيرة الواسعة المحاطة بالأسلاك لعلهم كانوا يحتفظون فيها بالدجاج والطيور المنزلية.

فلم يستطع البستاني مغالبة الضحك وقال:

– يا سيدتي هذه أقفاص النعام فقد كان أحد الورثة يربي ثلاثة أزواج من النعام.

فقال رشيد هوري متظرفاً كعادته وهو يوجه الكلام لخطيبته

– هل تظنين أنه كان يدفع ثلاثمائة جنيها ليتمتع بمنظر النعام وريشه الجميل، لعلك تظنين ذلك! ها ها!! إنه في نفس الوقت الذي يزين فيه الحديقة بمنظر النعام البديع ويجعلها جنة للضيوف والزوار يأخذ من ريشه كل ستة شهور ما يساوي أضعاف ما ينفقه عليه

فقال البستاني:

– نعم.. نعم كان التجار يأتون من وقت لآخر ويأخذون ما تجمع من الريش وهم أنفسهم كانوا يتولون تحضير النعام لقطف ريشه ويقومون بجمعه.

فقالت الأخت الكبرى ماري مرهج بابتهاج ظاهر، وقد ظهر عليها التفكير.

– وهل النعام في الحدائق الخاصة يبيض وينتج أفراخاً صغاراً؟

– نعم يا سيدتي النعامة تبيض ثلاث مرات في السنة في كل مرة نحو خمس عشرة إلى ثماني عشرة بيضة ويفقس الكثير منها، وكذلك كنا نطلقها في الحديقة ليلاً لتأكل العقارب والحشرات

فصاحت الكبرى بابتهاج شديد:

– ما أجملها.. ما أبدع منظر النعام الصغير!

وأسرع رشيد هوري – واسمه الحقيقي رشيد عنحوري ولكنه يكتبه بالإفرنجية (أنهوري) فخففها تظرفاً إلى (هوري) – فقال وقد أمال عنقه من قبيل خفة الدم.

– فهمنا.. فهمنا يا سيدتي حاضر.. حاضر إن شاء الله نوصي التجار والصيادين بإحضار زوج أو زوجين..

ثم رفع سبابته يشير بها إلى وجهها مستأنفاً كلامه وهو يبتسم ويغمز بعينه.

– لكن النعام غال، وسوق الريش كاسدة هذه الأيام، ولو أن جلد النعام يباع بأثمان مرتفعة ويصدر لأمريكا

– أنا لا يهمني بيع الريش وكذلك مسألة العقارب مهمة جداً

وصاحت الأخت الصغرى:

– وهناك في طرف الحديقة الآخر بيوت أخرى للحيوان فماذا كان فيها؟

فقال البستاني وهو يبتسم ابتسامة عريضة، وقد فرح لحسن حظه بخدمة هؤلاء الأثرياء.

– كان بها غزلان يا سيدتي والحقيقة أن فائدة النعام عظيمة جداً لإبادة العقارب والحشرات وهي كثيرة هنا

ثم قال بذكائه الوقاد:

– الغزلان الصغيرة جميلة وتلعب مثل الأطفال تماماً وتعاكس الكبار ويعاكس أحدهما الآخر وأنا خبير بتربية النعام والغزلان وأقوم بكل ما يلزم لها.

– "من فضلك أنا اسمي المدموزيل مرهج"

قالت العانس هذه الجملة بلهجة تنطوي على التوبيخ وفي إشاراتها وتقطيبها تعبير واضح عن الازدراء الشديد والغضب المكتوم كأنها قد أهينت إهانة كبرى، وسارت بكبرياء في الحديقة وتركت الشاب واقفاً كالصنم، وقد وجم ودهش دهشة عظيمة وهو ينظر إليها حتى غابت وراء أشجار الياسمين حيث وضعت بعض المقاعد وعليها حشايا من الحرير مختلفة الألوان.

وسار رشيد إلى مدخل الفيلا وهو يبتسم بناحية واحدة من فمه ابتسامة سخرية. وقد مضى على زواجه نحو ستة شهور، وكانت حفلة الزواج حديث المدينة كلها أياماً عديدة لأنها أقيمت في فندق جراند أوتيل – وهو يعادل الكونتيننتال في القاهرة – ودعي إليها جمع كبير من العظماء، وفي ذلك المساء بالذات بعد ستة شهور من العرس أسرت العروس لأختها أنها حامل ولكن العانس عبست في وجهها وأخذتها رجفة ظاهرة ثم قالت لها بلهجة شديدة:

– لا داعي للحديث في مثل هذه الموضوعات إنها مسائل خاصة، ولا يصح أن تتكلمي فيها

ثم أعرضت عنها وتركتها إلى الحديقة، وتصادف في هذه اللحظة أن كان الخواجة عنحوري داخلاً فقال ضاحكاً متظرفاً كعادته:

– كيف حالك يا مدام؟ لعلك مسرورة يا مدام؟!

فخيل إليها – حسب الشعور الذي أخذ عليها تفكيرها في تلك اللحظة – أنه يسخر منها فصدمته بهذه العبارة الغريبة (من فضلك أنا اسمي المدموزيل مرهج) أي أنها آنسة وليست (مدام مرهج) وقد دهش لأنه لم يكن يقصد أن يسئ إليها وليس من الغريب أن يخاطب الإنسان مثلها بلفظة (مدام) وقد سبق له ذلك، وما وصل إلى أول الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني حتى سمع صوتها وهي تتكلم بحدة وغضب بعبارات متواصلة ثم تصرخ بصوت حاد مرتفع، وتشتم شتائم بذيئة جداً لم يسبق لها أن تلفظت بها، فزادت دهشته وعاد إليها مسرعاً وهو يقول لعل البستاني أو أحد الخدم قد أساء إليها، فرآها واقفة بمفردها وقد انفكت أربطة شعرها وجحظت عيناها وتشعثت ثيابها وهي تشتم وتصرخ ولم يكن معها أحد!!

– حيوانات! حيوانات دنيئة! بالضبط مثل البهائم! مثل الكلاب!!– مثل القطط! حمل وولادة! كل الحيوانات تحمل وتلد فهم مثل الحيوانات– لا يفكرون إلا في هذا... لعنة الله عليهم، ويقول لي يا مدام.. يا له من بذيء قذر... أنا عذراء طاهرة وهو أمه مدنسة طبعاً... حيوانات.

وارتجف الرجل وصعق. هل جنت العانس؟ ومن الغريب أنها لم تهتم بوجوده مطلقاً وكأنها لم تره... وخاف أن يكلمها وأدرك بالبداهة أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً فعاد مسرعاً إلى عروسه روز، ونزلت معه روز فوجدت أختها تدور حول نفسها وتروح وتجئ بخطوات سريعة مضطربة، فارتمت عليها تعانقها والدموع تنحدر من عينيها. وبعد نحو ساعتين سكتت العانس وجلست واهنة القوى فسحباها إلى فراشها

ولما أصبح الصباح عادت العانس إلى نفسها كأن لم يحدث شيء مطلقاً. ولم تشر إلى ما حدث بحرف وكانت هادئة وديعة. وكانت تمضي معظم وقتها في الحديقة تطعم الغزلان ثم تطلق سراحها في الحديقة أو تعني بالنعام وتأمر بتنظيف مسكنه، وكانت تألفها غزالة من نوع يسمى في السودان (الأريل) وهو النوع الذي كان شعراء العرب يذكرونه في غزلهم، وقد سمّت العانس غزالتها هذه (جرازييلا) وهو اسم بطلة رواية لامارتين المعروفة. وكانت جرازييلا الغزالة طويلة العنق كحلاء ذات دلال تتخطر إذا مشت وتتمايل وتجفل إذا أراد أحد مداعبتها. وفي ذات يوم مرضت جرازييلا واستسلمت لعناية العانس التي أخذت تدللها وتطعمها وتسقيها وتغسل لها وجهها بالعطور الثمينة، والغزالة ترحب بمقدمها، وتلقي رأسها على صدرها. وكانت الغزالة منتفخة البطن من الحمل. ثم شفيت وعادت إلى جفولها وشرودها وتدللها، تأكل من يد سيدتها ثم تعدو هاربة لا تعبأ بها.

وقد قال البستاني لسيدته:

– يا سيدتي لا تطعمي الغزالة بيدك لأنها إذا أكلت بنفسها تميز بعض الأعشاب الضارة بها فلا تأكلها أما إذا أطعمتها بيدك فإن بعض العشب المدسوس في طعامها يؤذيها، وهي ممتلئة البطن وكذلك الحلوى والشيكولاتة وغيرها، وكذلك الروائح العطرية تجعلها لا تميز روائح الأعشاب.

– أي عشب؟ وأي حلوى؟

– أعشاب كثيرة تحدث للغزلان انتفاخاً شديداً مثل هذا الذي تعطينها منه أحياناً.

وأشار إلى نبات من النباتات البستانية المعطرة يسمى البردقوش أو المرزنجوش.

– أنا أعطيها منه أحياناً بعض أعواد لأن رائحته عطرة؟

فكتم البستاني ضحكه وانصرف.

وأخذت الأيام تمر والغزالة "جرازييلا" في صدودها إلى أن أعطتها سيدتها بعض الأعشاب وقد دست بينها أعواد المرزنجوش، وهي تتلفت يمنة ويسرة لترى إن كان

البستاني يراها، وأخذت تدس لها أشياء أخرى فكانت تارة تبلعها بلعاً وتارة تلفظها. وتكرر هذا العمل حتى وقعت "جرازيبلا" مريضة مرة ثانية فعادت إلى أحضان سيدتها ذليلة كسيرة فكانت تجلس إليها ساعات تلاحظها وتدللها وهي تقرأ كتاباً أو تجول جولة في الحديقة غير أن جرازيبلا لم تشف هذه المرة وماتت لسبب مجهول، وكان هذا أول ظهور مرض جديد عند العانس فقد شعرت بضيق عظيم في الصدر أثار عندها نوبة من نوباتها العصبية، فلزمت فراشها وقال الطبيب أن سببها كثرة أشجار معينة في الحديقة وهي من أشجار اللبخ المعروفة في مصر باسم (دقن الباشا) وأن ما فيها من "الطلع" أو اللقاح ينتشر في الهواء بشكل خيوط دقيقة تدخل الرئة فتسبب ضيق الصدر وإنها إذا لم تتجنب المكث في الحديقة في هذه الأيام أصيبت بالربو كما يصاب به كثير من الناس في السودان، ويضاف إلى ذلك حزنها على غزالتها المحبوبة والبعوض الرفيع الذي يسميه الأهلون النامتا بالتاء المشددة فهو من أعظم أسباب الربو هناك.

ومرت الشهور ووضعت روز حملها، طفلة جميلة، غير أن الوالدة قاست في الوضع آلاماً كثيرة لضعف بنيتها، ولزمت الفراش أكثر من شهرين كانت أختها تعني فيهما عناية تامة بها وتأخذ الطفلة في العربة الصغيرة إلى الحديقة مرتين في اليوم لتستنشق الهواء الطلق. وبذلك حلت الطفلة محل الغزالة "جرازيبلا"، وفي ذات مساء أصيبت العانس بنوبة عنيفة من نوباتها التي تفقد فيها وعيها وتشتم وتصيح وتتفوه بألفاظ جنسية بذيئة، فعادت إلى غرفتها وأغلقت بابها عليها تاركة الطفلة في الحديقة بغير أن ترسل إليها إحدى الخادمات لتعود بها، كما اعتادت أن تفعل.

ولما تنبهت الوالدة المريضة لغياب أختها أرسلت من يبحث عنها وعن طفلتها، فوجدوا ذكرين من ذكور النعام مطلقي السراح في الحديقة مع أنه من المعروف أن الذكور لا تترك معاً وبالفعل تقاتلا قتالاً مميتاً ووجد أحدهما طريحاً ممزق اللحم والثاني هائجاً في الحديقة وقد جن جنونه، والطفلة ممزقة الوجه وقد أصبح رأسها عجينة دامية مختلطة فتت عظامها منسر النعامة الجبار (أي منقارها).

من فتح أبواب حظيرة النعام؟.. لا يدري بذلك أحد، وبحثوا عن العانس فلم تخرج لهم حتى كسروا باب غرفتها فوجدوها منفوشة الشعر جاحظة العينين ممزقة الثياب وهي تبكي بكاء شديداً، من يدري لماذا؟.. لعلها وهي في غمرة جنونها كانت لا تزال تحس بشاعة جريمتها.

المنوم المغناطيسي الجبار

الخطوة الأولى.. ثم الخطوة الثانية... ثم الثالثة في التأثير المغناطيسي، ثم سيال البرانا الهندي

***

لا بد لنا من ذكر نبذة مختصرة عن تاريخ حياة الأستاذ مصطفى الدماصي المنوم المغنطيسي الجبار قبل أن ندخل في صميم الموضوع لكي يتسنى للقارئ أن يدرس هذه الظواهر دراسة علمية دقيقة!!

في ليلة باردة من ليالي شهر نوفمبر عام ١٩٠٢ كان محمود الدماصي المشهور باسم (محمود السواق) يدخل حارة عبد المحسن المعروفة في المنصورة بقذارتها وهو يسرع تارة ويجرى طوراً فقد أخبروه وهو في (الورشة) أن امرأته جاءها المخاض وطمأنوه بأن الست أم حنفي الداية قد حضرت في الحال ولازمتها.

وكان محمود الدماصي يشغل وظيفة سائق قطار في مصلحة السكة الحديدية المصرية وكان يمتلك المنزل الذي يسكن طابقاً منه، ويؤجر الثاني. ولما أشرف على باب المنزل فوجئ بالزغاريد والتهليل فأخذ يضحك بصوت مرتفع وهو يقول: "الحمد لله، كله خير، كله خير الحمد لله" بينما هو يتمنى في أعماق نفسه أن يكون المولود ذكراً، وفعلاً حقق الله أمنيته وولد له "مصطفى".

وكان مصطفى يشب ويترعرع في أزقة المنصورة، وهو مثل والده غليظ الحاجبين مقرونهما ضيق الجبين، ومثل والدته راسخ الاعتقاد في وجود الجن والشياطين وقوة الأعمال السحرية والعين الشريرة. وسارت حياته هينة لينة حتى وصل إلى امتحان شهادة الكفاءة – نظام قديم – (وهو بعد التعليم الابتدائي بسنتين) وبدأ الحظ اللعين الأسود يناوئه ففشل في اللغة الإنجليزية في أول امتحان إذ كان كمعظم الطلبة منصرفاً إلى

السياسة، والمظاهرات والهتافات، وفي السنة التالية سقط أيضاً في اللغة الإنجليزية ولم يكن يوجد في تلك السنين امتحانات ملحق، أي أن الذي يسقط في علم واحد يمتحن في العلوم كلها في العام التالي.

وأرسله والده إلى القاهرة حيث التحق بمدرسة وادي النيل وكانت لها شهرة كبيرة في اللغة الإنجليزية والترجمة لأن المدرس كان على صغر سنه بحراً متدفقاً في اللغة العربية والإنجليزية مع سماحة في النفس وسمو في الخلق وهو المرحوم الأستاذ الكبير إبراهيم عبد القادر المازني رحمة الله عليه ألف رحمة. وسهَّل انتقال مصطفى الدماصي إلى القاهرة وجود ابن خالته فيها – عبد الحميد الدمرداش – وكان أكبر مصطفى بأربع سنوات، وقد فشل عبد الحميد الدمرداش في الكفاءة أربع سنوات، فالتحق بمصلحة المجاري. وانتقل مصطفى الدماصي إلى غرفة ابن خالته في حارة قلعة الكبش المتفرعة من شارع مرسينا بالسيدة زينب، واتفق ابنا الخالة في الميول والمعتقدات كما اتفقت فيها والدتاهما الشقيقتان، وهي ميولهما إلى أعمال السحر والتنويم المغنطيسي لعلهما أن يبلغا يوماً بعض الأمل، بعد أن فشلا في بلوغه عن طريق شهادة الكفاءة!! وفي ذات ليلة دخل عبد الحميد الدمرداش فوجد الدماصي جالساً يقرأ الجزء الأول من كتاب (معلم التنويم المغنطيسي) تأليف المرحوم نجيب قناوي وقد اشتراه من مكتبة بشارع عبد العزيز.

– ولع الوابور يا بو درش

– جبت إيه للعشا؟؟

– والله جبت علبة لحمة استرالي بخمسة تعريفة، وعلبة شاي خشن بخمسة تعريفة، وعلبة سجاير مبروك بخمسة تعريفة، وعيش عشان العشا والفطور بخمسة تعريفة،...

فضحك الدماصي ضحكته التمثيلية التي عرف بها: "ها ها هع هع هاع"

وهما يشربان الشاي قال عبد الحميد الدمرداش

– إرمي الكتاب ده يا مصطفى

– ليه!؟

– أنا جبت الشيء على أصوله

– إزاي يا بو عبده؟!

عرفت أستاذ هائل جداً في التنويم المغنطيسي وفي علم الروحاني وعنده أسرار مريعة.. والغريبة أنه ساكن في السيدة.

– هنا في السيدة؟ والنبي صحيح؟ اسمه إيه؟

– يا سيدي اسمه الأستاذ مصطفى العلوي وهو مساعد الأستاذ فريد وجدي الفيلسوف الروحاني المشهور.

تعددت الزيارات للأستاذ مصطفى العلوي، وكان يسكن زقاقاً بعيداً يبدأ الطريق إليه من شارع السد البراني، وكان الأستاذ مصطفى العلوي يبدأ جلسته دائماً ببعض القصص التي تثبت براعته وتفوقه في التنويم المغنطيسي وقراءة الأفكار وإرسال الطيف الكوكبي، وهذه القصص تستغرق عادة نحو ساعتين يبدأ بعدها دروسه.

وبطبيعة الحال لم يتبق لمصطفى الدماصي وقت للمذاكرة ولا أي نقود لمطالبة الدراسة، فقد كان يذهب إلى المدرسة ماشياً في بعض الأوقات مع أنها في باب اللوق. وبعد انتهاء نصف السنة الأول انقطع عن الذهاب إلى المدرسة ولم يدفع المصاريف أي مصاريف المدرسة مع أنه تسلمها من والده، ولا نقصد بهذا أن المرحوم الأستاذ مصطفى العلوي كان يستغلهما أو يثقل عليهما أو أي شيء من هذا القبيل، بل على النقيض من ذلك لم يتقاض منهما أي أجر مطلقاً، وفوق ذلك كانا بعد جلوسهما بلحظات يسمعان نقراً على الباب فيقوم الأستاذ العلوي ويتناول صينية القهوة من يد والدته العجوز ويقدمها لهما، ولكنهما انصرفا لممارسة هذا العلم مع بعض وسطاء مغنطيسيين محترفين، وذلك على سبيل التمرين. وتنحى عبد الحميد الدمرداش بعد قليل وترك ابن خالته يزداد تعمقاً في هذا العلم الخطير وينفق نقوده على الوسطاء وفي شراء الكتب، وينفق كذلك

وقته وجهوده، بينما انصرف عبد الحميد إلى اقتفاء الحسان اللواتي يتخطرن في الملاءات في ميدان السيدة وفي شارع مراسينا وأمام محلات الأقمشة في شارع السد البراني.

وبينما كان مصطفى الدماصي منصرفاً من منزل الأستاذ مصطفى العلوي ليلة الجمعة الثاني عشر من شهر فبراير، أخذ يتعثر في مستنقعات الطين وبعض أكوام القمامة المنتشرة في تلك الأزقة وهو مستغرق في التفكير والآمال الواسعة، ثم تنبه فجأة وكأنه قد أفاق من حلم، إلى ثورة جامحة في أعصابه نتيجة الإكثار من شرب الشاي والقهوة والمناقشات الحادة مع مصطفى العلوي الذي يستطيع مواصلة الكلام أربع أو خمس ساعات متوالية ولاسيما إذا جاء ذكر الطيف الكوكبي...

وانقلب تفكير صاحبنا الدماصي من العلوم المغنطيسية والروحانية إلى ما كان يسميه في مسامراته مع أصحابه (نداء الجسد) فأخذ يحكم لف الوشاح الصوفي (الكوفية) حول عنقه ورفع ياقة السترة (الجاكتة) وهو يردد جملته المأثورة (إن لبدنك عليك حقاً). وخرج من مجاهل حي البغالة إلى شارع السد البراني وأفضى إلى قهوة الزجاج بميدان السيدة زينب. فجلس إلى مائدة تطل على الشارع وأخذ يراقب الغاديات والرائحات بعين الصيد المترقب، وهو يلقي بعض كلمات الترحيب والإعجاب على اللواتي يخطرن على مقربة منه حتى طالت جلسته ولم تتعطف عليه واحدة بابتسامة، ولا حتى بالنظرة العابرة؛ فصفق للخادم قائلاً:

– كمان واحد شاي تقيل.

وانصرف عن مراقبة السابلة وأخذ يفكر تفكيراً عميقاً: الخطوة الأولى التخيل وتكوين الصورة، فلنتخيل شابة حسناء وتكون صورتها وهي واقفة في الملاءة السوداء.. الخطوة الثانية: فلنركز فكرنا وتصورنا على هذه الصورة حتى تتجسم وتتحقق طبقاً لقانون التركيز العقلي والقوة الفكرية. الخطوة الثالثة: قوة الجذب. فلنتنفس تنفساً عميقاً ونعبئ سيال (البرانا الهندي) في مجرى السلسلة الفقرية تدريجياً حتى يزداد ضغطه فينفذ من أسفل العصعص ويصبح طريقه مفتوحاً ومجرى السيال حراً. والآن فلنسترح. ثم فتح عينيه وأخذ

يحتسي الشاي وهو يراجع نفسه هل يشتري زجاجة من الكونياك إذا وفق الليلة، وهل يكتفي بالعشاء الموجود أم يشتري شيئاً من البسطرمة والجبن الرومي والموز؟

وبينما هو في حساب ذلك رأى منظراً صعق له وقفّ شعر رأسه وسرت في جسده رعدة كالكهرباء.. رأى على الرصيف القريب غادة هيفاء أحكمت لف الملاءة حول قامة فارعة وهي تتلفت بحيرة وتردد وقد تقبل خطوات ثم تدبر وهي تلقي نظرات تائهة بعيدة كأنها في زورق ضل على صدر العباب العريض تنظر إلى الأفق النازح...

ارتجف الدماصي وعرته هزة طرب سرت في عظامه. إذن لقد نجح أخيراً وبدأ يخضع الأقدار ويذلل الظروف والناس، ويقول للشيء كن فيكون بإذن الله. وأعقبت موجة الطرب موجة غرور كاسح وإيمان أعمى بقوة علومه المغنطيسية، فاتكأ على مسند الكرسي وأغمض عينيه بهدوء وثقة جارفة واستأنف تأثيراته العقلية والمغنطيسية قائلاً:

الخطوة الرابعة: نتخيل السيال المغنطيسي قد انعقد حول طيف الشخص المرغوب جذبه وهو يدور دورة كاملة مخترقاً مجرى السلسلة الفقرية ومارا وراء طيف الحسناء ثم تضيق دائرته وهو يجذبها داخل هذه الدائرة رويداً رويداً حتى تقترب مني وهي مستعدة خاضعة لتنفيذ الإيحاءات التي آمرها بها.. وراح يتنفس تنفساً هندياً عميقاً.. ثم استرخى في جلسته وفتح عينيه بكل ثقة وهدوء.

وفي هذه المرة لم يرعه المنظر الذي رآه أمامه ولم يهتز له قيد أنملة؛ فقد كانت الحسناء الفارعة القوام واقفة على مقربة منه وقد نكست رأسها وبدا على وجنتيها شحوب، فدفع حسابه بهدوء وهو يشعر بأن عقله قد وقف عن التفكير وأنه من هذه اللحظة قد بدأ عمراً جديداً أو دخل عالماً جديداً، عالم السحر والكنوز والسعادة الغامرة بغير مشقة.

وشعر باحتقار كبير لهؤلاء الناس التافهين الذين يكدحون من أجل بضعة جنيهات بينما قد دخل هو عالم الروحانيات، عالم القوة الفكرية التي تسيطر وتطلب وتأمر. ومر بالفتاة الخاضعة الذاهلة مستأنياً متأنقاً في مشيته لا تكاد الدنيا تسعه لفرط كبريائه وعظم

شعوره وثقته بالقوة الخارقة الجارفة، وهمس يقول لها بصوت الآمر: "تعالى ورايا"، وسار وهو يفكر في نفسه في سبب سرعة تفوقه وازدياد السيالات المغنطيسية عنده إلى هذه الدرجة "أولاً هذه مواهب طبيعية أو إلهية وأنا لم أخلق لدراسة الجبر السخيف واللغة الإنجليزية ولا لأي عمل. أنا خلقت لأتحكم في الكنوز المخبوءة وأملي إرادتي والله يعطي من يشاء، وثانياً قرأت في جميع مجلات الطوالع وكتب الأفلاك سواء للشيخ الأسيوطي أو الأستاذ الزرقاني أو الأستاذ عبد الرحيم قناوي وغيرهم من الكتب القديمة أن مواليد برج العقرب عندهم موهبة طبيعية للمغنطيس والعلوم الروحانية وأنا من مواليد شهر نوفمبر أي برج العقرب بالضبط".

ووصل وهو غارق في تفكيره إلى مدخل حارة قلعة الكبش فعاد إلى الفتاة وهي تتبعه وبينهما بضع خطوات، ومال عليها يقول:

– تمهلي في مشيتك حتى أسبقك وافتح لك الباب فادخلي فوراً فباب حجرتي على الشارع.

وصعد متمهلاً، ونقول صعد لأن حارة قلعة الكبش تشبه سفح تل مرتفع ولعلها الوحيدة التي تنحدر هذا الانحدار الشديد في القاهرة كلها. ونظر مصطفى الدماصي حوله مستكشفاً وفتح باب الشقة وأشار لها بالدخول فدخلت وهي تسعى مسترخية الجسم تخطو ببطء شديد وبحركات مقيدة كأنها آلة تتحرك، وكان المصباح البترولي مشتعلاً أوقده ولا شك عبد الحميد قبل خروجه فإنه يخرج متأخراً ولا يعود قبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

ودخلت الحسناء ذاهلة شاردة الطرف فأخذ بيدها في رفق وهي تغمغم كأنها تحلم، فلم يبد عليه أي تعجب لحالتها بل أخذ ينفث دخان لفافته نحو سقف الغرفة وهو يخاطب نفسه بعظمة وثقة لا حد لهما.

(إنها وصلت الآن إلى آخر الدرجة الرابعة بالفعل– يظهر أن سيال البرانا الهندي أصبح عندي جباراً – البركة في تمرينات المعلم رامات الهندي... آخر الدرجة الرابعة وهي

في الطريق!! هذا نجاح مريع – هذه قوة جبارة – مصطفى الدماصي المنوم المغنطيسي الجبار يطلب ما يشاء فتخضع له الناس. مصطفى الدماصي. مصطفى الدماصي!! المنوم العالمي الجبار!!)

ثم عمد إليها فأزال عنها الملاءة وتكشفت له ثيابها مزقاً متهدلة فلم يكد يلقي إليها بالاً وهو في غمرة انتصاره، فدفعها إلى فراشه برفق فلم تقاوم، ولم يتمالك أن يقول بصوت مرتفع: "يا خبر أبيض يا أولاد!! خضوع تام!! ستعمل العجايب يا واد يا مصطفى– يا مصطفى يا جبار".

ثم لمعت في ذهنه فكرة جديدة زادته طرباً وثقة بنفسه، وذلك حينما نظر نظرة ثانية إلى ثيابها البالية: "نعم.. نعم.. تمام هذا ما حصل أنها كانت تمشي في شأن لها وليس عندها أي فكرة أو رغبة في الذهاب إلى منزل أي شاب بدليل أنها تلبس هذه الثياب، ولعلها كانت تشتغل في منزلها بعمل منزلي أو خرجت لشراء شيء ودخلت في المجال المغنطيسي فسحبها فوراً".

ومد يده، وقد خمدت تماماً حدة ميوله الشهوانية لفرط طربه واضطرابه فمسح صفحة وجهها وقال: "ألا تكلمينني؟؟" ثم لمس فمها بأصبعه وقال بلهجة الإيحاء المغنطيسي: "الآن أزيل عنك ضغط السيال المغنطيسي الذي يمنعك من الكلام فيمكنك الكلام كالمعتاد". وحنا عليها فراعه شحوبها وتكسر جفونها وقد أغمضت عينيها ولم تنبس؛ فهمس يقول لنفسه: "قد أثقلت عليها السيال أيها الجبار فلنخفف عنها بسحبات عكسية لطرد المغنطيسية الزائدة"

وأخذ يمسح بدنها من ركبتيها إلى رأسها بغير أن يلمسها كأنه يكتسح من فوق جسمها ماء ويرميه بعيداً عنها، ثم عاود النظر في وجهها وفحصها وأزاح عن جبينها شعرها المشعث فارتد مرتاعاً.. لقد زاد شحوبها حتى غدت تحاكي الأموات وبطل تنفسها وبردت كفاها كأنه يلمس فيهما الثلج؛ فشعر أن ركبتيه لا تقويان على حمله وأراد أن يقول شيئاً ولكنه أمسك عن قوله لفكرة طرأت عليه فأسرع إلى المرآة فحملها وقربها من

فمها وهو يحملق فيها، فإذا المرآة صافية لم يعكر وجهها نفس!! فاقشعر بدنه ونطق العبارة التي كان قد احتجزها في حلقه فقال بصوت أجش: "يا خبر أسود!! البنت ماتت!!"، وسكت لحظة: "وحياة دين النبي البنت ماتت!!"

وكانت أول فكرة خامرته وهو مذهول لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً، هي الفكرة الغريزية التي تخامر كل إنسان وقع في مأزق وهي أن يهرب أو أن يحمل الجثة الباردة ويضعها في حارة مظلمة ويختفي هو في سينما أو يعود إلى القهوة ثانية ويفتعل مشادة أو مشاجرة مع الخادم أو مع أي شخص ليثبت وجوده بالقهوة.

ثم عاد ففكر في الشهود الذين قد يكونون رأوه، فليس بالمستبعد أن يكون خادم القهوة أو أحد روادها قد رآه والفتاة واقفة على مقربة من مائدته، ثم وهي تتبعه كظله، وهذه (محاورات) معروفة لدى الجميع ولاسيما في هذه الأحياء.

وعاد ففكر أن يستعين بأستاذه مصطفى أفندي العلوي، يذهب إليه في منزله ويطلب رأيه أو حتى يحضره معه، ثم تخيله وهو واقف على رأس الفتاة يقوم بعمل السحبات المغنطيسية، فانتفض بذعر وانكسار وصاح بصوت يكاد يختنق في حلقه وبلهجة من اكتشف المجرم الحقيقي:

– الله يخرب بيتك يا مصطفى يا علوي.. أنت سبب المصيبة كلها، الله يخرب بيتك يا مصطفى أفندي.

وجلس على الكرسي أمام المائدة الخشبية الصغيرة المستديرة وعيناه مثبتتان في وجهها الجامد الأصفر والأفكار تلعب برأسه: "أنا الآن جالس وأمامي شابة فارقتها الحياة.. أمامي جثة إنسان ميت.. هل أنتظر عودة عبد الحميد.. يا ترى هل يثبت الكشف الطبي وفاتها بتأثير صدمة مغنطيسية أو لعلها صدمة قلبية من تأثير التنويم العنيف؟ وعلى أي حال المسئولية موجودة..."

ثم تخيل والدته ووالده وأهله وقد سمعوا بخبر القبض عليه ووجود شابة ميتة على سريره، وفي الجرائد أيضاً!! ثم خطرت على باله فكرة رحب بها حتى أنه وثب إلى الباب

ليخرج لتنفيذها فوراً، وهي أن يذهب إلى عيادة الدكتور جرجس ويحضره وقد سبق له العلاج عنده من البلهارسيا ومن تعفن مزمن بالأمعاء. وخرج فلفح وجهه هواء الشتاء البارد فتنفس الصعداء وملأ صدره بالهواء فانتعش قليلاً ثم تردد فتسمر في مكانه.

"هذا الطبيب اللعين من (الدقة القديمة)، من أطباء الجيل الماضي فلا يمكن أن يكذب ولا يمكن أن يحيد عن الواجب شعرة واحدة وعلى كل حال أمري لله أنا لم أقتلها وأنا بريء، سأذهب إليه وما باليد حيلة وطبعاً لا أقول له أنها ماتت بل أقول له أني شاهدتها في الطريق عند الباب وقد أغمي عليها فوضعتها على السرير وحضرت إليك..."

وكانت عيادة الدكتور جرجس قريبة ولم يكن من عادته أن يخرج في الليل في هذا البرد القارس لتقدمه في السن، ولكن ما رآه من اضطراب الدماصي، ورنة البكاء والرعب في صوته جعله يشفق عليه، ويراود نفسه في الذهاب معه فدخل إلى زوجته وشاورها في ذلك؛ فقالت له:

– اخرج معه يا جوج، ولكن البس المعطف الأسود الثقيل والكوفية.

ويرفع الستار بعد ذلك عن منظر الدكتور جرجس وبجواره مصطفى الدماصي من مواليد حارة عبد المحسن بالمنصورة وهو يحمل له الحقيبة الطبية وقد غيب الدكتور يديه في ردائه الثقيل ولف رأسه بوشاح من الصوف هائل الحجم من صنع يد السيدة حرمه، وقد غطى به أذنيه حتى أن مصطفى الدماصي يئس من إسماعه قصة الفتاة كما اخترعها وكيف أنها قد أغمى عليها عند باب منزله فسكت حتى وصلا حارة قلعة الكبش فوقف الدكتور جرجس في أسفل (سفح) الحارة مرتاعاً وهو يحملق بعينيه الذابلتين في القمة فبادر مصطفى يشجعه.

– وصلنا يا دكتور، وصلنا نطلع على المهل.. نطلع على المهل.

وأخيراً وصلا.. وفتح الدماصي الباب وهو يرتعد خوفاً حتى أنه أدار رأسه إلى الناحية الأخرى ولم يجسر أن ينظر إلى الفراش. أما الدكتور فقد وقف يلهث حتى استرد

أنفاسه ثم لمس الجثة بسرعة وامتشق سماعته العتيقة وهو يقول بهدوء المحترفين:

– كل هذا بسبب الهبوط الشديد وضعف الدورة الدموية و....

فقاطعه الدماصي بصوت مرتعش ولم يعد يستطيع الصبر.

– الوفاة طبيعية يا دكتور أم بسبب؟.. يعني سكتة قلبية مثلاً؟.

فلم يرد عليه الدكتور مطلقاً ولا نعلم أكان ذلك بسبب الوشاح الصوفي الذي لف به عنقه وأذنيه أم بسبب "البرود" الطبيعي عند المحترفين، ومضى يفحص الجثة بدقة وهو يظهر علامات العجب والدهشة بين لحظة وأخرى ويقلب كفيه.

وسكت الدماصي كأنه ينتظر الحكم عليه من المحكمة. وأخرج الطبيب زجاجة شراب فسكب في فمها منها، وحقنها في ذراعها بدواء آخر ففتحت عينيها وقالت بذهول: "أنا جائعة..." فقال الدكتور جرجس بهدوء: "تمام.. تمام.. البنت في حالة ضعف شديد وإغماء نتيجة الجوع والبرد، ويظهر أنه قد مضى عليها بضعة أيام على الأقل بدون أكل وسأوضح لك الترتيب اللازم لعلاجها".

ووقف مصطفى الدماصي صامتاً بجوار الجدار، وجلس الدكتور جرجس على الكرسي يرتب أدواته الطبية في حقيبته والمصباح قد نقص منه البترول، فأخذت ذبالته تتذبذب، والظلال تطول وتقصر على الأرض وعلى جدران الغرفة كأنها شياطين الشر ترقص حول هذا الجسد الشاحب الطاهر، ساكناً لا حراك به على فراش الإثم.

الشبح القاتل

وقائع خاصة بمنزل "مسكون" في "عزبة البرج" ذكرت في الأهرام وجريدة المحروسة عام ١٨٨١ وفي هذه القصة تفصيلات هذه الوقائع وكشف سرها بعد معركة غريبة مع الشبح غير المنظور بطريقة توضح للقارئ حقيقة سر ظهور الأشباح وتتضمن هذه القصة شرحاً مبسطاً واضحاً لأسرار التنويم المغنطيسي وطريقة تدريب الوسيط، وكيف يمكن استخدام الوسيط في التأثير على الغير عن بعد...

***

لا أظن أحداً من عشاق مصيف رأس البر القدماء يجهل المرحوم الأسطى إبراهيم صالح الحلاق من أهل عزبة البرج الذي كان يجوب المصيف في صمت تام حاملاً حقيبته الصغيرة، وقت أن كان يلذ للعظماء والأعيان أن يخرجوا عن التقاليد ويتحرروا من الملابس الرسمية والحياة المقيدة، فكان الواحد منهم ينادى الأسطى إبراهيم صالح ليحلق له شعره أو ذقنه، ويطيب له أن يجلس لذلك مرتدياً "الجلابية" أو البيجاما، وفي الحق أن الأسطى إبراهيم كان محدثاً فياضاً مكثراً ولكنه لم يخرج أبداً عن حدود الكياسة واللياقة، وكان يروي الكثير من النظم والنثر وغرائب القصص والنوادر ويعرف مزاج كل عميل من عملائه فيتمشى مع عقليته وميوله حتى أننا كنا ونحن في شرخ الشباب الباكر نعقد معه مباريات في المصارعة، وقد تكون الحلاقة لم تتم ولكن التحدي يحتدم ويشتد فيضع المقصّ والمشط جانباً، وينزع الخصم منا "فوطة" الحلاقة ويشتبكان في المصارعة "الجريك رومان" شوطاً أو شوطين على الرمال، وإذا احتدم الجدال حول النتيجة أو حول نقطة فنية عمد إبراهيم صالح إلى عبارته المأثورة يرددها بأفصح منطق: "يضيق صدري ولا ينطلق لساني".

وقد عرفت الأسطى إبراهيم صالح ما يقرب من عشرين عاماً، حتى ترك مهنة الحلاقة لأولاده وقد علت به السن واشتغل مقاولاً في المصيف أي يبني "العشش" لحسابه ويؤجرها للمصطافين. وكنت جالساً في شرفة العشة التي بناها لي، وذلك في صيف عام

١٩٢٧ حينما رأيته قادماً وقد بان عليه الهرم وأصبح أعجف مهزولاً، وكنت في تلك اللحظة أفكر في حل معضلة لم أجد لها حلاً، فلما رأيته لمع في ذهني كالبرق أن الأسطى إبراهيم صالح هو خير من يضطلع بها. قلت له أيها الأسطى إنني أريد أن أقضي بعض أيام في أوائل الشتاء في مكان منعزل له رهبة البحر في الشتاء ودفء الصحراء، وله في نفسي موائمة وارتياح، وهو هذا المصيف– مصيف رأس البر.

وكنت في الحقيقة قد أولعت بعلم التنويم المغنطيسي ودرّبت كثيراً من الوسطاء بعد تخرجي من كلية الطب فلم أصل إلى النجاح المنشود واستقر رأيي بعد تجاربي على أن تدريب الوسيط في خلوة وعطلة من العمل هو أنجع وسيلة للنجاح، وكان الخيال يحملني إلى آفاق بعيدة من الشهرة وعمل المعجزات في كشف الغيب وفي العلاج النفساني والطبي.

فقال الأسطى إبراهيم صالح:

– إن مقامك في رأس البر بعد الموسم يمكن أن يمتد نحو أسبوع على الأكثر ولكن حاجات المعيشة تنقطع، كالماء والطعام، ثم أن ترك العشة قائمة بغير هدم بعد انتهاء هدم عشش المصيف ونقلها إلى المخازن فيه مشقة علينا وشيء من الغرم وعندي رأي أصوب وأجمل وأرخص لك وأجدي عليّ.

– هات ما عندك.

– عندي في عزبة البرج منزل صغير أسكن الطابق الأرضي منه، أما الطابق الأعلى فتسكنه ابنتي، وزوجها ينتقل في أول الشتاء إلى بورسعيد فيمكنني أن أؤجره لك بعد تجهيزه بمفروشات جديدة وهي متوفرة عندي طبعاً بصفتي مقاول عشش فاخرة في رأس البر. وتجد عندنا أيضاً كل ترحيب وقيام بخدمتك وطلباتك حيث أننا نسكن الطابق الأرضي، ثم إنني لن أضايقك بوجودي شخصياً "وبالبرودة" الطبيعية الموجودة في الحلاقين لأني أكون غالباً في دمياط أو في بورسعيد.

في اليوم الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٢٧ وصلت محطة دمياط ومعي

عبد الرحمن أحمد سلامة الوسيط فوجدنا الأسطى إبراهيم صالح يضع يديه وراء ظهره ويقف جامداً كالتمثال أمام مبنى الاستراحة يحتمي بها من الرياح الباردة التي تهب من صوب البحر، وهو يرتدي معطفاً ثقيلاً فوق الجلباب ويلف عنقه بكوفية من الصوف الخشن ويغطي رأسه بغطاء من الصوف مما يستعمله البحارة عادة في تلك الجهات الباردة في الشتاء "أي طاقية".

وسررت لمحافظته على وعده، وكان مع تقدمه في السن يرى بعين النسر وتختلط سمرة وجهه بصفرة وذبول، ولما تصافحنا قدمت له عبد الرحمن الوسيط على أنه من أصدقائي وأنزلنا الحقائب وبعض بنادق الصيد والخرطوش وثلاث سنانير فاخرة اشتريتها من القاهرة من شارع البواكي وهي مركبة من أجزاء يضم كل جزئين زُجّ من النحاس أي حلقة عريضة بحيث يمكن فكهما ليسهل حملهما. وفي الواقع كنت مولعاً بالصيد بالبنادق، والطيور تكثر في هذه المنطقة في هذا الوقت مهاجرة من بلاد بعيدة وتختلف أنواعها ويطيب صيدها، ولذلك كان غرامي بصيد السمك وخبرتي به كافية وحدها لأن تدفعني إلى مثل هذه الرحلة. وقد آثرت طبعاً أن أتخذ الصيد مبرراً للحضور لأنه مظهر مألوف في هذه الأماكن ولا غبار عليه، ولم أذكر حرفاً عن التنويم المغنطيسي.

وتقدم بعض الغلمان فحملوا متاعنا بسرعة وهرولوا إلى خارج المحطة يتبعهم الأسطى إبراهيم صالح، فوضعوه في سيارة أجرة محطمة قذرة كانت تنتظرهم وقد انبعجت عجلاتها لكثرة ما فيها من الترقيع، ومن الغريب إنني ترددت لحظة واحدة فأدرك الأسطى إبراهيم صالح فوراً أن عندي ما أقوله فقال مبادراً وعلى مسمع من السائق:

– إذا كانت السيارة لا تعجبك نصرفها ولو أنه من الصعب أن نجد أحسن منها لانتهاء الموسم.

– أنا أستريح لركوب النيل وأريد مركباً بقماش كبير مستوف، وأريد أن نتناول شيئاً من الطعام ونحن في البحر.

فسكت الأسطى إبراهيم صالح لحظة ثم قال بسرعة بديهته المعروفة.

– في هذه الحالة علينا أن نرضي سائق السيارة بشيء ثم نجلس في القهوة وبعد نصف ساعة يكون كل شيء جاهزاً وأحضر كل طلباتكم من السوق

فناولته ورقة مالية وقلت مبتسماً كأني امتحنته:

– وما هي الطلبات التي ستحضرها؟

فرد بسرعة البرق كأنه استعد لهذا السؤال من قبل:

– أنظف أكل الآن هو السمك المشوي بالفرن ثم اللبن والليمون والسكر والكنكة ووابور السبرتو العمران والفناجيل لنشرب القهوة في المركب ثم تكون لاستعمالكم الخصوصي في المنزل.

فضحكنا لسرعة خاطره وسرنا ببطء فعبرنا الطريق وجلسنا في القهوة الصغيرة المواجهة لمحطة دمياط وهي تطل على النيل. ولم تمض ساعة حتى عاد الأسطى إبراهيم صالح ومعه الريس مُحَمَّد الزيني الذي حياني بحرارة فيها سذاجة عمال البحار وإيجازهم، وشد على يدي بقبضة من حديد، فسرنا إلى مرساة خشبية صغيرة انحدرنا منها إلى المركب وفي الجو برودة غريبة شعرت أنها تحرك الروح وتثير شعوراً غامضاً فيه رهبة وفيه غموض، ومنظر ميناء دمياط يزيد هذا الشعور عمقاً. فحولنا جدران عتيقة غريبة لم نألف مثلها ساقطة في الماء وهو يتعاورها بأمواجه الصغيرة بغير انقطاع فيسمع له نغم رتيب هادئ يخدر الأعصاب وكأنه يداعب الجفون ليغمضها، فاتكأت في المركب على عمود "التندة" أي المظلة، وتراخى جسمي وغرقت في خيال غامض كالحلم، فهذه "البلكونات" أي الشرفات الصغيرة التي تكاد تغرق في الماء والجدران المبللة والدرجات الحجرية النازلة في ماء النيل، مناظر لم نألفها كأنها كلها بقايا بيوت لها تواريخ رهيبة ومآس ترتجف لها الأبدان!!

ومن يدري؟ فقد يكون هذا الشعور الخيالي حقيقة. ألم يحتلّ الصليبيون دمياط وحاصروا أهلها حتى كادت تفنيهم المجاعة، حتى كانت البيضة تباع بعشرة جنيهات ورطل السكر بمائة جنيه ورطل السمن بأربعمائة جنيه! وغير ذلك من الوقائع العجيبة، وكم من

آلام وأحزان ثارت في هذا المكان!! وكم من مشاعر وأحاسيس، من خوف ومن فزع، وحب وبغض!! ولؤم ودناءة! وشهامة وإيثار على النفس! ولعمري يخيل إلي وأنا في أحلامي متكئاً في السفينة، أن مياه النهر وهي تلاطم الجدران فيطير رشاشها وتنساب على منعرجات الشاطئ فتنساح عليها، تمثل كل هذه العواطف الغامضة الرهيبة المتضاربة.

ولذ لي الخيال، ولذت لي الأحلام، فناديت الريّس مُحَمَّد الزيني قائلاً بصوت لا يكاد يسمع مستعيناً بالإشارة: "يا ريس مُحَمَّد أسقط القماش". وفي الحال سمعنا كركرة بكر الشراع أي العجلات الخشبية الصغيرة التي تشد الشراع أو تسقطه، ومعنى ذلك أن يهدئ من سرعة السفينة، وعرض لي في هذه الرحلة الممتعة أبيات من الشعر كنت قلتها قبل ذلك في مثل هذه المناسبة في أول شبابي الباكر وأنا في الخامسة عشر من عمري فأخذت أردد مطلع القصيدة وأنا في نشوة لا يمكن وصفها، كأن روحي كانت نائمة فتنبهت أو هاربة شاردة فعادت إليّ أو حزينة فسكرت بخمر الفرحة والرضى! أو كانت روحاً أرضية متعبة فأصبحت روح شعر! روحاً سماوية!! روحاً بلا جسم! نسمة رقيقة تسبح فوق العباب العريض بين غيوم الشتاء.

شـــد الشـــراع ووثـــق الطنبـــا	قـــاس يســـير الوخـــد والخببـــا!
مهـــلا فـــدتك الـــنفس إن لنـــا	في المهـــل عنـــد رحيلنـــا أربا!
يا قريـــــة بالشـــــط ناعســـــة	اهتـــز مـــن تـــذكارها طـــرباً!
كـــالحلم تبـــدو وهـــي غائمـــة	والبحـــر رهـــو والنســـيم صـــبا!

وأخيراً مضت فترة الأحلام! فالقوم قد جاءوا ولم يكن فيهم من يقطع عليّ تأملي واسترخائي. فاعتدلت وفتحت عيني وأصبنا من طعام وقهوة ونحن نمر مراً هيناً لينا بعزبة الخياطة وعزبة خفاجي فالشيخ ضرغام وكفر حميدو. ثم أرست بنا المركب عند مرسى عزبة البرج قرية الأحلام! مضت علينا ستة أيام في عزبة البرج غمرني فيها شعور غريب لم أوفق

إلى معرفة أسبابه ولا أظن أحداً يستطيع تفسيره، فقد كنت أشعر في كل حركة وفي كل عمل أعمله بأنني مؤتلف به أشد الائتلاف وأنني كنت أمارسه طيلة عمري فكنت أصعد السلم الضيق القديم إلى مسكننا وأنظر إلى الجدران الكالحة الطينية كأنني أرتقي هذا الدرج منذ عشرات السنين، وأدخل غرفتي الصغيرة فأجلس أمام النافذة أطل على مكتب بريد عزبة البرج وهو غارق في مستنقعات من الماء وضعت فيها حجارة كبيرة ليخطو عليها من يريد الوصول إلى المكتب، وعلى شاطئ النيل عدد كبير من الزوارق سحبت من الماء فوضعت على البر لتجف أو تصلح أو تطلى بالقار أو بالطلاء الملون فكان يخيل إليّ أنني كنت أسكن هذا المكان طول عمري، وإذا عرض لي ما يذكرني بشخصيتي الحقيقية وشئوني في القاهرة شعرت كأنني أقلب ذكريات قديمة عفا عليها الزمن وصوراً بعدت بها السنون!

أيكون ذلك عن رغبة دفينة في نفسي أن أتناسى ما مضى من تكاليف العيش ومشقات الحياة وأتعلق بهذه الحياة الهينة اللينة، لست أدري! وخرجنا مرتين لصيد الطيور وقد وفقنا كثيراً فيهما ولكننا لم نوفق في صيد السمك، فقد كنا نسير على الأقدام إلى بحيرة المنزلة ثم نتوغل فيها على مركب من مراكبهم. وفي ما سوى ذلك لم أكن أشغل نفسي بشيء غير "تمرين الوسيط" فقد بدأت بتنويمه خمس أو ست مرات تنويماً خفيفاً ثم أخذت ألقيه في نوم عميق وآمره بتحرير فكره من جسده والانطلاق إلى أي مكان يعجبه، ثم أتركه لنفسه ولا أكلمه مطلقاً حتى يكتفي فيناديني بألفاظه المعهودة (صحيني– صحيني– كفاية كده) وقد نجحت هذه الطريقة نجاحاً عظيماً لأنه كان يستمتع بها إلى حد الشغف، وكان انتقال فكرة إلى بيوت أصدقائه وأقاربه في أول الأمر من تخيلاته وأوهامه ثم أصبح حقيقة واقعة، أي أنه أصبح يرى ويسمع عن بعد وهو ما يسمى **Clairvoyance** وتدرجت به بعد ذلك إلى قراءة فكري لأن أهم خطوات النجاح أن يقرأ الوسيط فكر المنوم وأن يكون ذلك بالتدريج، فكنت أضع أمامي ورقة من ورق اللعب (كوتشينة) وأركز فكري بها والوسيط مغمض العينين وبعد دقيقة أو دقيقتين يعرف رقمها وهو طبعاً لا يراها فيصيح: أربعة – ستة – عشر– وقد سررت جداً لنجاحي ولسرعة تقدمه وكنا

نعقد كل يوم خمس جلسات للتمرين غير تمرينات اليقظة وهي ذات أهمية أيضاً فكان يغمض عينيه، وهو في حالة اليقظة، وأسأله في أي شخص أفكر؟.. وما هو الرقم الذي في ذهني وأغير عقارب الساعة وأسأله كم الساعة حسب ساعتي الآن؟.. وهكذا

ودخل فجأة في دور (الكشف) وأصبحت إجاباته سريعة وصحيحة، وكان بعد انتهاء جلسات الصباح يخرج إلى القهوة البلدي فيجلس مع بعض الأهلين ويلعب الدومينو مع مسعود البحار الذي لا يفارق القهوة وقد علت به السن، وقد استهواني منظر تلك القهوة وآثار المراكب القديمة الملقاة أمامها في الزقاق، كالمرساة الضخمة وقد ساخ مخلب من مخالبها الثلاثة في الأرض وعلاها الصدأ، والقوارب المقلوبة. وقد أصبح (الترابل) إلى أعلى، والترابل هو حد القارب السفلي البارز في الماء. وقد صارت في هذا الوضع كأنها طيور ضخمة ملقاة على ظهرها وقد برزت عظمة الصدر منها أي القص فغدت أشبه شيء بهذا الذي يسمونه "الترابل"، واستهواني كذلك منظر مسعود المراكبي وهو يسف إلى الأفق البعيد حالماً كأنه يرى ذكريات الماضي تسبح مع الغيوم البيضاء فوق صدر البحر الملح فهو يرصدها ويرعاها.

استهواني ذلك فجلست معهم لحظة، قتل فيها خيالي قذارة المكان وتفاهة رواده، فتركت عبد الرحمن سلامة وهو يشرح لهم بعقليته الهوائية معلوماته عن الأشباح والأرواح وقمت أتمشى بعيداً إلى الأرض المغطاة بالملح حيث تنتشي الروح من هدير البحر الذي لا ينقطع، ولم أكن أميل إلى عقد جلسات تدريبية بعد غياب الشمس بل كنت أجلس إلى الوسيط لنتسامر ولكي يزيد تآلفنا ومعرفة كل منا بالآخر وهو ما يسهل عملية انتقال الأفكار وقراءتها، فكنت أعرفه بطباعي وخلقي وأشرح له ميولي ونفسيتي وتاريخ حياتي.. كما ذكر لي تاريخ حياته البسيط وهو أنه أصغر إخوته جميعاً وهم ثلاثة ذكور وبنتان وأن والده يعيش معيشة ترف وأنانية في بلدتهم مع أنه لا يمتلك سوى تسعة فدادين، أما عبد الرحمن نفسه فكان بطبيعة الحال يتلقى الأوامر من كل إخوته لأنهم أكبر منه ولو أن ذلك لم يؤثر مطلقاً فيه من الناحية الجسدية، فقد كان عريض المنكبين ضخماً مولعاً بالطعام ولعاً شديداً هادئ الطبع راضياً تمام الرضى عن نفسه وعن كل تصرفاته. وكثيراً ما يغمغم

ويتمتم بالأغاني ويهز رأسه طرباً ونشوة. وكان لولعه بالتنويم المغنطيسي واستحضار الأرواح ولأمله الخفي أن يحول النحاس إلى ذهب ويستمر في عيشة الكسل، يحضر مع بعض معارفه تجاربي المغنطيسية ومناقشاتنا العلمية في أوقات الفراغ بمصر، وأقصد فراغي أنا وليس أوقات فراغه هو، لأنه كان يبحث عن عمل في القاهرة فلم يوفق ومع ذلك كان يعيش متعطلاً ناعم البال عند أقاربه في شبرا ويتحفهم كل أسبوع بشيء من خيرات الريف فوق ما يدفعه لمصروفات معيشته المتواضعة.

وكان ككل الوسطاء، يتظاهر بأنه قاطع الرأي قوي الشخصية والحقيقة أنه، ككل الوسطاء أيضاً لا وجود له إلا أن يكون ظلاً لشخص آخر أو صدى لصوته أو انعكاساً لصورته، وشخصيته مثل الفيلم الفوتوغرافي تنطبع عليه الصور وهو لا صورة له! وكان عبد الرحمن أحمد سلامة يتقدم في (الكشف المغنطيسي) تقدماً عجيباً فأصبح ينام في بضع ثوان ويدخل في درجة الكشف بعد عشر دقائق فيمكنه أن يقرأ خطاباً مغلقاً موضوعاً في جيبي ويقرأ أرقام أوراق البنك وهي داخل المحفظة ويقرأ صفحة من أي كتاب، فأقول له اقرأ صفحة ٩٢ من الكتاب الموضوع على الرف فيقرأها حرفاً بحرف، ويستطيع الوسطاء عادة قراءة أي شيء بعد أن يقرأه المنوم وهذا يسمى الكشف العادي البسيط. أما الكشف المعجز الذي لم يصل إليه أحد فهو هذا هو القراءة عن بعد بحيث يستطيع أن يقرأ أسئلة الامتحانات مثلاً والأوراق الشخصية التي يخبئها أي شخص في أي مكان.

وقد أسكره النصر فأصبح مسرفاً وفيه شيء من العبث، وفي أحد الأيام استأذن ليتغدى عند الريس مسعود لأنه يشتهي أن يأكل طواجن السمك كما يصنعها الصيادون، ثم عاد هو فدعا الريس مسعود إلى الغداء، فجلس معه في غرفته واعتكفت في غرفتي وتغديت وحدي وأنا أسمع قصصهما التي لا تنتهي، وفي الصباح التالي دعانا الريس مسعود لرحلة بحرية نعبر فيها (البوغاز) أي ندخل من النيل إلى البحر الأبيض المتوسط، وهي رحلة قد تكون خطرة في هذا الوقت من السنة ولكن البحر كان هادئاً جداً، وكان معه بحار شاب يساعده وغلام صغير في نحو العاشرة وأخت الغلام وهي طفلة

في نحو الخامسة عشر، وجلس هو إلى الدفة، أي سكان السفينة وكان ينظر إلى الفضاء البعيد وقد التمعت عيناه وانتصبت قامته وبان عليه الفرح والكبرياء، وانطلقت بنا السفينة إلى البوغاز فعرجنا على مركب (خفر السواحل) وهي تقف هناك طول العام لنستأذن في الخروج إلى البحر، وبعد أن أذنوا لنا خرجنا من "البوغاز" فدار بنا دورة كبيرة على (الضهرة) كما يقولون أي (ظهر البحر) ثم عدنا وقد لذّ لي ما أظهره من البراعة والثبات برغم كبر سنه فنفحته أجراً مضاعفاً وكذلك البحار الشاب والطفلين.

ونحن في عرض البحر قال عبد الرحمن الوسيط:

– هل تصدق يا دكتور أن (حسيبة) – وأشار إلى الطفلة – هي التي تطبخ لهم جميعاً كل يوم، وقد عملت لنا الطواجن لا يمكن لأعظم طباخ في مصر عملها ويمكنها أن تعمل سبعة أصناف من السمك.

فقلت ملاطفاً:

– يا سلام؟! يا سلام! سبعة أصناف من السمك هذا غير معقول.

– أيوة يا سيدي الدكتور هي تعمل سمك (أممة) وله صلصة من قمر الدين ويدخل الفرن ثم سمك ثعابين طواجن بالفريك وسمك بوري طواجن بالطحينة، وإيه كمان يا حسيبة؟

فقالت وهي تنظر إلى عبد الرحمن بسرور ظاهر، وجسارة صبيانية.

– وسمك كباب مشوي وصنف تاني كمان..

وهنا قاطعها عبد الرحمن أحمد سلامة باهتمام بالغ كأنه تذكر أمراً في غاية الأهمية.

– هل تصدق يا دكتور أنها تعرف أبدع المواويل الحمر والبيض والبغدادي والبدوي والفلاحي وخلافه مما لم أسمع مثله في البلد عندنا.

وكانت حسيبة تسوي فستانها المرقع ذي اللون الأحمر الصارخ لتخبئ تحت قدميها

الحافيتين وتنظر إلينا في بساطة صبيانية، فلما جاء ذكر المواويل وضحكنا جميعاً استحت وهربت بعيداً فجلست على (صابورة) المركب.

وفي تلك الليلة بدأت الواقعة؛ فقد دخل عبد الرحمن أحمد سلامة بعد المغرب بقليل وقد شرب الشاي بالقهوة البلدي التي يجلس فيها دائماً، وهو يغني على السلم (موالاً) جديداً عجيباً والسلم الخشبي يئن تحت خطواته الثقيلة أنيناً مختلف النغمات.

أحبـــاب قلـــبي العـــزاز العـــزاز   عـــــاوزين عتـــــب تاني...

وأنا نفســـــــي عفوفـــــــة   ولا رضيتشـــي العتـــب تاني.

وإذ كان يعلم أنني غير مولع بصوته المزعج لم يرد أن يدخل قبل أن يأخذ حظه من التجويد والتطريب فوقف على الباب مستمهلاً وهو يردد مراراً وتكراراً.

أحباب قلبي العزازي العزازي العزاز!!

وأخيراً دفع الباب وصاح وهو طروب:

– اكتشفت أعظم اكتشاف.. يا دكتور محسوبك يقوم بواجباته أعظم قيام.. عبد الرحمن أحمد سلامه الوسيط المغنطيسي الجبار.

– وماذا اكتشفت يا حضرة الوسيط الهائل؟ نوعاً آخر من السمك؟

فقال وهو يحنو على (اللمبة نمرة ١٠) أي المصباح البترولي، ويرفع شريطها.

– يا سيدي اكتشفت منزلاً في جوارنا مسكوناً بالأرواح والأشباح وهو المنزل المنفرد بعيداً عن الحارة من جهة رأس البر، ولم يستطع أحد أن يسكنه مطلقاً ولا بد أن نتصل بهذه الأرواح فمن يدري.. من يدري؟

ثم خافت من صوته كأنه يخاطب نفسه قائلاً:

– الأرواح تعلم مكان الكنوز المخبوءة يا سيدي المفضال.

وذهبنا إلى المنزل المنعزل وهو مكون من طابق واحد فيه غرفتان وردهة وهو مغلق النوافذ وقد تساقط طلاؤه من الخارج وتهدمت أركانه وكان أحد الأهلين قد اشتراه ورممه وأصلحه وقوى بعض جدرانه ولكنه عاد فهجره.

وكنت في ذلك الوقت شاباً مغامراً قوياً محباً لعلم الأرواح والتنويم إلى درجة الشغف، فما حل ظهر اليوم الثاني حتى كان الأسطى إبراهيم صالح قد جاء من دمياط إذ أرسلت إليه رسولاً، فقلت له:

– قد عقدت رهانا مع عبد الرحمن أحمد سلامه أن نبيت في البيت المسكون بضعة ليال.

– البيت المسكون.. اللهم احفظنا بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. إذا كنت دكتور تراهنت على مبلغ محترم فأنا آخذ ربع هذا المبلغ وأبيت في هذا المنزل مع عمل الاحتياط اللازم ولا يصيبني شيء.

– وما هو هذا الاحتياط؟

– اشتري مصحفاً بخمسة قروش واكسب الرهان.

واتفقنا أن يحضر الأسطى إبراهيم صالح الأثاث اللازم من "مخزن العفش" الذي يملكه ويستعمله في مقاولات عشش رأس البر في وقت الموسم، وزاد سهولة الأمر أن المخزن كان في "الجربي" وهي قريبة جداً من عزبة البرج. فاستأجر مركباً لا يوجد لها مثيل في العالم في قذارتها وأحضر فيها سريرين من الخشب وحشيتين "أي مرتبتين" وبعض الوسائد، ولم أدهش من قذارة المركب لأني أرى أمثالها هناك كثيراً ولكني دهشت عندما أعطى صاحبها أجره: قرشاً واحداً!!

وذهبنا إلى المنزل المهجور بكل بساطة فوجدنا بابه مربوطاً بسلك ودخلنا فوجدناه خالياً سوى من التراب والعناكب، ووجدنا بسهولة من يكنسه وينظفه بأتفه أجر، فما دام موسم الاصطياف قد ولى فإنك تجد عشرات لا عمل لهم. وكان المنزل يطل من بعيد

على "الصهريج" وهو بناء أثري لصهريج كان يستعمل لخزن المياه العذبة.

وفي اليوم الثاني بعد العشاء سرنا إلى المنزل المسكون بغير أن نلفت الأنظار "مع أني علمت فيما بعد أن القرية كلها تسامعت بالقصة" ففتحنا الباب ودخلنا الغرفة المعدة لنا وأشعلنا المصباح نمرة ١٠ ووضعناه على النافذة وفرشنا الملاءات على المراتب الخشنة.. وقد أزعجتني رائحة الرطوبة والخشب المتعفن، وفي الواقع لم أكن أتوقع نتيجة جدية لأني كنت أعتقد أن ما يسمونه أرواحاً في هذا المنزل إن هو إلا سقوط بعض الحصى من سقفه أو طقطقة الخشب من الرطوبة، وخطر لي خاطر مضحك أدركت في الحال أنه هو الحل الصحيح؛ فقد يكون هذا المنزل مما يستعمله مهربو الحشيش الذين يأتون على الأشاكيف والشخاتير من الشام وغيرها "الأشكيف والشختور نوعان من المراكب الشراعية".

ووضعت إلى جانبي مسدساً محشواً ومصباحاً كهربائياً، وبعد أن سئمت الإصغاء حاولت النوم فلم أستطع وكان عبد الرحمن أحمد سلامة لا يكف عن الكلام والتعليقات، وأخيراً سقط في نوم عميق وأخذ يغط غطيطاً عالياً، وبطبيعة الحال مضيت الليل مؤرقاً يعذبني غطيطه المزعج وخشونة الفراش ورائحة المنزل المهجور، وأمضيت أسوأ ليلة، ثم غفوت عند الفجر وفي نفسي نوع من الانقباض والتوجس أو التوقع، بعد أن أنهكني الإصغاء لأخفت صوت وأبعد ركز. وأخيراً تنبهت والشمس ترسل أول أشعتها فحمدت الله ووثبت من الفراش. ونظرت في الغرفة فإذا عبد الرحمن أحمد سلامة قد اختفى.. جلست على حافة الفراش لحظة أفحص الغرفة فرأيت:

(أولاً) إن عبد الرحمن أحمد سلامة قد أخذ سترته "جاكتته" معه وخرج بمنامته "المنامة أو النيم ما يلبس في النوم كالبيجاما". (ثانياً) أنه خرج بالشبشب وترك حذاءه (ثالثاً) اختفت ساعتي الذهبية الثمينة، وكذلك المسدس.

وقمت فنظرت في بقية الغرف فلما دخلت الغرفة الخلفية وفيها نافذة مكسورة تطل على الأرض الفضاء وراء المنزل، سمعت صوتاً رفيعاً يغني بحنان صبياني فيه غنة

الحداثة: "وأهل الصبابة يعلم بهم باري".. ثم أخذ الصوت يردد في تجويد وتفنن "يعلم بهم باري... يعلم بهم باري!!"

وأسرعت بفك السلك الذي يربط النافذة وفتحتها بعد مقاومة فشاهدت منظراً عجيباً!! عبد الرحمن أحمد سلامة واقف وقد بسط ذراعيه وهو يتنفس بشدة ثم يضم ذراعيه بحركة رياضية ثم يعيد بسطهما.. فقال ببساطة بغير أن يلتفت إلى ناحيتي:

– صباح الخير يا دكتور.. أنا أعمل تمرينات تنفس.. الهواء نقي جداً يا دكتور مليان نيتروجين وفيتامينات.

ونظرت فشاهدت عن بعد شبحاً يجري بخفة الغزال وهو يلبس "فستاناً" أحمر فقلت:

– تمرينات التنفس مفيدة جداً ولكنها يا حضرة الوسيط لا تستلزم حمل المسدسات ولا الساعات الذهبية لعنة الله عليك يا شيخ كنت أريد "تسبيخك" ولكنك سبخت نفسك بالنتروجين.

ودخل وهو يضحك ضحكاً عميقاً بلذة تفوق الوصف وجلس على السرير، وقد أغمض عينيه طرباً وأخرج المسدس وخلع ساعتي من يده وأخرج من جيبه فطيرة أعطاه إياها بغير شك الشبح ذو الفستان الأحمر، فأمسكها بيده أمام فمه استعداداً لالتهامها، ولكنه أجل ذلك لحظة حتى يردد بصوته القبيح: "وأهل الصبابة يعلم بهم باري" وهو بذلك قد اكتملت له أعظم لذة عنده في الوجود، الغناء والأكل مع ما اكتسبه من الوجاهة والعظمة بالمسدس والساعة الذهبية.

سئمت نفسي هذا البيت المسكون ولم أجد به أثر أرواح ولا أشباح وعدنا في الصباح الباكر إلى منزلنا فشربت الشاي وأنا أفكر في الإشاعات المتوارثة عن هذا المنزل وهم يرجعون تاريخها إلى خمسين سنة خلت، ومضينا النهار في عمل بعض التمرينات المغنطيسية وفي صيد السمك. وبعد تناول العشاء بساعة سرنا إلى المنزل المسكون وقد تذكرت الشعور الغريب الذي انتابني ليلة أمس وأنا ساهد في صميم الليل، هل هو شعور

طبيعي من الأرق وغرابة المكان أم هو بدء الاتصال بيني وبين الروح المعذبة المرتبطة بهذا المنزل؟ فإني أعتقد بعد دراسات طويلة، أن الروح ترتبط بمنزل معين أو مكان معين لتؤدي رسالة "معينة" والناس يهربون منها ويجزعون، ولكن إذا أفلح أحدهم في تسلم الرسالة اختفت الروح نهائياً، وما هي في حقيقتها إلا رسالة من العقل الباطن لشخص مات وبقيت رسالته "التي أرسلها قبل أن يموت" على شكل شبح إلى أن يتسلمها أحد، وما هذا الشبح "إلا فكرة مجسمة" أو "رسالة مجسمة" وهي من معجزات العقل الباطن.

ووضعنا المصباح على حافة النافذة وأمضيت وقتاً طويلاً في القراءة حتى نسيت المكان والظروف، ثم فكرت أن أخرج مع عبد الرحمن فنتمشى قليلاً وكان الجو دافئاً فسرنا في طريق البوغاز حتى وصلنا إلى الفنار وعدنا وقد شعرت برغبة في النوم، فما استلقيت في الفراش حتى رحت في نوم عميق...

وتنبهت قليلاً قليلاً وإذا بي قد امتلأ قلبي بشعور قوي مزعج، شعور الخوف من خطر محقق مع ضيق في الصدر وانفعال هائل. فأشعلت المصباح وفحصت المكان فلم أجد ما يلفت النظر وأنا أعلم علم تجربة أنني تسلمت هذا الشعور من الخارج لأن المنوم المتمكن حساس أيضاً لتلقي الأفكار بطبيعة تمريناته وقوته، أما الوسيط فلا يتلقى الأفكار سواء في اليقظة أو في النوم المغنطيسي أو في أي حالة من حالاته إلا بمساعدة المنوم أو من المنوم نفسه.

وأيقظت عبد الرحمن وجلسنا قليلاً نتسامر وكانت الساعة لم تتجاوز نصف الليل. فاقترح أن نخرج ونطوف بالمنزل ففعلنا، وكما ذكرت قبلاً كان الجو دافئاً جداً كما يحدث دائماً عند الشواطئ بفعل ما يسمونه نسيم البر والبحر على ما أذكر. ورأينا بسهولة شبح شخص جالساً على أحد الأحجار الكبيرة المتناثرة هناك وهو ينظر إلى نافذة المنزل التي يضيء المصباح من ورائها، وكان الشخص نحيلاً ضئيلاً، وبالفعل وجدناه حينما تقدمنا إليه امرأة مسنة من أهل العزبة صماء وتكاد تكون كفيفة ووجهها مخدد مجعد وعيناها غائرتان وهي التي يسميها الصبيان "المجنونة" وهو اسمها الرسمي عندهم.

وكان شعور الخوف والانفعال العنيف وغيرها قد تلاشت من نفسي تماماً واعتقدت أنه كان "كابوساً" أو أضغاث أحلام، ولما رجعنا إلى المنزل أخذ عبد الرحمن يسأل عن الأرواح وطريقة الاتصال بها، وهل تؤثر على الوسيط وتؤذيه فقلت له إن الوسيط لا يمكنه تسلم أية رسالة إلا بمساعدة المنوم أو بأمر إيحائي منه، فصمت وهو يفكر.

وفي الصباح خامرتني الأفكار والظنون وزاد شغفي باستجلاء الأمر والاتصال بالأرواح وكان كثير من أهل القرية يتحدثون عن قصة "الرهان". وفي الليلة الثالثة سهرت في غرفتنا بالمنزل المسكون نحو ساعة في المطالعة كعادتي كل ليلة فإنني لا أنام إلا إذا استغرقت في القراءة، وفعلاً نمت بسهولة كالمعتاد ثم تنبهت بعد زمن لا أعلم مقداره ولم أستطع مقاومة الدوافع التي كانت تثور في نفسي وأنا لا أعلم شيئاً عنها، فوثبت إلى النافذة بحركة غير إرادية وفتحتها وأنا ألهث بعنف وكأنني سأهاجم عدواً مخيفاً ولم أشعر إلا وأنا أشير بيدي إشارات عنيفة وأضرب الهواء بقبضتي.

ثم شعرت فجأة كأن شيئاً ثقيل الوزن قد أزيح عني فهدأت وتنبهت تنبهاً تاماً، وأشعلت المصباح وقد بللني العرق، فأيقظت عبد الرحمن وقصصت عليه الأمر.

وفي تلك الليلة غلبني الوهن والملل فاقترحت أن نعود إلى مسكننا الأصلي فحملنا أشياءنا وخرجنا.. وما سرنا قليلاً حتى وجدنا شبح "المجنونة" وهي جالسة كالأمس في ذهولها. فقلت:

– سنسأل عن هذه المرأة في الصباح..

– وما علاقتها بالموضوع وهي امرأة فانية ولعلها تعيش على لقمة من بعض أهل الإحسان أو من بعض أهلها والصبيان يسمونها المجنونة.

– لا أرى لها علاقة بالموضوع ولكن جلستها هذه غريبة فهي تجلس رافعة الرأس ويخيل إليّ أنها أحياناً تثبت نظرها في نافذة الغرفة المضاءة.

– كل أهل العزبة يخرجون إذا كان الجو دافئاً وبعضهم ولا مؤاخذة ليس في منازلهم

دورات مياه وأغلب ظني أن المجنونة تنام في ركن قذر أو تحت سلم أو في عشة فراخ فهي تفضل طبعاً أن تجلس في الهواء الطلق أكبر زمن ممكن حتى يغلبها النوم فتبادر إلى فراشها "الأليم" ثم أن العجائز يا دكتور لا يحبون النوم وأنت سيد العارفين، فقد كانت جدتي تمضي معظم الليل في شرب الشاي والقهوة وتقول أنها "مستهوية" لا تحب النوم لأن صدرها إذا نامت يشخشخ، يعني عندها التهاب شعب مزمن مثلاً، أو بلغم أو ضيق نفس، يعني من غير مؤاخذة وأنت سيد العارفين شوية ربو قديمة، شوية تصلب في شرايين الرئتين يجعلها تفضل الوضع الجلوسي،كما قال الدكتور عن جدتي وأنا أتذكر كل كلامه...

وفي الصباح عاد الرسول الذي أرسلناه إلى دمياط، وأنزل من السيارة المحطمة لفة كبيرة حملها إلى غرفتنا بمنزل الأسطى إبراهيم صالح وأخرجنا منها الفطير الدمياطي وهو مازال ساخناً برغم طول الطريق وذلك لإحكام لفه بالورق، فأفطرنا فطاراً ثقيلاً ولم أشعر بميل لتمرين الوسيط وخرجت وحدي فمشيت إلى الفنار ثم انحرفت إلى الشرق في الأرض المغطاة بالملح وسرت إلى بحيرة المنزلة وهي مسافة طويلة، وأنا أصغى لتكسير الأرض الملحة تحت خطواتي كما يتكسر الخبز الجاف ووقفت زمناً أراقب مراكب البحيرة وهي من طراز خاص يسمونها "الزهرية" ونوع آخر يسمون الواحدة منه "الصال" ولها قلوع هائلة الارتفاع، وكنت في نفسي أفكر في حديث عبد الرحمن وما يظهره أحياناً من الذكاء الشديد، ولا شك أن آراءه بخصوص "العجوز المجنونة" آراء صائبة وكنت خليقاً أن أعرفها بغير أن يلفت نظري إليها، ولاسيما أننا كثيراً ما كنا نرى مسعود البحري يجلس على الأريكة الخشبية أمام القهوة قرب منتصف الليل، والقهوة نفسها مغلقة الأبواب ومعه عجوز أو عجوزان ويقول لنا أنه لا ينام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات وهذا طبعاً يرجع لبعض الأسباب التي ذكرها عبد الرحمن ويرجع أيضاً لكثرة ما يشربون من الشاي والقهوة والطباق ولأنهم لا يمارسون أي عمل في العطلة أي بعد انقضاء موسم الاصطياف فيغنيهم الجلوس الطويل والاسترخاء والهدوء عن كثرة النوم، مع تقدمهم في السن.

ولما انتهيت من تأملاتي على شاطئ بحيرة المنزلة عدت إلى عزبة البرج مخترقاً الأرض

الرملية وهي التي تقع بين مصب فرع دمياط من النيل وبين بحيرة المنزلة فوصلت المنزل حول الساعة الثانية، وقد أجهدتني حرارة الشمس المحرقة مع أننا في أوائل الشتاء، ونمت فلم أتنبه إلا قرب الغروب فقال عبد الرحمن وهو جالس إلى المائدة الصغيرة وأمامه "السبرتو" أي الموقد الصغير الذي يعمل بالكحول، يصنع لنا القهوة.

– أظن ميعاد التمرين قد فات اليوم.

– يمكن عمل بعض تدريبات سريعة، ولكن انتظر الحقيقة أن عزلتي وتأملاتي في الصباح قد أراحت أعصابي ولو أنني لم أتأمل شيئاً معيناً له أهمية في الموضوع، ومن العجيب أن معظم الناس إن لم يكن كلهم يعتقدون أن الخلوة أو الهدوء أو الاسترخاء أو التريض في الخلاء هي أنسب الأوقات للتفكير وحل المعضلات وهذا خطأ فالهدوء والصمت وجمال الطبيعة تقوي الإلهام وتجلو القوة الفكرية، ويصبح الإنسان بعد ذلك مستعداً للتفكير والبحث وليس في أثناء وقت الراحة.

وانتهيت من محاضرتي ولم اهتم بإقناعه ما دمت أنا نفسي قد اقتنعت. فخرجت أمشي وحدي في الحقول حتى راق لي الجلوس على ضفة مجرى الماء الصغير الذي يسير موازياً للنيل وقد سحرني الهدوء وأضواء الغروب وهي تنعكس في الماء فخيل إليّ أنها نار الذكريات قد بعد بها العهد ففترت ولم يبق منها غير ظلال اللهيب، ولكنها ظلال أمن وسلام وهدوء وادع، ولم أعرف في حياتي رسماً من الأضواء والظلال يمثل الذكريات القديمة الوادعة مثل هذا المنظر، منظر الغروب عند هذا الجدول، في سكون الطبيعة الشامل مع ما يحدثه شفق الغروب من انقباض مجهول السبب، ولكنه عذب وله نشوة عميقة، كالذكريات القديمة إذا فترت نارها فهي عذبة ولها نشوة وفتون!! ولها انقباض قد بعد الزمان بأسبابه!!

وكان من الطبيعي هنا أن أذكر قصيدة لي اسمها أنفاس الزنبقة كنت كتبت لها مقدمة هي (في ذات يوم مست أنفاسها وجه الشاعر!) وتذكرت منها رسم صورة الغروب.

أنفاسك اللاتي نعمت بها ... عطر الحياة ونسمة الخلد

... ...

وتنهـــد الشـــفق الحـــزين علـــى   خـــد الغـــدير مرقـــرق الخـــد

أنفاســـــه الحمـــــراء مشـــــجية   كتنهـــــد في المـــــاء ممتـــــد

كالـــذكر قـــد طـــال الزمـــان بـــه   فغـــدا لهيـــب الـــذكر كـــالبرد

وغـــدا ســـلاماً في الغـــدير كمـــا   نفضـــي إلى النســـيان مـــن وقـــد

وعدت أمشي مستمهلاً وقد خيم الظلام وفي نفسي صفاء ووداعة فقلت لعبد الرحمن قد صحت نظريتي! إن أردت حل معضلة فانس نفسك في سكون الطبيعة! والآن إليك فكرة رائعة جاء بها الإلهام. في هذه اللحظة، بعد أن نسيت نفسي وشرحت له نظريتي.

وفي تلك الليلة دخلنا المنزل المسكون الساعة العاشرة ليلاً، وألقيت الوسيط في نوم مغنطيسي عميق وقلت له الآن سأوقظك فتعود إلى حالتك الطبيعية، ولكن عند استلقائك في الفراش ونومك نوماً طبيعياً ستتحول إلى النوم المغنطيسي من تلقاء نفسك وتمكث في درجة الكشف بدون أن تشعر بأي إجهاد، ويمكنك في أي وقت، وأنت في حالة النوم المغنطيسي هذا أن تناديني وتكلمني. ثم أيقظته ولم يسأل كعادته أي سؤال يختص بهذه الجلسة المغنطيسية، وأمضينا ساعة في الحديث والسمر ثم استلقى كل منا في فراشه، واستغرقت في النوم بعد وقت قصير.

ومثل كل مرة أيقظني شعور مزعج بأن خطراً مخيفاً قد حاق بي، وثارت كذلك في نفسي ثورة غضب أهوج كالجنون كأني أريد أن أندفع إلى شخص أو شيء مجهول فأمزقه، وأرهفت السمع فلم أسمع شيئاً... فقمت إلى النافذة وفتحتها قليلاً فإذا بالعجوز المخبولة واقفة عن بعد وقد غطت نفسها بالأسمال، واقشعر جسدي وشعرت بغرابة موقفها وقلت

لعلها من المجانين الذين يستهويهم النظر إلى القمر أليس اسمهم بالإفرنجية **Lunatics** أي القمريين؟

وعدت إلى فراشي حانقاً وثارت بي غلواء الشباب وفتوته وغروره فساءني أن تغلبني الأوهام واستسلم لإحساسات خيالية لا مبرر لها فأرخيت عضلات جسدي وتحكمت فيها تحكم المنوم (بكسر الواو) المتمرس بالتمرينات والتدريبات، وأخذت أتنفس تنفساً هادئاً منتظماً حتى احتواني عالم النسيان والنوم، وأنا مرتاح النفس لتحكمي في أعصابي. ولا أعرف كم مضى عليّ من الزمن قبل أن تحدث هذه الحادثة المريعة التي كشفت سر المنزل المسكون. فقد نبهني شعور قوي عنيف سرى في نفسي بدافع أعظم مما تحتمله أعصابي فشعرت بوضوح أنني خاضع لقوة تركيزية كبرى، وكنت لم أتنبه تماماً حين كان عبد الرحمن قد وثب من فراشه وهو يصرخ صرخات غضب جنوني وهجم على النافذة ففتحها بعنف وهو يرتج غيظاً وغضباً ووثب إلى الأرض وهي مسافة قصيرة جداً، وقمت من فراشي فزعاً وأنا أسمع صوت قتال عنيف ولطم وتماسك، وفي أسرع من البرق كنت عند النافذة لأثب منها إلى الأرض ولم يخطر ببالي أن أتناول المسدس. وعند النافذة وقفت مذهولاً وقد شلت الدهشة حركتي.

كان عبد الرحمن يقاتل الهواء! يقاتل خصماً لا وجود له! ومن العجيب أن حركاته كانت حركات رجل أمامه خصم يقاتله ويدفعه حتى أنني كنت أتخيل وجود هذا الخصم وأنني أراه وقد أطبق على عبد الرحمن وأخذ بعنقه يعصره عصراً. ووثبت من النافذة وكان الوسيط قد سار بعيداً عنها نحو عشرين خطوة وسقط على الأرض مثل جثة هامدة. وفحصته فوجدت نبضه سريعاً برغم أنه غائب عن الصواب وهي حالة لا تنطبق على المألوف طبياً ولكنها تحدث في ظروف أعرفها تماماً وهي أن الوسيط تحت تأثير قوة مغنطيسية جبارة، وكل شخص يقع تحت تأثير قوة فكرية عنيفة يرتفع نبضه وضغط دمه ارتفاعا كبيراً ويتبع ذلك طبعاً سرعة التنفس، ونقلته إلى الفراش وأشعلت المصباح فوجدت في عنقه سحجات كثيرة وتسلخات وجروحاً وآثار أصابع آدمية قوية حاولت خنقه، ويا للعجب ألف مرة!!!

ولو لم أكن أشاهد هذه المعركة الخيالية لما صدقت عمري أنه كان يقاتل الهواء، وأن الهواء – أو الشبح غير المنظور – أخذ بعنقه فخنقه ورماه أرضاً وأن الوسيط اتخذ وهو طريح صورة رجل قتيل، ولشدة انفعالي بدأت بالإسعافات الطبية وهو خطأ ساقني إليه غرابة الحادث، ولكني تنبهت لخطأي حينما وجدت الإسعافات الطبية لم تجد فتركتها وقمت بعمل سحبات مغنطيسية على جسم الوسيط من قمة رأسه حتى قدميه مع إيحاء بالنوم العميق والراحة والاطمئنان، وبعد نحو ساعة كان الوسيط يغط في سبات عميق فأمرته أن يحتفظ بعد اليقظة بتفاصيل ما حدث ويقصها علي. ثم أيقظته بالطريقة المغنطيسية العادية.

قال عبد الرحمن أحمد سلامه الوسيط المغنطيسي:

تنبهت من نومي مذعوراً وأنا أشعر أن دمي يغلي في عروقي وأحسست في الحال بغضب شديد وفهمت أن شخصاً نذلاً يعتدي على منزلي وعرضي وأنه أمام المنزل فوثبت إلى النافذة ورأيت منظراً غريباً لا أعلم ما هو ولا أين هو ما زال مطبوعاً في ذهني، رأيت الأرض الفضاء التي أمام المنزل وهي الآن من الحصى والتراب والقاذورات فإذا بها مقسمة إلى بعض أحواض صغيرة وبها مزروعات خضراء وأصص (أي قصاري زرع) كثيرة ونباتات خضراء متسلقة تزين مدخل المنزل ممتدة على (تكعيبة) أي حوامل خشبية رفيعة، ورأيت صبية حسناء في ثياب النوم وشعرها منسدل على كتفيها وبجوارها شاب غير واضح المعالم وشعرت أنه يعتدي على شرفي وعرضي فانقضضت عليه وقد أعماني الغضب وأردت أن أمزق وجهه، وكنت أثناء القتال أشعر بجسمه وأنفاسه وهو يلهث في وجهي بكل وضوح بل أكثر من ذلك أدركت أن لي به صلة معرفة سابقة وأنني أعرف شخصيته تماماً وأنه يعرفني. ووجوده أثناء المعركة حقيقة لا شك فيها حتى أنني كنت أشتم منه رائحة العرق والماء الملح وأعرف أنه بحار. وإني لا أنسى مطلقاً المنظر العجيب الذي رأيته أمام المنزل وهو الزرع والتكعيبة وعليها نبات متسلق لعله لوف أو عنب لست أدري، وأصص الزينة وبها زهور، ومازلت منزعجاً جداً وأعتقد أنه قد حدثت لي فاجعة عنيفة بظهور هذا الشبح. وتمت أقوال عبد الرحمن.

وفي اليوم الثاني ألقيته في نوم مغنطيسي عميق وطلبت منه أن يحذف هذه الحادثة من ذاكرته ثم أيقظته فقام منشرح الخاطر واستأذن في الذهاب إلى دمياط.

– وماذا تصنع في دمياط؟

– سأشتري بعض أشياء لي وأفاجئك عند الظهر بغداء مبتكر فلا تأمر بتجهيز غذاء حتى أحضر

فأعطيته بضعة جنيهات، وانصرف، وهكذا مضت بضعة أيام وهو يوالي الذهاب إلى دمياط للبحث عن وظيفة أو عمل، ولشراء حلويات دمياط التي يحبها (المشبك) و(اللديدة) و(البسيمة) ولشراء السمان أي السماني حيث يرسله إلى الطباخة البارعة (حسيبة) لكي (تدفنه) كما يقول تارة في الأرز وطوراً في الفريك أو تقدمه لنا مشوياً غارقاً في ذهنه، أما أنا فكنت أوالي البحث عن سر هذا الشبح غير المنظور في هذا المسكن المهجور، فعلمت أنه حدثت فيه حادثة عجيبة منذ ستة وأربعين عاماً.

فلما عدت إلى القاهرة أخذت بمعاونة بعض أصدقائي نراجع صحف الأهرام والمقطم في دار الكتب لنتحقق من الحادثة التي رواها لنا بعض المسنين في بعض القرى المجاورة لعزبة البرج، وكنت كذلك أعلق الآمال على مسعود البحار و"منظومة" العجوز المسكينة التي لا تكاد تسمع أو ترى وكنا نظنها شبحاً!! ويا له من شبح بائس!!

أما مسعود فقال إنه سمع من عمه الذي يعيش الآن في الشيخ ضرغام ومن بعض معارفه أن أسرة من البحارة من تجار بيروت كانوا ينقلون التجارة بين بيروت ودمياط ولهم عدة شخاتير كان يشاركهم فيها ريس بحري من عزبة البرج – وهو أصلاً من دمياط – يسمى رضوان أبو المعاطي كان يتعهد بتقديم البحارة في كل رحلة ويمتلك نصيباً من الشخاتير، وأنه في إحدى رحلاتهم ذهب معهم إلى بيروت وأصهر إليهم – أي تزوج منهم – شابة مليحة بارعة الحسن في الخامسة والعشرين من عمرها وبنى في عزبة البرج هذا المنزل الصغير وأحاطه بحديقة وتكعيبة، وفي ليلة من الليالي فاجأ زوجته في الحديقة في منتصف الليل مع شاب بحار من بلدها، وهنا اختلف الرواة فمنهم من قال إنه قتله

وهرب ومنهم من قال إن العشيق هو الذي قتل الزوج، ولكني رأيت حقيقة القصة بكل بساطة تحت عنوان (لمراسلنا في دمياط) في عدد من جريدة المحروسة التي كان يصدرها المرحوم إلياس زيادة والد المرحومة الآنسة مي بتاريخ ١١ من ذي القعدة سنة ١٢٩٨ الموافق ٤ أكتوبر عام ١٨٨١ وفيه ما خلاصته أن الزوج قفز من النافذة فانقض عليه العشيق وسمع بعض الجيران ضجتهم وما تبادلوه من الكلام فأدركوا سر الأمر، وفي الصباح الباكر أقلع البيروتي أي العشيق في شختوره ومعه عشيقته، أما الزوج فلم يقف له أحد على أثر مطلقاً.

هذا ملخص ما كان في جريدة المحروسة، أما منظومة المجنونة فلم نستطع أن نتفاهم معها مطلقاً لعلها تعرف أو سمعت شيئاً عن هذه الحادثة، ثم قيل لنا إنها جاءت إلى عزبة البرج منذ خمسة عشر عاماً فقط وليس لها عائل فأخرجتها من دائرة تفكيري وبحثي. وبعد كثير من المراجعة قرأت في أحد أعداد (الأهرام) الصادرة في ذلك الوقت ختام الخبر فانتفضت دهشة وطرباً وهذا هو بنصه "والظاهر أن منظومة الحسناء كانت على صلة بأحد مواطنيها قبل مجيئها إلى مصر ولعل أهلها أرغموها على الزواج من الريس رضوان فجاء عشيقها بحجة التجارة وصار يتواصل معها (هكذا ورد بالجريدة حرفياً) أما جثة الريس رضوان أبو المعاطي فلم يوجد لها أثر ولعل هذا المجرم أخذها معه في الشختور ورمى بها في عرض البحر وإن ربك لبالمرصاد".

إذن فمنظومة العجوز المخبولة هي منظومة الحسناء بطلة القصة!!!

وكانت فائدتي من الناحية العلمية واضحة جداً، نوّمت الوسيط وقلت له إن نحلة قد لدغته فأخذت كفه تحمر وتتورم فوراً، ولم تلسعه نحلة مطلقاً وقلت له إنني قطعت إصبعه بالموسى فسال الدم من إصبعه بعد دقيقتين وأنا لم أجرحه بالمرة. وقلت له وهو في النوم المغنطيسي إن أحد المتشردين قد دخل الغرفة وإنه يقترب منه وإنه أخذ بخناقه؛ فهب مذعوراً وأخذ يتشاجر مع الهواء ويضربه ضرباً عنيفاً ويصرخ صرخات غضب وقتال...

وقد فتحت هذه التجربة آفاقاً عريضة جديدة من البحوث أمامي في الأمراض النفسية والأوهام والوساوس والتنويم وظهور الأشباح والأرواح، بل في الفن الأسود نفسه أي التأثير على الغير، ولا داعي لزيادة الشرح فمن يتأمل يصل إلى السر.

أما منظومة فالظاهر أن عشيقها استقر بها زمناً في مكان آخر أو مات عنها فلم تستطع العودة إلى أهلها، أو لعلهم ماتوا أو تفرقوا بعد هذه السنين فلم تجد سوى عزبة البرج ملاذاً، وقال لي أحد البحارة إنها جاءت في أحد الشخاتير ولعلها كانت تعمل فيه طباخة أو غسالة ولما وجدت لها ملجأ في عزبة البرج أقامت بها، وكانت تجلس في مكانها مذهولة ضائعة العقل فهي لم تكن تنظر بعينيها المظلمتين بل بعقلها الباطن – بعين القوة الفكرية وقوة التخيل والتصور – فترى المنظر المفجع كما حدث وكما انطبع في وعيها، وهذا التخيل العنيف والتركيز الكامل الناتج من ضياع قواها العقلية الأخرى – أي من ذهولها – كل هذه ألقت علينا قوة فكرية قاهرة تسلمتها أعصابنا وخضعت لها وقامت بتمثيل المنظر نفسه، فنحن لم نصادف روحاً أو شبحاً وإنما صادفنا قوة عقلية مركزة يمكنها أن تأمر حواسنا فترى وتسمع بل وتلمس ما ليس له وجود حقيقي، ومن السهل أن يجرب ذلك مع الوسيط فقد ألقيته في نوم مغنطيسي وأفهمته أن فلاناً جالس أمامه ثم أيقظته فأخذ يتسامر ويتحدث مع الكرسي الذي أمامه وليس عليه أحد.

والوسيط يخضع لأمر بسيط من المنوم، فيرى ويسمع ما لا وجود له وتصيبه جراح يحدثها عقله الباطن متى وصله الأمر بذلك وتسيل دماؤه، أما الشخص العادي فيخضع بالضبط كما يخضع الوسيط ولكن لا يخضعه إلا قوة كبيرة مثل تركيز العجوز العمياء الصماء التي كانت بطلة المأساة. أما عبد الرحمن أحمد سلامة الوسيط فلم يكن يشغل باله شيء من كل هذا بل قيض الله له عملاً في دمياط نفسها، فعمل في مصانع حرير اللوزي بمرتب ثلاثة جنيهات وأظن عمله هو ملاحظ عمال أو شيئاً من هذا القبيل، وقد وصلني منه خطاب بعد أكثر من سنة يذكر فيه أن والده الشيخ أحمد سلامة قد توفي وأنه صفى كل ميراثه وأقام في دمياط وتزوج واشترك في محل بقالة صغير مع أحد أقرباء زوجته بقيمة النصف، ويقول في ختام خطابه: "وهكذا قد أصبحت من الوجهاء فأنا يا سيدي

الدكتور رجل حسيب نسيب وزوجتي أيضاً (حسيبة) وإذا تنازلت بتشريفنا في منزلنا بسوق الحسبة نمرة ١٢٤ بدمياط قدمنا لك عشرة أصناف من السمك على الأقل..... دا الحب دائي، وكل الناس مرضى به! والصبر طيب ولو كان مر نرضا به"

محسوبكم عبد الرحمن أحمد سلامة

الوسيط الجبار وصاحب محل بقالة الأعيان ومدير مصانع اللوزي

الحياة بعد الموت

"وهي حالة نفسية من بورسعيد"

إن السعادة لا تنبع عادة، ولاسيما في نظر الشباب، إلا من المنبع الخالد– الحب– ولكنها كثيراً ما تقطع شوطها عبر اللهيب والموت فتصل.. وترتوي بالدم والدموع فتزهر...!

***

لست كاتب قصص، وإنما اجتمعت بين يدي خيوط هذه القصة حتى تماسكت وتم نسجها، فرأيت أن أقدمها للقراء لأنها تتضمن علاج مرض يشكو منه الكثيرون، وأنا رجل طبيب مارست كثيراً من فروع الطب المختلفة حتى أرسى بي المطاف على ممارسة الطب النفسي، ففي ذات يوم دخل عيادتي زائر من بورسعيد شاب عند حدود الثلاثين أميل إلى السمن، وفيه ترهل وتراخ. وبعد المقدمات قلت له:

– إنني في الجلسة الأولى أستمع إلى الأعراض التي تشكوها وإلى تاريخ حياتك باختصار.

– إن قصتي بسيطة فقد أتممت التعليم الثانوي ثم انضمت إلى والدي في محل تجارته في بورسعيد ونحن نتاجر في التحف والهدايا والأقمشة الثمينة وبعض المصوغات النفسية، ومعظم عملائنا من السائحين وركاب البواخر العابرة، وقد كنت راضياً بعيشتي ولو أن حالتي أقرب إلى الاستسلام منها إلى القناعة والرضى.

– وما هو المرض الذي تشكو منه أو الأعراض التي تعتبرها أعراضاً نفسية رأيت معها أن تقصد طبيباً نفسياً.

– سأكون صريحاً معك –كما أفهمتني – إلى آخر حدود الصراحة، فالحقيقة أنني كنت بخير حتى وقعت في حب آنسة من جيراننا أراها تارة في زياراتهم لمنزلنا وطوراً في

المحل، وهي في نحو العشرين من عمرها تتخطر في مشيتها بدلال بريء يفتنني ويلذ لي حتى يكاد يثير فيّ حباً كالجنون، وأنا أعلم أن أهلها يرحبون بي كل الترحيب زوجاً لها، ولكني كلما فكرت في ذلك أحسست شعوراً غريباً لا أعرف كيف أصفه لك بالضبط فلعله نوع من الانقباض الممزوج بالخوف والتراجع؛ وقد أخذ يتزايد في نفسي ويملك علي تفكيري حتى أصبحت خائر العصب واهن القوى أتعب تعباً واضحاً من أقل جهد وقد أظهر الكشف الطبي الدقيق المتكرر أنه ليس بي أي مرض.

وهنا انتهت الزيارة الأولى بعد استعلامات قليلة ثم توالت زيارات هذا المريض، وكان يأتي إلى القاهرة في فترات منتظمة لقضاء بعض أعماله التجارية، واتجه تفكيري في أول الأمر إلى أنه مصاب بضعف جنسي وقلت لعل هذا الضعف قد نشأ من عقدة الارتباط بالأم أو من مركب النقص، وستظهر الدراسة والتحليل ما كان خافياً. وبالفعل ما تكررت زياراته حتى وضحت لي حالته، ففي مساء يوم من أيام شهر أكتوبر عام **١٩٥٦** أخذ يشكو مر الشكوى من التعب والوهن قائلاً:

– إنني يا دكتور في الثامنة والعشرين من عمري وجسمي قوي وصحتي طيبة ومع ذلك أتعب تعباً شديداً من أبسط عمل حتى أكاد لا أستطيع الوقوف أو التحدث إلى عميل، وإذا أخذت في مراجعة حسابات المحل ارتبكت وتشتت فكري حتى أني أراجع الحساب مراراً وتكراراً خوف الخطأ، وكل حركة أقوم بها تجهدني، فأنا مريض بلا مرض وعليل بلا علة.

وزفر زفرة حرى وأشاح عني وقد أغمض عينيه مستسلماً ليأس مر، فقلت له:

– قد ظهرت لي حقيقة مرضك ووضحت لي حالتك فليس بك من مرض جسدي كما تعلم وكما ثبت من فحص عدة أطباء، ولكن تتبع ما أقول لك بكل عناية واكتبه على الورق ثم انقشه على صفحة قلبك. إن طريقة معيشتك تجرى على وتيرة واحدة فإنك تخرج من بيتك في ميعاد محدد وتنصرف من المحل في ميعاد ثابت، ويتبع ذلك بطبيعة الحال أن يتم كل شيء في حياتك في ميعاد واحد يومياً لا يكاد يتغير،

كالأكل والنوم والقراءة والسفر حتى شرب القهوة والشاي! وأنت تقطع نفس الطريق بين المنزل والمحل كل يوم أربع مرات فخمدت همتك وضعف نشاطك، وتصور آلة قوية متينة تترك حتى يعلوها الصدأ، فلو أنها تحس وتعقل لقتلها الملالة والضجر والعيش الرتيب.

– ولكني يا دكتور مشغول باستمرار بعملي، وقد كنت أخرج في بعض رحلات لصيد البط مع والدي وبعض أصدقائي في بحيرة المنزلة ولكن كثرة العمل منعتني عن ذلك وقتاً طويلاً.

– نعم إنك مشغول بعمل واحد على وتيرة واحدة ولكن للعقل– كما للجسم– أكثر من ناحية من نواحي النشاط يجب أن تعمل كلها، والاقتصار على عمل واحد متشابه يجهد ناحية معينة من الجهاز العصبي بينما النواحي الأخرى المتقاعدة يعلوها الصدأ والغبار! وحينما وقعت في حب هذه الآنسة اهتزت هذه النواحي المعطلة الخامدة هزة عنيفة فكأنها آلة أهملت زمناً طويلاً في ركن من الأركان ثم أطلق فيها فجأة تيار كهربائي قوي لتعود إلى العمل فعجزت وارتبكت، ولم تستطع التحرك لطول ما سكنت وصدئت! ومن هنا شعورك بالاضطراب والعجز، فمرضك هو الملل الشديد والسأم القاتل وتشابه المعيشة، ولعلك تعلم أن الملل هو سبب الوهن الذي تشعر به فإن الإنسان يتعب من ممارسة ما يكره أشد التعب، وعلى النقيض من ذلك إذا تماديت في شيء يلذ لك أداؤه شعرت بالتعب ممزوجاً باللذة والرضى، والتعب الطبيعي يصحبه شعور لذيذ بتوقع الراحة، فالتعب ليس معناه العناء والعذاب كما يعتقد معظم الناس.

– وكيف يضيق صدري بالحب مع أني أهوى هذه الآنسة الصغيرة هوى شديداً حتى لأجن طرباً من سماع لفظها العذب وصوتها الرقيق وآرائها الصبيانية اللطيفة.

– لأن الحب كما سبقت بالقول خاطب فيك النواحي الخامدة. فطريقة معيشتك متشابهة وراكدة.. فأين طموح الشباب وثوراته العارمة التي لا تهدأ! عليك بالأسفار والرحلات والأهوال والمشقات لترضي قوة الحياة وثورة الشباب المكبوحة المكبوتة، القوة الدافعة العظمى التي خلقها الله في كل نفس! إياك أن تحبسها فإنها كالبخار الحبيس إذا

زاد ضغطها مزقتك وتركتك للصدأ والتراب حطاماً. ألا تعلم أن الشاب إن لم يكن قد خاطر بحياته ولو مرة واحدة فهو شاذ عما خلقته وهيأته له الطبيعة من المؤهلات أي أنه يعتبر من الناحية النفسية مريضاً أو غير طبيعي في استسلامه وضعفه وجبنه أكتب في مذكرتك أن الملل.. الملل.. هو داؤك الدويّ.. تأمل كيف تمشي متثاقلاً بملل! وكيف تجلس كما اتفق بملل على جانب المقعد وكيف ترشف أحياناً رشفة واحدة من فنجال القهوة ثم تتركه، وكيف تشعل لفافة من التبغ وتنفث منها نفساً أو نفسين ثم تملها فتنساها، وكيف تدخل عندي محملاً بمجموعة ضخمة من الصحف والمجلات وتتركها وتنصرف حتى أنك لا تكاد تعرف شيئاً عن أخبار القناة ودسائس هؤلاء اللصوص السفلة من الإنجليز والفرنسيين الذين يدعون أنهم قواد وهو قوادون! اكتب في مذكرتك أنك مللت الحياة والحب! نعم مللت الحياة نفسها ومللت الحب نفسه! وضقت به صدراً! لأنه يريد أن يثير فيك ثورة الشباب وتوثبه وطموحه وشهامته وغلوائه! والحب الحقيقي مرتبط أبداً بالقوة الدافعة العظمى التي لا تهدأ وإنما تتوثب مثل ألسنة النار الجامحة. إنك تضيق صدراً بالحب لأنه أراد أن يحرك فيك نفساً علاها الصدأ فهي تصر صريراً...

وتوالت زيارات المريض فوضعنا له البرامج والتوجيهات والتمرينات النفسية والجسدية غير أنه بقي يرسف في قيود ثقيلة من طبيعة عمله الراكد الرتيب. وكيف يفعل الطبيب في هذه الأحوال وكيف يوفق بين عمل المريض وبيئته وبين طبيعة الجسم والنفس! هل أقول له اخرج لصيد الأسود والنمور لتوقظ شبابك المتعطل ونفسك الآسنة!؟

ومازال يدخل عيادتي وهو يمشي متثاقلاً يعتمد بيديه على كل ما يصادفه حتى يجلس بهدوء واتزان ويتكلم بهدوء واتزان!، وهذا في سن الشباب أقرب إلى المرض منه إلى العافية وأدنى إلى الاستسلام والخمود منه إلى سجية النفس الطليقة.

وتصرمت أيام شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ وسط القراصنة واللصوص على بورسعيد ولم يخش المصريون بأسهم، وكيف ونحن نعلم أن الإنجليزي أو الفرنسي قد يترك وراءه

امرأته وهو يعلم أنها تخونه مع صديقه، ومع ذلك يوصي هذا الصديق بملازمتها ورعايتها حتى يعود!! يا لها من إنسانية راقية وعطف بليغ!! وفتكنا باللصوص فتكاً كثيراً وارتبكت الأحوال وانقطعت المواصلات والبريد، ولم أتوقع أن أرى مريض بورسعيد إلا بعد زمن قد يطول وقد يقصر، فمرت معظم أيام شهر نوفمبر وأنا أقول لنفسي لعله جريح يعالج في أحد المستشفيات أو لعله هرب قبل وعكة المعركة... وأنا في هذه الأفكار، أراجع الصحف المكدسة أمامي إذا بي أسمع دق عكازه على الأرض واستأذن في الدخول على زائر، وإذا به هو مريض بورسعيد. دخل رافع الرأس ثابت النظرة، في عينيه لمع بريق العزم والقوة والشباب الثائر، وقد زال عنه شحم كثير، وفي يده عكازة ثقيلة يتوكأ عليها ورجله معصوبة ومضمدة بالجص (أي الجبس) وذراعه اليسرى معلقة في عنقه وعليها أيضاً ضمادات سميكة من الجص الأبيض.

وغلبت علي الدهشة لما يبدو عليه من القوة والنشاط برغم تعدد إصاباته وخطورتها، وعلمت أن له قصة طويلة فابتسمت له مشجعاً وأجلسته وآثرت السكوت، ولكنه بادرني قائلاً:

– يا سيدي الدكتور سأسرع بسرد قصتي عليك لأني أصبحت لا أطيق المكث في مكان واحد وإضاعة الوقت بغير حركة وكاهلي مثقل بالأعمال التي ينبغي عليّ قضاؤها في الحال، وأحمد الله الذي شفاني من الوهن والخمود ومن اليأس والأفكار السوداء وقد أصبحت الحياة في نظري فرحة وعرساً بعد إغارة اللصوص على بورسعيد، وهذه الإغارة هي التي شفتني من مرضي وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

ثم صمت قليلاً ليسترد أنفاسه وعاود حديثه قائلاً:

– ولا تظن أني أنكر فضلك فتوجيهك لي كان أساس شفائي ولعل كلمة واحدة من كلماتك كان فيها الكفاية.

– قلت إن الشفاء بيد الله

– سأحكي لك القصة كما حدثت بالضبط.

– أرجو أن تسرع بذلك.. هناك أسئلة كثيرة لا أكاد أطيق الصبر عنها

– كنت أجر قدميّ جراً من فراشي إلى المائدة لأشرب شيئاً من الشاي والمدينة في هرج ومرج ودوي القنابل يصم الآذان وقد علا الصراخ، ما بين صراخ الفزع من الأطفال والسيدات وصيحات المدافعين المصريين كأنها زئير الأسود الغاضبة، والحقيقة أنني لم أكن متمالكاً تفكيري السليم ولم أستطع أن احصر ذهني في شيء معين، فسلمنا أمرنا لله وأصبحنا كأننا قد فتحت علينا أبواب الجحيم، وهجم علينا الجيران الذين اعتادوا في الغارات اللجوء إلى منزلنا، وكنا حتى هذا الصباح المشئوم المبارك نعتقد أن منزلنا منيع جداً ضد الغارات وغير مرغوب في احتلاله من اللصوص لأنه غير مرتفع.

ثم سكت لحظة عن سرد قصته وارتشف القهوة بسرعة عجيبة وهي لم تزل ساخنة يتصاعد بخارها، وعاد إلى حديثه قال:

– الواقع أن منزلنا حديث البناء وهو غير مرتفع لأنه (فيلا) وبه شرفة (فراندة) فسيحة تدور حوله من ثلاث نواح أما المخبأ فقد كان في الأصل غرفة لمبيت الخادمات أو بتعبير أدق نصف غرفة لأن مساحتها ثلاثة أمتار طولاً ومتران ونصف عرضاً وليس بها من نوافذ سوى كوة عالية مستديرة في جدارها الخلفي، أما بابها فيكاد يكون مختفياً بين أبواب الحمامات ودورات المياه فإن الفيلا فيها حمامان ودورتان للمياه، وفي أعلى باب المخبأ أيضاً كوة صغيرة مفتوحة في الجدار للتهوية مماثلة للكوة الخلفية، ولما كان كل من في المنزل من الخدم رجالاً فإنهم لا يبيتون به فاستخدمنا هذه الغرفة لنضع فيها أدوات الصيد فعندنا أربع بنادق خرطوش عيار ١٢ ومقادير كبيرة من الخرطوش والرصاص ثم بعض المسدسات الممتازة الجبارة ومعظمها ألماني من أسلحة الحرب الماضية ومن بينها مسدسات يمكن أن يضاف إلى كل منها كعب كبير من الخشب خاص به فتتحول إلى بنادق دمدم سريعة الطلقات، وأظن أنني أخبرتك بأننا في وقت من الأوقات كنا نخرج كثيراً في رحلات الصيد ولنا أربع لبدات في بحيرة المنزلة.

– ماذا تقصد بكلمة أربع لبدات؟

– اللبدة هي مخبأ وسط البحيرة في جزيرة بمكان مناسب لصيد البط في مروره بها، ولنا لبدتان في جزيرة شرم الجمل ولبدتان في النجع الشرقي وكنا نخرج للصيد في موسم البط مرة كل أسبوع أنا ووالدي وبعض أصدقائنا وكثيراً ما يكونون من الأجانب، وأحياناً كنا ندعوهم للغداء في نفس البحيرة فكنا نحضر معنا بعض الخدم والكراسي والموائد الانطوائية وغير ذلك من المعدات التي نملك منها شيئاً كثيراً، ثم أخذ والدي يقلل خروجه إلى الصيد شيئاً فشيئاً حتى تكاسلت أنا أيضاً.

وسكت المتكلم قليلاً ثم ابتسم وهو يصلح وضع ساقه المكسورة المضمدة بالجبس وقال:

– لا تظن أننا خرجنا عن الموضوع كثيراً فكل هذا له علاقة بالموقعة الكبرى التي أسميها موقعة الشفاء أو موقعة السعادة.

– والله إنني لأستمع إلى قصتك بلهفة وشوق عظيم فأرجو أن تسرع ولا تتباطأ، ولو أنني استنتجت طبعاً طرفاً مما حصل لأن السعادة لا تنبع عادة، ولاسيما في نظر الشباب، إلا من المنبع الخالد – الحب، ولو أنها كثيراً ما تقطع شوطها عبر اللهيب والموت فتصل...!! وترتوي بالدم والدموع فتزهر!

فتنهد بارتياح وقد بانت عليه علائم السعادة والرضى وأغمض عينيه كأنه في حلم جميل أو كأنه يستجمع أفكاره، أو لعله يحاول تهدئة ثورته النفسية الجياشة، ثم عاود قصته قائلاً:

في ذلك الصباح المشئوم المبارك هجمت على منزلنا جموع الجيران ولا أكتمك الحقيقة أن بعضهم كان في حالة فزع عجيب، وأنا نفسي لم أتنبه لهم ولكل ما حدث إلا فيما بعد، فتذكرت السيدات وقد تمزقت ثيابهن وبعضهن في قمصان النوم وبعضهم حفاة ومنهم من يحمل طفلاً أو مسدساً أو بندقية أو حقيبة صغيرة، ودخلنا المخبأ وأقفلنا الباب وأخذت أتعاون مع بعض الشبان على تهدئة الجميع وترتيبهم كالسردين في العلب ثم طلب الشبان الخروج للقيام بواجبهم وبعد مشاورة قصيرة استقر الرأي أن نتكاتف

جميعاً للقيام بالدفاع عن المجتمعين معنا بالمخبأ، وأقول لك الحقيقة بكل صراحة وبغير أية مبالغة إنني لم أكن البطل الأول في هذه الموقعة وهذا لا يهمني فأنا لست أمثل دور البطولة في رواية سينمائية ويكفي أنني قد قمت بما فرض علي وخاطرت بحياتي أكثر من مرة، أما الدور الأول للبطولة فقد قام به ستة شبان من جيراننا، فقد بدأنا العمل بسحب (بنك) ضخم من الخشب موجود بغرفة السلاح كنا نستعمله عند تنظيف الأسلحة وتزييتها وله أدراج بها بعض الأدوات اللازمة لذلك، سحبناه إلى جوار الباب وبوقوفنا فوقه أمكننا أن نطل من الكوة التي فوق الباب فنرى الدهليز المؤدي إلى باب السلم ولما كان هؤلاء الشبان الستة قد أجادوا التدريب العسكري والدفاع المدني فقد كان لرأيهم ولأسلحتهم الكفة الراجحة، فعقدنا مجلساً حربياً وقررنا ما يأتي بين دوى القنابل والرصاص والمدافع الرشاشة والبيوت التي تتهدم:

أولاً: أخرج أنا من المخبأ وأجمع بعض الثياب والأحذية والحقائب وأرميها على السلم وأبعثر الأثاث والموائد والكراسي في أنحاء المنزل مقلوبة حتى يعتقد المهاجمون من اللصوص الإنجليز والفرنسيين أن أهل المنزل قد هجروه بعد معركة فيدخلون وهم آمنون، وفي نفس الوقت يمكننا استعمال الموائد المقلوبة وقطع الأثاث الكبيرة كمخابئ لإطلاق النار من ورائها على الأعداء بغير أن يثير شبهتهم تزحزحها عن أمكنتها أو أوضاعها غير الطبيعية.

ثانياً: يخرج الشبان الستة بعد ذلك من المخبأ وكل منهم معه سلاحه ويجد له مكمناً مناسباً يطلق منه النار على كل من يحاول مهاجمة المخبأ نفسه.

ثالثاً: هؤلاء الستة لهم (حكمدار) أي رئيس يشرف على كل شيء وأوامره مطاعة ويختبئ أو يتنقل في أي مكمن يعجبه ليصدر أوامره ويتصرف حسب الظروف.

رابعاً: أمكث أنا في المخبأ لأحفظ النظام وأشجع السيدات، ومن وقت آخر أرقب المنزل من الكوة العليا لباب المخبأ لأخرج وأشترك في القتال أنا ومن معي من الرجال والغرض من اختبائنا أن نكون قوة احتياطية محصنة داخل المخبأ لم يحسب العدو حسابها

بينما نحن نراه وندرك تحركاته.

وأخذت الساعات تمر ونحن في هول جهنم وكنا في أول الأمر نشعر بالدقائق كأنها ساعات طويلة ثم انعكست الآية ولم نشعر إلا وقد بدأ الظلام ينتشر وأحسسنا بالجوع والعطش، فخرجت مرة ثانية وأحضرت ما تيسر من الطعام، ودخلت المطبخ فعملت كمية هائلة من القهوة بمساعدة الزميل الذي كان متحصناً بالمطبخ في الركن وراء (الفرن) الكبير، وبعدما يقرب من ساعتين بدأت الموقعة؛ فقد سمعنا صراخاً وصيحات غريبة على السلم تشبه بالضبط صراخ الزنوج المتوحشين في رقصاتهم وأخذ الرصاص من المدافع الرشاشة يدوي على السلم ثم دخلوا المنزل تحت ستار يمزق الآذان من مدافعهم وأنا أراقبهم من الكوة فرأيتهم لا يزيدون عن خمسة عشر رجلاً من الأعداء ولعلهم طليعة استكشافية يتبعهم غيرهم لاحتلال المنزل واتخاذه حصناً لهم، ثم داروا في جميع الغرف بسرعة غريبة كأنهم عاصفة هوجاء وهم يطلقون النار باستمرار في كل ركن وفي كل مكان ثم هرولوا إلى الشرفة يفحصونها وقد اطمأنوا لخلو المنزل، فنصبوا فيها مدافعهم وعلمت أن هذه هي اللحظة الحاسمة المناسبة فصعدت إلى باب المخبأ لأزيح البنك الخشبي وأخرج وفي نفس اللحظة أمسكت جارتنا المعبودة الصغيرة بذراعي بكلتا يديها وشدت عليها ونظرت في عيني نظرة تتضمن ألف معنى ومعنى كانت أبلغ من كل كلام، فجن جنوني واندفعت خارجاً بغير أي حذر ولا شعور، وصدرت مني حركات غريبة لم أدركها إلا فيما بعد فقد كنت أقفز وأصيح صيحات مريعة وشعرت كأن وحشاً كامناً في أعماق نفسي كان نائماً فاستيقظ بل شعرت بأني كنت ميتاً فبعثت حياً وأن كل مصري من المقاتلين حولي كان نائماً فتنبه، بل ميتاً تدب فيه الحياة حين يحارب ويسيل دمه في سبيل كرامته ورجولته وعزة وطنه، وأخذت أهتف بصوت مرتفع بدون أن أشعر بنفسي مكرراً بعض كلامك يا سيدي الطبيب "من لم يخاطر بحياته فهو ليس برجل".

وبالاختصار خرجت من المخبأ كالمجنون وأطلقت العنان لهذا الوحش الكامن في نفسي وهو القوة العظمى الدافعة قوة الشباب وقوة الكفاح كما علمتني وطبعت في ذهني، واندفعت إلى الشرفة وأنا أطلق على اللصوص سيلاً منهمراً من الرصاص، ومن

العجيب أنني في نفس هذه اللحظة كنت أسمع هاتفاً في أعماق نفسي يقول (إنها تحبني.. إنها تحبني)

أما اللصوص فقد كانت الضجة الخارجية قد أصمت آذانهم وهم يتصيدون الشعب الأعزل من النساء والأطفال فلم يتمكنوا من صدنا لأن زملائي كذلك لما رأوني هاجماً علموا أنني أدركت من مرقبي أن الوقت قد حان فهجموا ورائي وأطلقنا عليهم سيلاً منهمراً من المدافع الرشاشة ومزقناهم تمزيقاً في لمح البصر وكنت أشعر بميل عنيف لأن أهجم عليهم وأمزق لحومهم وأدق رءوسهم وأحطمها بيدي، ثم صاح ديدباننا الذي يحمي المؤخرة: إلى السلم إلى السلم.

فأسرعنا إلى مدخل الدرج وسمعنا ضجة من قوات اللصوص تتصايح فيه كالمجانين فوجهنا إليهم مدافعنا وهم كذلك أطلقوا نيرانهم غير أنهم ارتدوا وهربوا كالأغنام لأنهم أدركوا أنهم وهم على السلم يزحم بعضهم بعضاً، وأننا سنفنيهم من عل وكان بعضهم يصيح باللغة الفرنسية (كمين– كمين) ويظهر أنهم كانوا يعتقدون أن زملاءهم احتلوا المنزل وأنه صار ملجأ مأموناً...

وقد مكثنا بعد ذلك إلى ما بعد منتصف الليل وانقطع الهجوم وخفت الضجة وألهمني الله فكرة صائبة نفذتها في الحال، فقد علمت أن بقاءنا في المنزل مآله الموت تحت الأنقاض ولسبب آخر سأذكره الآن، فدخلت المخبأ وأخرجت الجميع وأنا أناديهم مشجعاً

"لنخرج جميعاً من سلم الخدم وسنقودكم في الزقاق الخلفي ثم نتسلل شيئاً فشيئاً حتى أدبر لكم طريقة للنجاة فاتبعوني"

وبالفعل نفذت هذه الفكرة وأخرجتهم، وبعد مشاق وأهوال وبعض الفواجع الأليمة أركبتهم سفينة من سفن بحيرة المنزلة ذات القلاع الشاهقة وهو النواع الذي يسمى (الزهرية) فحملتهم إلى مدينة المطرية. وسكت المتكلم قليلاً فقلت:

– لاحظت إنك تقول أركبتهم فهل معنى ذلك أنك لم تركب معهم؟؟ ثم لي سؤال

آخر، قلت إن هناك سبباً خاصاً دفعك لإخراجهم من المنزل فما هو؟

– نعم نعم هذا صحيح، فأولاً لم أركب معهم بالفعل بل عدت إلى ميدان القتال وإلى نفس منزلي، وهذا في نفس الوقت هو الجواب على سؤالك الثاني فقد عدت إلى المنزل لأقوم بالواجب الأخير نحو الشهداء، فقد استشهد في هذه الموقعة أربعة منا ولهذا أسرعت بإخراج الجميع من المنزل قبل أن يتنبه أهل الشهداء إلى ما حصل فتخور عزائم الجميع وأوهمناهم أن بقية الشبان سيتبعونهم عن كثب للمراقبة والدفاع.. والحمد لله قد قمت بواجب الشهداء خير قيام ولا أريد أن أطيل عليك بذكر ما لاقيته في سبيل ذلك من المشقات والأهوال التي تعتبر تلك الموقعة بالنسبة لها رحلة صيد لطيفة، وأختم قصتي بأني لم أستطع العودة إلى المطرية عبر بحيرة المنزلة فوضعت بعض أعضائي في الجبس كما ترى وأنا سليم ليس بي خدش وتمكنت بذلك من خداع الإنجليز وركوب قطار الجرحى الذي أنزلنا في الإسماعيلية ومنها ركبت إلى مصر وجئت إليك.

فصحت به متعجباً:

– إذن ليس بك أية إصابة؟؟ يا لها من حيلة بارعة، ولكنك بلا ريب نسيت ناحية مهمة وقسماً كبيراً من القصة.. وهي الناحية العاطفية...

– أعرف ما تقصد ونحن يا سيدي الدكتور تجار أباً عن جد أي أننا عمليون برغم توقد عواطفنا، وأنا سأخرج الآن من عيادتك إلى الفندق لأزيل هذا الجص ثم أشتري (خاتم الخطبة) لزوجتي الصغيرة.

الفهرس